
كتابي
60
شارلوت برونتي
جين إير
الجزء الثالث
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
APPROVED



عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبًا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن «آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنس جراى) ، التى تروى قصة مُربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مُرتفعات ودرنج) .

أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به «شارلوت» فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، وشارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين !

وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لوورود» .

حلمى مراد



جين إير

الجزء الثالث والأخير

هكذا بدأت القصة

ملخص ما ورد فى الجزءين الأول والثانى

● كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى — أنا (جين إير) — فى طفولتى ، هو أننى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال !.. فقد مات والداى — الواحد بعد الآخر ، فى مدى شهر واحد — وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً . فكفلنى خالى مستر (ريد) ، الذى كان يعيش فى رخاء فى قصر (جيتسهيد) . ولكنه لم يلبث أن توفى ، وتركنى فى رعاية أرملته مسز (ريد) .. على أن حياتى بعده لم تكن نعيماً ؛ فقد كان (جون) — ابن خالى — يجد متعة فى إيذائى ، وكانت شقيقتاه (جورجيانا) و (إليزا) تتعاليان علىّ ، بينما حرصت أمهم — مسز ريد — على أن تعاقبنى بذنوبهم ، وأن تعمل على إذلالى . وحدث ذات مرة أن حبستنى ، فى غرفة مهجورة ، رهيبة ، استبد بى فيها الفزع ، حتى أسلمنى إلى مرض قاس . ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفها هذا الحادث ، إلى أن أروى للصيدلى — الذى عادنى وعالجنى — كل ما كنت ألاقيه من عنت مسز ريد وأولادها وخدمها ، فعرض الرجل الطيب أن يتصل بأقاربى ليتقذونى من الحرمان والعذاب ، ولكننى لم أكن أعرف أحداً من أهل أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسز ريد من أنهم فقراء ، وضيعون .. ولم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتى بالفقر !.. ومن ثم اقترح الصيدلى على مسز ريد أن تلحقنى بمدرسة داخلية ، فراق لها أن تتخلص منى ، وألحقتنى فعلا بمعهد خيرى

للبقاء في (لو وود) .. وكان خير عزاء لي في حياتي الجديدة ، أن مالت ناظرة المدرسة — مس تمبل — إليّ ، فغمرتني بعطفها وتشجيعها ..

وقضيت في المدرسة ثماني سنوات : ستاً كتلميذة ، واثنتين كمعلمة ، وأتقنت في تلك الأثناء الرسم ، والعزف على (البيانو) ، كما أجدت اللغة الفرنسية . ثم استبدت بي الرغبة في مبارحة (لو وود) ، بعد أن تزوجت نصيرتي (مس تمبل) وغادرتها .. ولم ألبث أن عينت معلمة لتلميذة دون العاشرة من العمر . فانتقلت إلى قصر (ثورنفيلد) بالقرب من مدينة (ميلكوت) :

• • •

● ولم يكن في القصر سوى سيدة مسنة تدعى مسز (فيرفاكس) — عرفت فيما بعد أنها المشرفة عليه وليست ربته — وفي رعايتها تلميذتي (أديل فارنس) التي كانت في حوالي السابعة أو الثامنة من عمرها ، والتي كانت نحيلة ، شاحبة ، لطيفة ، ولدت في فرنسا ، وكفلها مستر (روشستر) سيد القصر . ولم تكن الصغيرة تذكر عن أبيها شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقنها — منذ طفولتها — الشعر والإلقاء والرقص .. ولم ألق بالا إلى والدي تلميذتي . فقد علمت أنهما ماتا .. أما سيد القصر . فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل ، أنه كان سيداً محترماً ، يملك معظم أراضي المنطقة ، ويعتبره مستأجرو أراضيه عادلا متحرراً . وكان كثير الأسفار ، على شيء من الشذوذ ، فلا يكاد المرء يدرك أمسرور هو أم مستاء ، بل لا يكاد المرء يفهمه ! .. ولكنني لم أحفل بهذا ، إذ كان السيد متغيباً ، وكان حنان

مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتي بي ، وأبهة القصر وجمال المناظر المحيطة به .. كل هذه كانت تشغلني عن السيد الغائب !

ولم يكن في القصر عدانا سوى مربية فرنسية تدعى (صوفي) ، جاءت مع أديل من أوروبا ، وخادم لتنظيف الدار تدعى (لياه) ، وحوذي يدعى (جون) وزوجته . وكان لهم صف من الحجرات الصغيرة — خلف القصر — لسكناهم ; وفيما عدا هذا ، كان يخيم على القصر طابع غريب ، يبدو في أجلى صوره في الطابق الثالث ، الذي كان مكتظاً بقطع من الأثاث عريقة في القدم ، بل أثرية .. وأوحى إليّ جوّه بالأشباح !

وفيما كانت مسز فيرفاكس تطوف بي حجرات هذا الطابق ، سمعت ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كئيبة ! .. وإذ تكررت من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، قالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول ! » .. وقدر لي أن أرى (جريس) هذه ، فيما بعد ، فإذا بها امرأة ربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شبحاً مخيفاً ! .. واعتدت — بعد ذلك — أن أسمع هذه الضحكة الرهيبة تجلجل ثم تعقبها غمغمة شاذة ، وأن أرى (جريس) — أحياناً — تغادر غرفتها إلى المطبخ ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالطعام . وكان مظهرها يخالف تصرفاتها الشاذة . فقد كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة ، وكثيراً ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تبدي زهداً فيه ، وتجيب باقتضاب يقطع على المرء أي أمل !

• وفى عصر أحد أيام شهر يناير – وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر فى القصر – خرجت أسعى على قدمى إلى قرية (هاى) التى كانت تبعد بحوالى الميلين عن القصر ، وإذا بى أفاجأ فى بقعة موحشة من طريق ضيق على سفح التل ، بفارس يصحبه كلب ضخم .. واستبد بى الخوف ، وقد خلت أن الفارس وجواده وكلبه من الأشباح . ولكن الجواد لم يلبث أن انزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه . وخففت إلى مساعدته ، فتقبل المساعدة فى جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أسمر البشرة ، ذا قسمات جافة ، وحاجبين غزيرين يلتقيان فوق عينيه ..

وعندما عدت إلى القصر فى المساء ، عرفت أن الفارس لم يكن سوى .. مستر روشستر ، سيد القصر !

ودبت الحياة فى (ثورنفيلد هول) بمقدم السيد ، ولكننى لم أحظ بلقائه ، حتى طلب ذات مساء أن أتناول وتلميذتى الشاى معه فى حجرة الاستقبال . وكانت مقابلته لى جافة ، فاترة ، ولكنه ما لبث أن سألنى عن حياتى السابقة ، وعن قراءاتى وهواياتى فى شىء من الجفاء والسخرية .

وإذ خلوت إلى مسز فيرفاكس فى تلك الليلة ، أبديت دهشتى لتقلب طباع السيد وفظاظته ، فإذا بها تلتمس له العذر بأن لديه أفكاراً مؤلمة تنكد عليه صفوه وتعذب روحه !.. وعلمت أن حياته العائلية لم تكن هانئة ، فقد أوغر أخوه الأكبر صدر أبيهما عليه ، ومن ثم اتحدا على أن يورطاه فى مركز أليم أغضبه منهما ، فقاطع الأسرة ، ولم يعد يستقر فى حياته ، ومع أنه ورث المقاطعة منذ تسع سنوات – لوفاة أخيه – إلا أنه

لم يكف عن الأسفار ، ولم يكن يقيم فى (ثورنفيلد) أكثر من أسبوعين فى أية مرة .. وأدركت من الحديث أن فى الأمر سراً غامضاً ، ولكن مسز فيرفاكس لم تشأ أن تفصح عن شىء !

* * *

• وسألنى مستر روشستر مرة وقد فاجأنى وأنا أتأمل سحنته : « أترينى جميلا ؟ » .. وقبل أن أفطن إلى واجبات المجاملة واللباقة ، انزلق لسانى قائلا : « لا يا سيدى ! » .. وحاولت أن أعتذر ، ولكنه أصر على أن أنتقد عيوبه . فلما تورعت قال : « إننى لا أطيق معاشرة الأطفال والنساء العجائز .. ولست محباً للبشر والإنسانية بصفة عامة . ولكنى أحمل ضميراً بين جنبى ، كما كان لى فيما مضى قلب رقيق .. وكنت فى سنك شديد الحساسية ، أعطف على كل من لم يستكمل النضج ، وكل من لا يجد عائلا ، وكل من يخونه الحظ . بيد أن القدر عادانى منذ تلك الوقت .. بل إنه طحننى بيديه » .

وراح يحاورنى فى حديث لم يكن من اليسير على المرء أن يقطع بما إذا كان جاداً أو هازلا ، صريحاً أو ماكراً !.. وتبدى لى الرجل عجيباً .. وكان يقرأ فى عينى ما يطوف برأسى . وحدثنى عن نفسه : فكان مما قاله : « أقسم لك إننى لست شريراً ولا وغداً ، ولكننى – لظروف خاصة أحاطت بى – أصبحت مبتذل الأخلاق ، وآثماً مهيناً تردى فى كل الملذات الرخيصة التى يحاول الأغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم » وتطرق إلى فلسفة الخير والشر ، والتوبة بعد الخطيئة .. ثم حدثنى عن أديل ، فأدركت منه أنها ابنة ممثلة فرنسية كانت تدعى (سيلين فارنس) ،

قال عنها : « لقد فتنتني وجعلتني أنفق عليها بغير حساب ، عندما كنت غض الإهاب » .. وما لبث أن روى لي قصته معها — في لقاء آخر : كان مفتوناً بالممثلة الفرنسية ، وقد أوهمته بأنها تحبه حباً عنيفاً — برغم دمامته — إلى أن اكتشف يوماً أنها تؤثر عليه (فيكونت) شاباً ، طائشاً ، فاسداً . وجمعهما بستانه بأقذع السباب ، وأخذت (سيلين) تعدد عيوبه وعاهاته .. ففاجأهما في خلوتهما تلك ، وهجر الغانية ، كما بارز (الفيكونت) فترك في ذراعه رصاصة .. وظن أنه انتهى منهما ، ولكن (سيلين) كانت قد جاءته بالصغيرة (أديل) قبل ذلك بستة أشهر ، فما لبث أن هجرت الطفلة — التي زعمت أنها ابنته — و « لم أكن أعترف بأي حق شرعي لأديل ، بيد أنني أنقذتها من أوحال باريس ، لتترعرع هنا في تربة نظيفة » ! .

* * *

● وجذبتني إليه صراحته وثقته اللتان جعلتاه يعاملني كما لو أنه كان قريبي وليس مخدومي .. وأدركت أن ما كان يبدو عليه من خشونة وخبث واكتئاب ، إنما نشأ عن صدمات القدر القاسية !

وفي الليلة التي روى لي فيها قصته مع (سيلين) ، استيقظت في جوف الليل على ضحكة شيطانية خبيثة ، وعلى أنين وخوار .. وتوقعت أن تكون (جريس بول) في إحدى نوباتها ، ولكنني لم أقو على البقاء بمفردي ، فخرجت إلى الردهة ، وإذا بي أكتشف حريقاً في مخدع مستر روشستر ! .. واستطعت أن أطفىء النار التي كانت مشتعلة حول الفراش ، وأن أوقظ السيد في اللحظة المناسبة ، وهممت بأن أطلب النجدة ، ولكنه

استحلفني أن أكتم كل شيء ... وعندما هممت بأن أغادر مخدعه أمسك يدي وقال : « لقد أنقذت حياتي .. وما كنت لأحتمل أن أدين لمخلوق بمثل هذا الدين الضخم ، ولكن الأمر يختلف معك .. كنت أعرف أن خيراً سيصيبني على يديك ! » .

وأدهشني أن أتبين في اليوم التالي أنه زعم لمسز فيرفاكس والخدم بأنه استغرق في النوم بينما كان يقرأ في فراشه ، فامتدت النار من الشمعة إلى الستائر .. ولكن الذي أذهلني حقاً ، هو أنني رأيت (جريس بول) في المخدع تخيط ستائر جديدة ، دون أن يبدو عليها أي انفعال أو شعور بالإثم .. وعجبت من أن يتكتم السيد الجسور ، المنتقم ، المتعالي ، جرم خادم كهذه ، ويدع نفسه تحت رحمتها ! ..

وضاعف من عجبي أن السيد رحل في صباح الحادث ، دون أن أفطن إلى رحيله .. وعلمت من مسز فيرفاكس أنه في زيارة قصر أسرة من ذوي الجاه ، حيث كان مدعواً مع طائفة من علية القوم .. وداخلني شعور غريب عندما حدثتني السيدة العجوز عن شغف سيدات المجتمع الراقي بمستر روشستر برغم أن شكله لم يكن يرشحه لذلك .. واشتد أثر ذلك الشعور عندما سمعت منها أن السيد كان يبدي اهتماماً خاصاً بفتاة من أسرة رفيعة تدعى (مس انجرام) ، وكانت حسناء ، ذات جمال خلاب .. وشد ما جزعت حين تبينت حقيقة ذلك الشعور الذي أيقظه في نفسي حديث مسز فيرفاكس ، فأدركت أنني .. أحببت مخدومي ! .

* * *

● واشتدت تباريح الهوى ، عندما أقبل مستر روشستر — بعد أسبوعين

من غيابه — مصطحباً طائفة من سيدات وسادة الطبقة الراقية .. وكانت (مس انجرام) بينهم !.. وفي الوقت الذي كنت أعاني فيه من صلف هؤلاء السادة والسيدات ، وجدتني أكتوي بالغيرة اللاذعة ، لما كان يبديه مخدومي من اهتمام بمس انجرام ، ومن تقرب إليها .. وحاولت أن أكبح جماح قلبي ، ولكنني لم أكن أملك أن أنصرف عن حب مخدومي .. حتى بعد أن أدركت أن لابد له من أن يتزوج من الفتاة لاعتبارات عائلية واجتماعية !.. ولم أكن كذلك أملك أن أستنكر هذا الزواج ، ولكنني أوجست منه شراً ، إذ تبدت لي مس انجرام متعجرفة ، ضحلة المشاعر ، تافهة التفكير !.

وحدث أن هبط القصر ذات يوم رجل غريب ، ذكر أنه يدعى (ميسون) ، وأنه قدم من (جمايكا) ، وأنه كان صديقاً لمستر روشستر ، ولكن السيد كان متغيباً عن القصر ، فأصر الغريب على أن يمكث في انتظاره .. وفي تلك الأثناء ، أقبلت عجوز من الغجر ، تعرض فنونها في قراءة الطالع والتنبؤ بالغيب ، ولكنها أصرت على أن تقصر تنبؤاتها على الشابات غير المتزوجات فقط ، وعلى أن تكون كل منهن على حدة ، تخلو إليها في غرفة المكتبة دون رقيب !.. وأقبلت الشابات في لهفة وفضول ، فدخلن للعجوز تباعاً ، حتى إذا فرغت منهن ، أقبل خادم يقول : « إن الغجرية تقول إنه لاتزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب إليها ، وتقسم ألا تنصرف حتى تراها ! » .. ووجدتني مسوقة إلى أن أتسلل إلى غرفة المكتبة ، وبادرتني العجوز متسائلة : « لماذا لاترتجفين ؟ » فأجبت بأنني لا أشعر ببرد ، وعادت تسأل : « ولماذا لم يشحب وجهك ؟ »

فأجبت : « لأنني لست مريضة » ، واستطردت تسألني : « ولماذا لاتستشيرين حرفتي ؟ » ، فقلت : « لأنني لست حمقاء » !.. وإذا العجوز تضحك قائلة : « بل أنت بردانة لأنك وحيدة لايشعل نيرانك الكامنة احتكاك .. ومريضة لأن أسمى وأحلى مايوهب من المشاعر للرجال ينأى عنك .. وحمقاء لأنك برغم ماتقاسين لا تشيرين إليه (أي للرجل المرموق) ليقترب منك ، ولا تتقدمين خطوة نحوه لتلتقي به ! » .. ومضت تحلل نفسي تحليلاً معقولاً ، حتى مست خفيفاً موضوع ماكان يراودني من غيرة لما كان بين مستر روشستر وضيفته الفاتنة ، وتنبأت بأن السيد لن يلبث أن يتزوج من مس انجرام ، ثم راحت تكشف عن أدق ما كان يخالج نفسي من أحاسيس خفية .. وما أن انتهت حتى قالت : « ألا انهضي يامس إير .. لقد انتهت المسرحية ! » .

وشد ما كانت دهشتي حين تبينت أن الغجرية العجوز ، لم تكن سوى ... مستر روشستر متنكراً ؟ وإذ قلت له إن الضيف الغريب — مستر ميسون — في انتظاره ، شحب وجهه وترنح قائلاً : « يالشيطان !.. لقد أصابتني لطمة ياجين !.. لقد قدمت لي كتفك مرة من قبل ، فدعيني أتكئ عليها اليوم » .. وما لبث أن سألني أن أدعو إليه السيد ، ولكنه استوثق — قبل ذلك — من أنني على استعداد لأن أعاونه ، فقال : « ولو جاء هؤلاء الناس وبصقوا في وجهي ، فماذا تفعلين ؟ » .. فقلت : « أطردهم ! » .

— وإذا شهروا بك لتمسكك بي ؟

— لا أعرف شيئاً عن هذا التشهير ولكني لن أحفل به لو عرفته !

● وقضى مستر (ميسون) ليلته فى القصر ، ولكننى استيقظت فى جوف الليل على صرخة مروعة ، حادة ، أعقبها ضجيج صراع كان يدور فى الغرفة التى كانت تعلو غرفتى ، وصرخات تطلب النجدة وتنادى روشستر .. وقفز الضيوف من مضاجعهم مذعورين . ولكن سيد القصر لم يلبث أن ظهر فطمأنهم وزعم أن كابوساً انتاب خادماً عصبية ، سريعة الهياج .. وما أن اطمأننت إلى أن الجميع عادوا إلى مخادعهم ، حتى ارتديت ثيابى ، وجلست أنتظر وقد شعرت بأن مخدومى فى حاجة إلى معونتى .. وفعلا أقبل بعد قليل ، فسألنى أن أحضر إسفنجاً وبعض (النوشادر) ، ثم قادنى إلى غرفة فى الطابق الثالث .. وسمعت ضحكة (جريس) تنساب من غرفة داخلية ، ينفذ المرء إليها خلال غرفة أخرى واسعة بها سرير كبير .. وفى هذه الحجرة رأيت مستر ميسون فاقد الوعى جريحاً . وتركنى السيد أعنى بإيقاف الدماء التى كانت تنساب من جراح ضيفه ، بينما أسرع هو إلى استدعاء جراح ..

واشتد بى الخوف وأنا وحيدة مع الجريح ، لايفصلنى عن المرأة التى كادت تفتك به - والتى أوشكت أن تحرق روشستر من قبل - سوى باب واحد ! .. ورحت أسائل نفسى : أية جريمة هذه التى تعيش متجسدة فى القصر المنعزل ، دون أن يقوى صاحبه على إقصائها ؟.. ولقد سمعت مستر روشستر يختار لضيفه غرفة فى الطابق الأسفل ، فما الذى جاء به إلى هنا ؟.. ولماذا تستر مستر روشستر على الحريق ، كما أخذ يتستر على هذا الحادث الأخير ؟.. ثم ، لماذا وقع نبأ وصول مستر ميسون عليه وقع الصاعقة ؟.. وأخرجنى من خوفى وحيرتى مقدم السيد مصطحباً

الجراح ، الذى وجد أن لحم كتف ميسون كان ممزقاً من آثر أسنان .. وقال الجريح : « لقد عضتنى .. انقضت علىّ كنمرة ضارية ، عندما انتزع منها روشستر السكين ! » .. فقال مستر روشستر : « كان عليك أن تصارعها ولا تستسلم .. لقد أنذرتك ! . كان فى وسعك أن تنتظر إلى الغد لأكون معك .. كانت حماقة منك أن حاولت مقابلتها الليلة وحدك ! » . وشاهدته يرتجف فى اشمئزاز ورعب وكراهية وهو يتكلم .. وما لبث أن أمرنى بأن أحضر من خزانته قميصاً ورباط رقبة لمستر ميسون ، ثم ذكر له أنه سيرسله مع الجراح بعيداً عن القصر قائلا : « إن هذا لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية . لقد ناضلت طويلا لتحاشى التعريض والتشهير . ولا أريد أن يحدث شىء من هذا أخيراً ! » .

وفى هدوء ، رحل مستر ميسون مع الطبيب بينما كان الضيوف نائمين !

* * *

● وكان الصبح قد تنفس عندما ودعتهما مع مستر روشستر . فلما تهيأت للعودة إلى داخل القصر ، دعانى إلى بستان ذى باب مغلق - فى جانب من القصر . وأخذنا نتمشى فى هدوء . وسألته إن كان الخطر الذى توقعه عندما علم بوصول مستر ميسون قد انتهى ، فقال : « لا أستطيع الجزم بذلك .. حتى بعد أن يغادر ميسون انجلترا !؟.. إن ميسون لن يمسنى عامداً بأذى ، ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، فى حرمانى إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتى ! » .

وفيما كنا جالسين فى البستان ، حدثنى عن انغماسه منذ الصغر فى حياة كلها زيف ومظاهر ، وكيف أنه ارتكب فى بلد أجنبى خطيئة تراكمت نتائجها حتى أصبحت لا تطاق ، وحتى أغلقت أبواب الأمل فى وجهه وهو بعد فى مقتبل العمر . فأخذ يهيم على وجهه بحثاً عن الراحة . ومضى ينشد السعادة فى اللهو الجنونى الشهوانى الذى يظلم العقل ويؤذى الشعور .. ثم عاد إلى الوطن بعد سنوات من النفى الاختيارى مثقل القلب ، ليجد صديقاً جديداً لمس فيه الفضائل التى ظل يبحث عنها عشرين سنة ، فإذا قلبه ينتعش ، وإذا آماله تتجدد .. وكنت أنا ذلك الصديق على ما فهمت . ولكنه استطرد قائلا : « إنه يرجو أن يبدأ حياة جديدة سعيدة مع ذلك الصديق الغريب ، ولكن : هل يجوز له أن يتخطى عقبة العرف والعادات .. تلك العقبة التى لا يقرها ضمير ولا عقل ؟ » .

وما لبثت أن فوجئت بدعوة من مسز (ريد) أرملة خالى التى سامتنى العذاب فى صغرى .. كان ابنها قد مات بعد أن بدد ثروته ومعظم ثروتها ، وكانت هى تحتضر وتطلب أن أكون إلى جوارها . وسمح لى مخدومى كارهاً بأن ألبى دعوتها ، فرحلت إلى (جيتسهيد) . وهناك وجدت مسز (ريد) ما تزال تكن لى أبشع ألوان البغضاء ، برغم أنها كانت على أبواب القبر .. وتبينت أنها كانت قد تلقت خطاباً منذ سنوات ثلاث من قريب لوالدى يدعى (جون اير) ذكر فيه أنه هاجر إلى (ماديرا) حيث أصاب ثروة ، وأنه يتمنى أن يتبنانى ليترك لى ثروته عند موته . ولكن الأرملة الحقود كتبت إليه زاعمة أنى مت ! .

● وانقضى شهر قبل أن أعود إلى (ثورنفيلد) بعد موت مسز (ريد) .. وكان مستر روشستر أول مخلوق رأيته عند عودتى ، إذ كان يجلس وحيداً فى طرف ناء من حدائق القصر ، فاستقبلنى بابتهاج .. وزخر الشهران اللذان أعقبا عودتى بهدوء مريب ، مشوب بالغموض . إلى أن خرجت أتنزه عند غروب شمس أحد أيام منتصف الصيف ، وإذا مستر روشستر يلقانى فى البستان ، فيحدثنى فى لهجة غامضة عن زواجه ، ولما أبديت رغبة فى مبارحة القصر وترك منصبى قبل وصول عروسه ، اقترح أن يلحقنى بخدمة أسرة صديقة له فى (إيرلندا) ... فقلت واجفة القلب : « ولكن إيرلندا بعيدة يا سيدى .. والبحر يفصلها عن انجلترا ، وعن ثورنفيلد ، وعن ... » ، فتساءل : « وعن ماذا ؟ » .. فقلت : « وعنك أنت يا سيدى ! » وطفرت الدموع من عينى دون إرادتى .. وعصفت الأحزان بكيانى ، فلم ألبث أن هتفت : « ليتنى لم أولد ولم تقع عيناى على ثورنفيلد ! » .

واهتاجنى الحزن والحب ، فإذا مستر روشستر يحتوينى بين ذراعيه ويضغط شفتيه على شفتى ، ويقول : « إن إرادتك سوف تقرر مصيرك ، وأنا أقدم لك قلبى ويدى وممتلكاتى .. هل تتزوجيننى ؟ » .. وظننته فى البداية يسخر منى أو يعبث بى ، ولكنه راح يؤكد لى أنه جاد ، وأنه ما فكر فى الزواج من مس انجرام راضياً ، لا سيما وقد استوثق من أنها لم تكن تحبه ، وإنما كانت تحب ثروته ، فلما أوهمها بأن هذه الثروة لا تساوى ثلث قيمتها الظاهرية ، انقلبت معاملتها له إلى فتور . واستطرد قائلا : « أما أنت .. أنت أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة

التى لا تمت إلى الأرض بصلة .. فإننى أحبك كما لو كنت من لحمى .. أنت ، أيتها الفقيرة المغمورة الضئيلة البسيطة .. أنت هى التى أتوسل إليها أن تقبلنى زوجاً ! » .

وحدد للزواج موعداً بعد أربعة أسابيع ، فلم تكد الدنيا تتسع لفرحتى !

• • •

● وانقضى الشهر كأنه حلم بهيج ، لم يكن يعكر هنائى خلاله ، سوى شعور مبهم بأنه لم يكن من المعقول أن يحالفنى القدر إلى الحد الذى يحقق سعادتى .. ووقر فى نفسى أن زواجى من مستر روشستر لن يتم !

وحدث أن تغيب مستر روشستر عن القصر يومين ، وكان مقدراً أن يعود فى الليلة السابقة على الزواج فجلست أنتظره ، ولكنه تأخر .. وكانت الأمطار تهطل مدرارة ، والرياح ترسل عواء حزيناً ، رهيباً .. وأويت أخيراً إلى مخدعى ، ولكنى غادرته فى جوف الليل ، وانطلقت إلى الخارج غير حافلة بالعاصفة ، لأنتظر السيد الحبيب ، وما أن رآنى حتى هتف فى جزع مشفق يسألنى عما بى .. ووجدتنى أفضى إليه بمخاوف وهواجسى . فلقد رأيت فى المنام فى الليلة السابقة أنى أسير فى طريق مجهول ، كثير التعاريج ، والمطر ينهمر مدراراً . وعلى ذراعى طفل صغير يولول بصوت حزين .. وكنت أحاول أن ألحق بمستر روشستر .. ورحت أناديه وأضرع إليه ، ولكن قدمى سمرتا إلى الأرض وصوتى راح مع الريح ، والسيد يمعن فى الابتعاد عنى .. واستيقظت من الحلم مذعورة ، ولكنى لم ألبث أن نمت ثانية ، فرأيت مناماً أكثر

رهبة .. رأيت قصر (ثورنفيلد) أطلالا موحشة .. ورأيتنى أتجول وسط الحشائش التى نبتت بداخله ، وأنا أحمل الطفل المجهول ، وإذا بقدمى تتعثران .. وما لبثت أن سمعت وقع سنابك جواد ، فخيل إلىّ أن مستر روشستر هو القادم ، وأسرعت أتسلق جداراً ، وإذا بالأحجار تنهار ، وإذا بالطفل يلف ذراعيه حول عنقى حتى كاد يخنقنى .. وفقدت توازنى فسقطت ، ثم صحوت من نومى ، فبهر عينى نور شمعة ، ورأيت باب الخزانة — التى علقت فيها ثوب الزفاف وخمار العرس — مفتوحاً .. وهتفت ظانة أن (صوفى) — مربية أديل — فى الحجرة ، وإذا بشخص يبرز من الخزانة ، ويرفع النور عالياً ، ويتأمل الثياب المعلقة ، وهو صامت !.. واستبدت بى الحيرة والخوف ، ثم جمد الدم فى عروقى .. لم يكن الشخص (صوفى) ، ولا (لياه) ، ولا مسز (فيرفاكس) ، ولا تلك المرأة الغريبة الأطوار .. (جريس بول) .

. . . .

والآن تستطيع أن تقرأ ما تبقى من هذه القصة الرائعة :

. . . .

● وقاطعني سيدى قائلا : « لابد أن الشخص كان واحدة منهن » .

— لا يا سيدى ، أقسم لك إن الأمر كان على النقيض .. إن الشكل الذى كان ماثلا أمامى ، لم تقع عليه عيناى فى أرجاء (ثورنفيلد هول) من قبل .. كان ارتفاع القامة والتفافها غريبين عنى .

— صفيه يا جين !

— يلوح لى ياسيدى أنها امرأة مديدة ضخمة يتدلى شعرها الغزير الأسود على ظهرها ، ولا أدرى ماذا كانت تلبس ، فقد كانت ترتدى شيئاً أبيض مستقيماً لم أتبين ما إذا كان عباءة أو ملاءة أو كفناً !

— هل شاهدت وجهها ؟

— لم أره فى البداية ، ولكنها سرعان ما أخذت خمار الزفاف من مكانه فرفعته وراحت تتأمله طويلا ، ثم ألقت به على رأسها واستدارت إلى المرآة . وفى تلك اللحظة شاهدت وجهها وأساريرها منعكسة بوضوح تام على صفحة المرآة المعتمة .

— وماذا كان شكلها ؟

— مخيفة ، مروعة .. أواه يا سيدى ، ما رأيت قط مثل هذا الوجه !.. وجه عديم اللون ، وحشى ، بودى لو أنسى كيف كانت مقلتاه الحمراوان تجولان فى محجريهما اللذين توسطا وجهاً منتفخاً ، مسوداً ، رهيباً !

— إن الأشباح شاحبة فى العادة يا جين !

— لقد كان هذا الشبح قرمزياً يا سيدى ، وكانت الشفتان متورمتين داكنتين ، والجبين مغضناً ، والحاجبان الأسودان مرتفعين

متباعدين فوق العينين اللتين كانتا بلون الدم .. أفأقول لك بماذا ذكرنى هذا الشبح ؟

— قولى !

— بالشبح الألمانى المخيف .. الغول شارب الدماء .

— آه .. وماذا فعلت تلك المرأة ؟

— رفعت خمارى عن رأسها الهزيل يا سيدى ، ثم مزقته شطرين ألقت بهما على الأرض وداستهما بقدميها .

— وبعد ذلك ؟

— جذبت إحدى ستائر النافذة وأطلت إلى الخارج ، ولعلها شاهدت تباشير الفجر ، لأنها تناولت الشمعة وسارت إلى الباب . فلما بلغت فراشى . وقفت وراحت تحدق فىَّ بعينيها المتقدتين ، ثم دفعت بالشمعة قريباً من وجهى ، وأطفأتها تحت عينى . وأحسست بوجهها يلفح وجهى ، فأغمى علىَّ للمرة الثانية .. أجل ، للمرة الثانية فى حياتى فقدت رشدى لفرط الرعب !

— من كان معك عندما أفقت من إغمائك ؟

— لا أحد يا سيدى غير ضوء النهار .. فنهضت من فراشى وغسلت وجهى ورأسى ، وشربت بعض الماء . وكنت أحس ضعفاً ، ولكنى لم أكن مريضة . وعولت على ألا أبوح بهذه الرؤيا لأحد سواك يا سيدى . والآن خبرنى يا سيدى ماذا ومن تكون تلك المرأة !؟

— إنها من ابتداع رأس زاخر — أكثر مما ينبغى — بالمثيرات ،

ولابد لى من أن أعنى بك يا كنزى الغالى . لأن أعصاباً كأعصابك لم تخلق للمتاعب .

— ثق يا سيدى أن أعصابي لم تكن مرهقة ، وأن الرؤيا صحيحة ، وأن الحادث وقع فعلا .

— وأحلامك السابقة ، هل كانت حقيقية هى الأخرى ؟.. هل ترين (ثورنفيلد) أطلالا ؟ وهل صحيح أنى افترقت عنك وحالت بينى وبينك عقبات لا يمكن تذليلها ؟ هل فارقتك بدون دمعة .. بدون قبلة .. بدون كلمة ؟

— كلا ، لم يحدث شىء من هذا بعد .

— وهل أنا على وشك القيام بذلك ؟ لقد بدأ فعلا اليوم الذى سوف نرتبط فيه برباط لا تنفصم عراه ، وإذا امتزجنا واتحدنا فلن تعاودك هذه الأحوال الذهنية .. إننى أضمن لك ذلك !

— أحوال ذهنية يا سيدى ؟.. ليتها كما تقول ! ليتها كانت كذلك ما دمت تعجز عن تفسير هذه الرؤيا المفزعة .

— وما دمت عاجزاً عن تفسيرها يا جين ، فلابد أنها غير حقيقية .

— ولكننى يا سيدى عندما قلت لنفسى هذا القول ثم غادرت فراشى فى هذا الصباح ، نظرت حولى فى الغرفة لأجمع شتات نفسى ، فإذا عيناى تقعان على الخمار ملقى على الأرض وقد انشق من أوله إلى آخره !

* * *

● وشعرت بمستر روشستر يفزع ويرتعد ، ثم بادر بطوقنى بذراعيه

ويصيح : « حمداً لله إذ اقتصر الشر فى الليلة الماضية على تمزيق خمارك !.. إن يدى لترتعش كلما تصورت ما كان يمكن أن يصيبك » .. ثم تنهد ، وجذبنى إليه بشدة كدت معها لا أقوى على اللهث . وبعد أن أخلد إلى الصمت لحظات قال فى ابتهاج : « سأشرح لك الآن يا جين كل شىء .. لقد كان الأمر نصف حلم ، ونصف حقيقة . فلست أشك فى أن امرأة دخلت حجرتك . ولابد أن تكون هذه المرأة جريس بول فقد وصفتها أنت بأنها مخلوقة عجيبة ، ولك الحق فى هذا الوصف بعد الذى علمتيه عنها .. أفتذكرين ما فعلته بى ؟.. وما فعلته بمستر ميسون ؟. ولابد أنك كنت بين النوم واليقظة حين لاحظت دخولها وأفعالها . ولكنك فى حالتك المحمومة ، بل فى هذيانك ، تصورتها فى صورة خيالية لا تتفق والواقع .. وما الشعر الطويل المشعث ، والوجه المنتفخ الأسود ، والقوام المبالغ فيه ، سوى أوهام الخيال وتلفيقاته الناشئة عن كابوس .. أما تمزيق الخمار فحادث حقيقى من المعقول أن تقدم عليه . ولعلك تسألينني لماذا آوى مثل هذه المرأة فى منزلى ؟ وسأتولى الرد على ذلك بعد أن ينقضى على زواجنا عام ويوم ، وليس الآن .. أفأنت راضية الآن يا جين ؟ هل قبلت شرحى للغز ؟ »

وفكرت فرأيت أن هذا كان التفسير الوحيد المحتمل . ومع أننى لم أقتنع به تماماً ، إلا أننى تظاهرت بذلك لأبعث السرور فى نفسه : ومن ثم أجبت بابتسامة راضية . وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بكثير ، فتأهبت لمغادرته .. وعندما أضأت الشمعة ، سألنى : « هل تنام صوفى مع أديل فى غرفة الأطفال ؟ » . فأجبت : « نعم يا سيدى » .

— إن فى فراش أديل على صغره متسعاً لك ، فعليك أن تشاطريها إياه الليلة يا جين ، فليس من العجيب أن يؤثر الحادث الذى رويته على أعصابك ، وأؤثر لذلك ألا تنامى وحيدة ، عليك أن تأوى إلى حجرة الطفلة !

— سأفعل هذا بكل سرور يا سيدى .

— ثم أغلقى الباب جيداً من الداخل بعد أن توقظى (صوفى) عند صعودك متعللة برغبتك فى أن توصيها بإيقاظك فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، لأن عليك أن ترتدى ثيابك وتفرغى من فطورك قبل الثامنة .. والآن ، اطرحى عنك الأفكار المظلمة ، بل طاردى الهموم القاتمة يا جين . ألا تسمعين كيف انقلبت الرياح إلى همسات ناعمة ، وكف المطر عن طرق زجاج النوافذ .. انظرى (ورفع الستارة عالياً وقال) : إن الليل جميل !

وحقاً كان الليل جميلا وقد صفا نصف السماء ، وأخذت السحب تنجاب أمام الرياح التى كانت تسوقها بعيداً نحو الشرق . وأخذ القمر يرسل ضياءه فى هدوء . ونظر مستر روشستر فى عينى متسائلا ثم قال : « كيف حال حبيبتى جين الآن ؟ »

— إن الليل هادئ رائق .. وكذلك أنا .

— سوف لا تحلمين الليلة بالفراق والأحزان وإنما ستكون أحلامك عن الحب السعيد والرباط المبارك .

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلها .. لم أحلم فى الحقيقة بالأحزان ، ولكنى لم أر أحلاماً سارة كذلك ، إذ لم يغمض لى جفن ، بل رحت

أرقب أديل ، وهى بين ذراعى ، وأتأمل نوم الطفولة الهادئ البرئ ، وأنا أرقب مطلع النهار ، وقد استيقظت كل حياتى وراحت تدب فى كيانى .. حتى إذا نهضت الشمس ، نهضت بدورى . وأذكر أن أديل كانت متعلقة بى عندما غادرتها ، كما أذكر أننى قبلتها عندما رفعت يديها الصغيرتين عن عنقى ، فجعلت أبكى — وأنا أحنو عليها — بانفعال عجيب ؛ ثم غادرتها خشية أن تقض شهقاتى مضجعها ونومها العميق .. فلقد تبدت لى رمزاً لحياتى الماضية . أما هذا الذى كان علىّ أن أتهيأ إذ ذاك لتلقائه ، فقد تراءى لى أنه الرمز الذى أرهبه وأعبده ليومى المقبل المجهول !

* * *

الفصل السادس والعشرون

● قدمت صوفى فى الساعة السابعة لتساعدنى على ارتداء ملابسى . والواقع أنها تباطأت كثيراً فى تأدية مهمتها ، حتى عيل صبر مستر روشستر لتأخرى ، فيما أعتقد ، فأرسل يسأل عن السبب فى عدم مجيئى . وكانت صوفى إذ ذاك تثبت خمارى الأبيض المربع البسيط الذى كنت أريده فى البداية ، إلى شعرى بدبوس . فبادرت أغادرها بأسرع ما استطعت ، ومن ثم صاحت بالفرنسية : « قفى ! انظرى إلى نفسك فى المرآة فإنك لم تختلسى نظرة واحدة إلى صورتك ! » .. فعدت ثانية إلى الحجرة لأرى فى المرآة جسماً يرتدى ثوباً وخماراً ، ولا يشبهنى إطلاقاً بحيث خيل إلىّ أننى أرى صورة فتاة غريبة عنى !.. وسمعت

صوتاً ينادى : « يا جين ! » ، فهرعت إلى حيث استقبلنى مستر روشستر عند السلم قائلا : « أيتها المتلكئة !.. لقد التهب رأسى بنفاد الصبر ، وأنت تتأخرين حتى الآن ! » .

وذهب بى إلى حجرة المائدة ، حيث جعل يتأملنى من مفرق إلى أخمص قدمى . وما لبث أن وصفنى قائلا : إننى كنت « جميلة كالزنبقة » وإننى لم أكن كل ما تزدهى به حياته فحسب ، وإنما كنت « غاية ما تشتهى عيناه ! » . وإذ قال إنه يمهلنى عشر دقائق لأتناول فطورى ، دق الجرس ، فلباه أحد الخدم الذين استأجرهم أخيراً . وإذ ذاك سأله : « هل أعد جون العربة ؟ » .

— نعم يا سيدى .

— وهل أنزلتم الحقائب ؟

— إنهم يفعلون ذلك الآن يا سيدى .

— اذهب إلى الكنيسة وتأكد من وجود مستر وود (الكاهن) مع الكاتب هناك ثم عد وأخبرنى .

وكانت الكنيسة — كما يعلم القارئ — تقع وراء الأبواب الخارجية للقصر مباشرة . لذلك عاد الخادم بسرعة يقول : « إن مستر وود فى قاعة الثياب يرتدى الزى الكهنوتى يا سيدى » .

— والعربة ؟

— إنهم يلجمون جيادها .

— لسنا نريدها للذهاب إلى الكنيسة ، وإنما يجب أن تكون

مستعدة عند عودتنا ، وأن تكون كل الصناديق والحقائب معدة ومحزومة وأن يكون السائق فى مقعده .

— حسناً يا سيدى .

ثم سألنى مستر روشستر : « أمتأهبة أنت يا جين ؟ » . فنهضت واقفة . ولم نكن ننتظر أحداً من أصدقاء (العريس) أو صديقات العروس أو الأهل والأقارب ، بل كنت وحدى مع مستر روشستر . وكانت مسز فيرفاكس تقف فى البهو عندما اجتزناه ، فهممت بأن أخاطبها لولا أن يدى كانت فى قبضة من حديد ، كما كانت خطوات مستر روشستر الواسعة تستحثنى حتى كاد يتعذر على أن أسايرها . وكان فى وسعك أن تدرك لأول وهلة أنه لن يتسامح فى لحظة واحدة تأخرها ، مهما كانت الأسباب !.. فما أحسب أن (عريساً) بدا مثله فى عزمه البالغ وحرصه على بلوغ غايته ، مما نم عنه جبينه الذى انعقد فى إصرار على عينين متوهجتين مستعرتين !

ولم أدر ما إذا كان الطقس جميلا أو سيئاً فى ذلك اليوم ، لأننى سرت فى طريق لا ألتفت إلى سماء أو إلى أرض ، وقد علق قلبى — مع عينى — بمستر روشستر ، أملا فى أن أرى الشىء الخفى الذى كان يسدد إليه نظراته — طوال الطريق — فى قسوة وحدة ، وفى أن أتبين الخواطر التى لاح أنه كان يصارعها وكانت تصارعه بقوة .. وما لبث أن توقف عند مدخل صحن الكنيسة ، وإذ ذاك فقط ، أدرك أننى متهدجة الأنفاس ، فقال : « أترينى قاسياً فى حبى ؟ . تمهلى لحظة ، واتكئى علىّ يا جين ! » :

• وما يزال فى وسعى أن أتذكر صورة بيت الله الأبيض القديم ، الذى قام أمامى فى هدوء ودعة ، ومنظر غراب أسحم يدور حول برج الكنيسة ، ثم منظر السماء المتوردة اللون فى ذلك الصباح ، كما أننى أذكر شيئاً عن الآكام الخضراء المتناثرة حول القبور . ولم أنس بعد أننى رأيت رجلين غريبين ، كانا يهيمان بين الروابى الخفيضة ، ويقرآن ما سطر على شواهد القبور القليلة التى كانت الطحالب تكسوها . وقد استلفتا انتباهى لأنهما اتجها إلى مؤخر الكنيسة بمجرد أن وقعت أعينهما علينا . فلم أشك لحظة فى أنهما سيدخلان من الباب الخلفى لمشاهدة الحفلة ؛ أما مستر روشستر فلم يلحظهما لأنه كان مشغولا بالنظر إلى وجهى الذى هرب منه الدماء .. وشعرت بعرق بارد ينصبب على جبينى ، وأحسست ببرودة تسرى فى وجنتى وشفتى ، حتى إذا بادرت إلى استجماع قواى سار معى فى رفق ونحن نرق الطريق إلى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الهيكل الهادئ المتواضع ، فرأيت الكاهن ينتظرنا فى ثوبه الكهنوتى الأبيض عند المذبح – الذى كان متواضعاً كذلك – والكاتب بجانبه . وكان الهدوء شاملا وليس ثمة أحد سوى شبحين كانا يتحركان فى ركن بعيد . وصدق حدسى ، إذ أنهما لم يكونا سوى الرجلين الغريبين ، وقد تسللا إلى داخل الكنيسة قبلنا ، وما لبثا أن وقفا أمام القبو الخاص بموتى آل روشستر ، وأوليانا ظهريهما ليتطلعا – خلال القضبان الحديدية – إلى المقبرة الرخامية العتيقة ، حيث ركع تمثال أحد الملائكة فى حراسة رفات دامر روشستر – الذى ذبح فى (مارستون مور) أثناء الحروب الأهلية – ورفات زوجته إليزابث .

واتخذنا مكاننا عند قضبان الهيكل المقدس . وإذ سمعت خطواً حاذراً خلفى ، نظرت من فوق كتفى فرأيت أحد الغريبين – وهو من الطبقة الراقية بلا مراء – يتقدم فى الكنيسة نحونا .. ثم بدأت المراسم ، فتلا الكاهن مقاصد الحياة الزوجية ، ثم تقدم خطوة إلى الأمام ، وانحنى قليلا أمام مستر روشستر واستطرد يقول : « إننى أسألكما ، بل أحتم عليكما أن تعترفا – كما ستعترفان يوم الدينونة الرهيب حين تكشف أسرار القلوب جميعاً – بما إذا كان ثمة ما يحول دون ارتباط أحدكما بالآخر شرعاً بالزواج ، إذ خليق بكما أن تعلما من أن الكثيرين الذين يرتبطون بغير كلمة الله ، لا يجمع الله بينهم ، ولا تقر الشرائع زواجهم ! » .

وسكت طبقاً للعادة .. ولكن ، متى بدد السكون الذى يعقب هذه العبارة عادة أى جواب ؟ .. إنه أمر لا يحدث ولو مرة فى كل مائة عام ! .. ولم يرفع الكاهن عينيه عن كتابه ، بل أمسك أنفاسه لحظة ثم بسط يده نحو مستر روشستر ، وهم بأن يسأله : « هل تقبل هذه المرأة زوجة لك ؟ » . ولكن صوتاً واضحاً انبعث عن قرب قائلا : « لا يمكن أن يتم هذا الزواج ، وأجاهر بأن هناك عقبة » .

فرفع الكاهن عينيه إلى المتكلم ووقف صامتاً كالأخرس ، وكذلك فعل الكاتب ، بينما تحرك مستر روشستر قليلا كأن زلزالا هز الأرض تحت قدميه ، ثم ثبت قدميه فى مكانيهما تحفزاً ، وقال دون أن يلتفت برأسه أو عينيه : « استمر ! » .. وما أن نطق بهذه الكلمة – فى صوت خفيض ولكنه عميق – حتى ساد المكان صمت شامل . وما لبث مستر

(وود) أن قال : « ليس بوسعى أن أستمر قبل بعض التحرى عن صحة ما قيل ، وحتى يقوم الدليل على صدقه أو زيفه » . وهنا عاد الصوت من خلفنا يقول : « لقد فسخت حفلة الزواج تماماً ولدى البرهان على دعواى .. إن هناك عقبة لا يمكن تذليلها تحول دون هذا الزواج » .

وسمع مستر روشستر ذلك ، ولكنه لم يكترث ، بل ظل صامداً لا ينثنى . ولم يبد حراكاً اللهم إلا ليتشبث بيدى ، وما كان أشد قبضته وأدفأها !.. وكم كان وجهه الشاحب الحازم الصخر يشبه الرخام فى تلك اللحظة .. وشد ما كانت عيناه تأتلقان فى يقظة تخفى تحتها ضراوة !

* * *

● وبدت الحيرة على مستر وود فقال : « وما ماهية هذه العقبة ؟.. ربما أمكن تذليلها إذا وضحت لنا ! » .. فكان الرد : « يصعب ذلك فقد وصفتها بأنها لا تذلل وقد تكلمت ناصحاً ! » .

ثم تقدم المتكلم ومال على القضبان ، واستطرد فى وضوح وهدوء وثبات دون أن يرفع صوته : « إنها بكل بساطة تعنى وجود زواج سابق . إن لمستر روشستر زوجة على قيد الحياة ! » .

واهتزت أعصابى عند سماع هذه الكلمات الخفيضة كما لم تهتز من قبل لقصف الرعد ، وفعلت نيرانها بدمى ما لم يفعله صقيع ولا نار من قبل !.. بيد أننى لم أفقد وعيى ولم أخش إغماء ، وإنما تطلعت إلى مستر روشستر وحملته على أن ينظر إلىّ بوجه يشبه الصخر الشاحب ، وبعينين تقدحان شرراً . ولم ينكر شيئاً ؛ وإن بدا عليه الإصرار على

أن يتحدى كل شىء !.. وبدون أن ينطق بحرف أو يبتسم ، وبدون أن يبدو عليه أنه كان يرانى مخلوقة آدمية ، طوقنى بذراعه ، وسمرنى إلى جانبه . ثم سأل الدخيل المتطفل : « من أنت ؟ » .

ـ اسمى بريجز ، محام بشارع ... فى لندن .

ـ وهل تريد أن تلصق بى زوجة ؟

ـ أريد أن أذكرك يا سيدى بوجود زوجتك التى يعترف بها القانون إذا كنت أنت لا تعترف بها .

ـ تكرم ببيان عنها .. عن اسمها ووالديها ومكان إقامتها .

فقال المحامى : « بالتأكيد ! » . ثم أخرج مستر بريجز فى هدوء ورقة من جيبه ، وراح يقرأها بصوت رسمى أغن : « أؤكد ، وفى وسعى أن أقيم البرهان على أنه فى يوم ٢٠ أكتوبر سنة .. بعد الميلاد (منذ خمسة عشر عاماً) تزوج إدوارد فيرفاكس روشستر صاحب قصر ثورنفيلد هول بإقليم ... وصاحب ضيعة (فرنديين) بمقاطعة ::: بإنجلترا ، من أختى برتا أنطوانتا ميسون ، ابنة جوناس ميسون التاجر وأنطوانتا ميسون زوجته ، الخلاسية المولد ، بكنيسة ... فى سبانش تاون بجامايكا . ويمكن الحصول من سجلات تلك الكنيسة على وثيقة الزواج . وفى حوزتى الآن نسخة منها ـ التوقيع : ريتشارد ميسون » .

ـ إن هذه الوثيقة ـ إذا صحت ـ قد تثبت أننى تزوجت ولكنها لا تثبت أن المرأة المذكورة هنا على أنها زوجتى ما زالت على قيد الحياة !

فأجابه المحامى : « لقد كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر » .

— كيف علمت ؟

— لدى شاهد على هذه الحقيقة لا يستطيع أحد ، حتى أنت ، دحض شهادته .

— قدمه أو اذهب إلى الجحيم !

— سأقدمه على الفور . ليتفضل مستر ميسون بالتقدم .

فلما سمع مستر روشستر ذلك الاسم ، صرف على أسنانه وبدت عليه رعدة تشنجية . وكنت بجواره ، فشعرت برعشة الحنق واليأس تجرى فى أوصاله . وكان الرجل الغريب الثانى – الذى تلكأ بعيداً – قد اقترب وأطل من وراء كتف المحامى بوجهه الشاحب ، فإذا به ميسون نفسه !.. واستدار مستر روشستر يحملق فيه بنظرة حانقة – كالنظرات التى سبق أن حدثتك عنها – ولكنها كانت فى هذه المرة عفراء ، أى تخلط ظلمتها ببريق دموى بينما احتقن وجهه وتألقت وجنتاه السمراوان وجبينه الشاحب بالنيران المتأججة فى صدره وقلبه .. ثم تحرك ورفع ذراعه القوية . وكان من الممكن أن يلطم ميسون ويصرعه على أرض الكنيسة ، بعد أن أذهلته الضربة التى نزلت على رأسه ، ولكن ميسون أجفل مبتعداً ، ثم صاح فى صوت واهن « يا إلهى ! » . وأحس مستر روشستر نحوه باحتقار هدأ من انفعاله ، فإذا حنقه يخبو .. واكتفى بأن سأله : « وما الذى لديك ؟ » .. فانبعث من شفتى ميسون جواب لا تستبينه الأذن .

— حقاً لك إذا لم تتكلم بوضوح .. إننى أسألك مرة أخرى : ماذا تريد أن تقول ؟

فقاطعه الكاهن : « يا سيدى . ياسيدى . لا تنس أنك فى مكان مقدس ! » .. ثم توجه إلى ميسون يسأله فى رفق :

— هل تعلم علم اليقين أن زوجة هذا السيد على قيد الحياة أم لا ؟

وحثه المحامى قائلا : « تشجع .. تكلم ! » ..

فقال ميسون بصوت أكثر وضوحاً :

— إنها الآن بقصر ثورنفيلد هول ، فقد شاهدتها هناك فى أبريل الماضى ، وأنا شقيقها !

فصاح الكاهن : « فى ثورنفيلد هول ؟.. مستحيل ! إننى أقيم فى هذه المنطقة منذ زمن قديم ياسيدى ، ولم أسمع قط بوجود زوجة لمستر روشستر فى ثورنفيلد هول » .

* * *

وشاهدت ابتسامة متجهمة تلوى شفتى مستر روشستر ، ثم غمغم قائلا : « كلا والله ! .. لقد احتطت كى لا يسمع أحد بها تحت هذا الاسم ، ولا بقصتها ! » .. ثم أطرق حوالى عشر دقائق ناقش فيها نفسه . وما لبث أن اعتزم شيئاً أعلنه قائلا :

— كفى ! سوف ينطلق منى كل شىء أشبه برصاصة مدوية . اطو كتابك يا وود واخلع عنك ثوبك الكهنوتى !

ثم التفت إلى الكاتب وقال : « وأنت ياجون جرين ، غادر الكنيسة فلن يتم اليوم زفاف ! » ؟

فأطاعه الرجل . واستطرد مستر روشستر فى جرأة واندفاع :

— إن تعدد الزوجات كلمة بشعة !.. ومع ذلك فقد قصدت أن

أكون زوجاً لاثنتين ، ولكن القدر خيب رجائى ، أو هى العناية الإلهية التى عاقتنى عن ذلك . ولست الآن خيراً من شيطان رجيم ، بل إننى أستحق بلاشك – كما يريد الكاهن أن يقول – أقسى عقاب يفرضه الله . حتى النار التى لاتخبو والديدان التى لا تشبع .. لقد فشلت خطتى ياسادة ، فإن ماقاله هذا المحامى وعميله صحيح . إذ تزوجت ، وما زالت المرأة التى تزوجتها على قيد الحياة !! . لقد قلت يا (وود) إنك لم تسمع قط بوجود زوجة لى فى ذلك القصر ، ولكنى أعتقد أنك طالما ملت بأذنك لتلتقط أخبار المجنونة الخفية التى وضعتها هنالك تحت الحراسة والرقابة ، وقد أسر إليك بعضهم بأنها أخت غير شقيقة لى ، وأسر الآخرون بأنها خليلة منبوذة ، ولكنى أخبرك الآن بأنها زوجتى التى اقترنت بها منذ خمسة عشر عاماً ، واسمها (برتا ميسون) ، وهى شقيقة هذا الرجل الثابت العزم (!) الذى يريك الآن بأطرافه المرتعدة ووجنتيه الشاحبتين أى جنان جرىء يمكن أن يحمله الرجال بين جنوبهم !! .. طب نفساً يا إدوارد ، ولا تخشى قط فإنى أوثر أن أضرب امرأة على أن أضربك ! إن (برتا ميسون) مجنونة ، ومن سلالة أسرة مجنونة ، كلهم بلهاء ومفتونون طوال أجيال ثلاثة . فقد كانت أمها الخلاسية مجنونة وسكيرة ، وقد اكتشفت ذلك بعد أن تزوجت الابنة لأنهم كانوا يكتمون أسرار العائلة !.. وسرعان ماقلدت برتا أمها – كأية ابنة بارة – فى كلا الأمرين » .. واستطرد فى سخرية مريرة : « وغدت لى شريكة ساحرة ، نقية ، عاقلة ، حيية !!. إن فى وسعكم أن تتصوروا كيف كنت رجلا سعيداً أنعم بمشاهد رائعة !.. كانت تجربة من السماء والنعيم ، لوتعلمون ! .

ولكننى لن أزيدكم شرحاً بل أدعوك يابريجز – وأنت ياوود ، وأنت ياميسون – إلى القصر كى تشهدوا زوجتى المريضة التى عهدت بها إلى مسز بول لترعاها . سترون أية مخلوقة خدعت فيها وتزوجتها ، ثم احكموا بما إذا كان من حق – أو لم يكن – أن أفصم الرابطة بينى وبينها وأبحث عن الحنان والمشاركة الوجدانية مع إنسانة من البشر » .

ثم نظر إلىّ واسترسل يقول : « إن هذه الفتاة لا تعرف ، ياوود ، هذا السر البغيض أكثر مما تعرف أنت . بل إنها كانت تعتقد أن كل شىء عادل شرعى ، ولم يدر بخاطرها قط أنها سوف تتردى فى حبائل زواج زائف ، من رجل شرير غدار مرتبط بشريكة شقية مجنونة متوحشة !.. تعالوا جميعاً .. اتبعونى ! » .

ثم غادر الكنيسة وهو مازال يشد قبضته على يدى ، والسادة الثلاثة يتبعونه . وعند مدخل باب البهو ، وجدنا العربة ، فقال للحوذى ببرود وفتور : « عد بها ياجون إلى الحظيرة إذ لاحاجة لنا بها اليوم ! » .. وإذ ولجنا القصر ، تقدمت مسز فيرفاكس وصوفى وليا لاقائنا وتحيتنا ، ولكن السيد صاح فيهن : « ابتعدوا جميعاً .. حقاً لتهانئكم ! من الذى يحتاج إليها ؟.. لست أنا ، إذ أنها قد تأخرت خمسة عشر عاماً ! » .

* * *

● وواصل السير مرتقياً الدرج وهو مازال يمسك بيدى ويشير إلى السادة أن يتبعوه ، حتى إذا بلغنا الطابق الأول واجتزنا الردهة ثم تقدمنا وواصلنا الصعود إلى الطابق الثالث ، فتح لنا مستر روشستر الباب الأسود الخفيض بمفتاحه الخاص ، وأدخلنا حجرة مغطاة بالسجاجيد ، بها

سرير كبير وصوان بديع ، ثم قال : « إنك تعرف هذه الحجرة ياميسون . فقد عضتك وطعنتك هنا ! » .. ثم رفع الستار عن الجدار ليكشف عن الباب الثاني — المفضي للحجرة الداخلية — وفتحه بدوره عن حجرة خالية من النوافذ ، بها موقد مشتعل يحيط به سياج عال قوي . ومصباح يتدلى من السقف بسلسلة . وكانت جريس بول منحنية على النار وهي تطهو شيئاً في مقلاة . وفي الظل الداكن ، في ركن بعيد ، كان ثمة شبح يذرع الغرفة بسرعة ولا يستطيع المرء أن يحكم لأول وهلة هل كان شبح حيوان كاسر ، أو أنه كان مخلوقاً آدمياً ، إذ كان يحبو على أربع ، ويهمهم ويزمجر كوحش عجيب . ولكنه كان مكسواً بالثياب ، وبكمية من الشعر السنجابي الحالك انسدل أشبه بمعرفة تخفي الرأس والوجه .. وقال مستر روشستر :

— صباح الخير يامسز بول ! كيف حالك وحال (الأمانة) التي في عهدتك ؟

— حالنا لابأس به ياسيدي .. أشكرك !

وبعد أن رفعت الطعام المغلي بعناية عن موقد التسخين ، قالت : « إنها فظة شرسة ولكنها ليست خطرة » .. وارتفعت إذ ذاك صرخة وحشية كأنها جاءت تكذيباً لهذا التصريح الذي انطوى على مجاملة لها . ثم وقفت الضبعة البشرية على قدميها الخلفيتين . فصاحت جريس :

— آه يا سيدي لقد رأتك وخير لك ألا تبقى .

— بضع دقائق فقط ياجريس ، يجب أن تمنحيني بضع لحظات .

— احترس إذن ياسيدي .. احترس بالله عليك !

وجأرت المجنونة ، ودفعت عن وجهها خصلات شعرها الكث ، ثم حلقت كالوحشة في زوارها ، فتبينت جيداً وجهها القرمزي وتقاطيع وجهها المنتفخ . وإذ تقدمت مسز بول ، دفعها مستر روشستر جانباً وقال : « افسحي لي الطريق ، فهي على ما أعتقد لاتحمل الآن سكيناً ، كما أنني على حذر منها » .

— إن الإنسان لايعرف مالديها ياسيدي ، لأنها غاية في الدهاء ، ويتعذر على ذوي الفطنة والتمييز تصور مكرها !

فغمغم ميسون بصوت هامس : « يجدر بنا أن نتركها » . وإذ ذاك صاح به صهره : « ألا اذهب إلى الجحيم ! » .. بينما صرخت جريس : « حذار » .

فارتد السادة الثلاثة إلى الخلف بحركة آلية تلقائية . وجذبني مستر روشستر خلفه .. فانقضت المجنونة عليه تمسك عنقه بعنف وتغرز أسنانها في وجنته ، ثم دار بينهما النضال . كانت امرأة ضخمة الجسم وفي مثل قامة زوجها . فضلا عن أنها كانت مفرطة في البدانة فأبدت قوة الرجال في نضالها . وكادت تخنقه أكثر من مرة برغم أنه رياضي !.. وكان في وسعه أن يتغلب عليها بضربة مسددة ، ولكنه لم يشأ إلا أن يصارعها . وأخيراً أمسك بذراعيها ، فناولته جريس بول حبلا شدهما به خلفها ، ثم أوثقها بحبل آخر إلى أحد المقاعد . وقد تمت هذه (العملية) بين أبشع الصرخات والحركات المذعورة .. وأخيراً ، استدار مستر روشستر إلى النظارة وتطلع إليهم في ابتسامة امتزجت فيها المرارة بالسخرية والأسى ،

وقال : « هذه زوجتي ، وهذا هو كل ما عرفت من عناقها كزوجة .. هذا كل ما تمنحني من مظاهر الإعزاز والتدليل التي أتعزى بها في ساعات الفراغ » .. ثم وضع يده على كتفي ومضى يقول :

— هذه هي التي أردتها .. هذه الشابة التي تقف في هدوء ورزانة عند فوهة الجحيم ، وتتطلع في ثبات إلى الشيطانة التي تحجل أمامها !.. أردتها فقط كضرب من التغيير بعد طبخة حريفة متبلة . انظر ياوود ، وأنت يابرجز ، إلى الفارق بين الاثنتين وقارنا بين هاتين العينين الصافيتين وبين الكرتين الملتهبتين هناك ، وذلك الوجه المقنع ، والجسم البدين المتفتح ، ثم احكما بعد ذلك يارجل الدين ويارجل القانون ، وتذكرا أنه كما يدين المرء يدان ... هيا اخرجوا جميعاً الآن حتى أغلق الباب على درتي الغالية !

* * *

● وانسحبا جميعاً . وبقي مستر روشستر بضع لحظات ليصدر بعض أوامره إلى مسز بول ... وفي أثناء هبوطنا الدرج ، خاطبني المحامي قائلا :

— أنت خالصة من كل لوم ياسيدتي وسيغتبط عمك (جون إير) بذلك ، لو أنه بقي على قيد الحياة حتى عودة مستر ميسون إلى ماديرا .

— عمي ؟!.. ما أخباره ؟ هل تعرفه ؟

— إن مستر ميسون يعرفه . فلقد كان مستر إير عميلا له في (فونشال) لبضع سنوات . وتصادف عندما تلقى عمك خطابك الذي ذكرت فيه أنك اعتزمت الزواج من مستر روشستر . أن كان مستر



ثم دار بينهما النضال .. كانت امرأة ضخمة الجسم وفي مثل قامة زوجها

ميسون معه إذ سافر إلى (ماديرا) ليستكمل نقاهته — بعد الحادث الذى تعرفينه وقبل عودته إلى جمايكا — فأبلغه عمك النبأ لأنه كان يعلم أن له صلة بسيد يدعى روشستر ، وشد مادهش مستر ميسون واغتم . ثم شرح جلية الأمر لعمك الذى يؤسفنى أن أقول إنه الآن مريض وطريح الفراش فى حالة انهيار قد لاينجو منها ، ولذلك لم يقو على أن يبادر إلى انجلترا بنفسه ليخلصك من الشرك الذى وقعت فيه ولكنه توسل إلى مستر ميسون أن يسرع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع هذا الزواج الزائف . كما أحاله علىَّ لمساعدته ، فأسرعت ماوسعنى الإسراع . وأحمد الله على أننى لم أتأخر عن الوقت المناسب ، وخليق بك أن تحمدى الله معى . ولو لم أكن موجساً من أن عمك سيموت قبل وصولك إلى (ماديرا) لنصحتك بمرافقة مستر ميسون عند عودته . ولذلك أرى من الخير أن تبقى فى انجلترا إلى أن تصلك أنباء من عمك أو عنه . هل هناك شىء آخر يدعونا للبقاء ياميسون ؟

فأجابه هذا فى لهفة : « كلا .. كلا .. هيا بنا » .. ومرقا خلال باب البهو دون أن ينتظرا مستر روشستر ليستأذناه فى الانصراف . وبقى الكاهن ليتبادل بعض عبارات لائمة أو مؤنبة مع ابن ابراشيته — روشستر — حتى إذا انتهى من مهمته ، غادر القصر بدوره .. وسمعته يرحل وأنا واقفة عند باب حجرتى الموارب ، بعد أن انسحبت إليها . وإذ خلا القصر ، أغلقت حجرتى بالمزلاج حتى لا يتطفل علىَّ أحد ، ثم شرعت — لا فى البكاء ولا فى العويل ، لأننى كنت أهدأ من أن أفعل ذلك — وإنما فى خلع ثوب الزفاف بحركة آلية ؛ ثم ارتديت ثوبى العادى الذى كنت ألبسه

فى اليوم السابق لآخر مرة كما زعمت ، وجلست بعد ذلك وأنا أحس الوهن والتعب . فاتكأت بذراعى على المنضدة وألقيت رأسى عليها ثم أخذت أفكر فى أن دورى — حتى تلك اللحظة — لم يكن يعدو مجرد أن أسمع وأن أشاهد وأن أتأثر ، وأنا مطاردة فى أثناء ذلك أينما ذهبت أو التفت .. أرى الحادث يندفع وراء الحادث ، والفضيحة تتلو الفضيحة . ثم لا أملك سوى التفكير !

* * *

● وانقضى الصباح فى هدوء تام ، فيما عدا مشهد المجنونة القصير .. حتى حادث الكنيسة لم يثر أية جلبة ولم تنفجر فيه الانفعالات . أو ترتفع المهاترات والخلافات ، ولم يصحبه نحد أو صراع أو دموع أو نشيج ، بل قيلت فى أثنائه كلمات قليلة ، وأثير الاعتراض فى هدوء نسبى ، وألقى مستر روشستر بعض أسئلة جافة مقتضبة تلقى عنها إجابات وإيضاحات وأدلة ، اعترف سيدى بعدها بالحقيقة ، وشاهدنا الدليل الحى ماثلا أمام عيوننا . ثم رحل المتطفلان وانتهى كل شىء !

كنت فى حجرتى كالعادة ، بمفردى ، دون تغيير ملحوظ . فلم يضربنى أحد أو يؤذنى أو يشوهنى ، ومع ذلك فأين كانت (جين إير) الأمس بحياتها وآمالها ؟ إن جين إير التى كانت امرأة ذات حية وآمال وكادت تصبح عروساً ، عادت فتاة باردة وحيدة كما كانت ، بعد أن شحبت حياتها وتقوضت آمالها وحل لديها صقيع رأس السنة فى أوج الصيف ، وهبت عواصف الشتاء المدوية فى شهر يونية ، وطلى الجليد التفاح الناضج ، وسحق الثلج الورود اليانعة ، ولف الحقول كفن من

الجليد . أما الطرقات الصغيرة التي كانت تزدان في ليلة أمس بالزهور ، فقد أقفرت من المارة فلم تعد تطؤها الآن سوى أقدام الجليد .. وأما الغابات التي كانت عطرة مورقة منذ أربع وعشرين ساعة كأنها أحراش المناطق الاستوائية ، فقد غدت الآن موحشة مهملة بيضاء ناصعة كأنها غابات الصنوبر في شتاء النرويج !

ذلك لأن آمالي جميعها قد قضى عليها القدر بضربة خفية .. ورحت أتأمل أماني العزيزة التي كانت بالأمس زاهرة زاهية فإذا بها قد ذبلت وغدت رمماً لا يمكن قط أن تسترد الحياة !.. وعدت إلى حبي الذي خلقه سيدي فرأيته يرتجف في قلبي ، أشبه بطفل مريض في مهد بارد — لفرط ما كانت تنتهبه العلل والآلام — دون أن يقوى على البحث عن ذراعي مستر روشستر أو صدره ليستمد الدفء !.. أواه ! لن يستطيع قلبي الالتجاء إليه لأن الإيمان قد تبدد والثقة قد تلاشت ، ولأن مستر روشستر لم يعد لي كما كان من قبل ، ولا ظل على ما كنت أتصوره . ولست أعزو إليه أية نقيصة ، ولا أقول إنه غدر بي ، وإنما زايل فكرتي عنه كل اطمئنان إلى الحقيقة الخالصة من أية شائبة !.. ولم يعد ثمة بد من الرحيل بعيداً عنه .. وكان هذا جل ما تراءى لي وما أحسست به ، ولكن : متى ، وكيف ، وإلى أين ؟.. لم أهتد بعد إلى رأي ، غير أنني لم أرتب في أن مستر روشستر نفسه لن يلبث أن يعجل بإقصائي عن (ثورنفيلد) . فقد لاح لي أن من غير الممكن أن يكون قد شعر نحوي بحب حقيقي ، وإنما كان الأمر كله مجرد نزوة طارئة هدأت ، ولن يعود السيد بحاجة إليّ .. بل إنني بت أخشى أن أعترض طريقه ، إذ لابد أنه غدا يعاف

رؤيتي .. آه ، لكم كنت عمياء ، ولكم كان مسلكي ضعيفاً !.. أجل ، كانت عيناي محجوبتين ، ومغمضتين !

وخيل إليّ أن الظلمة تدور حولي كالدوامة ، وأن أفكاري غدت سوداء ، تنساب في اضطراب السيل وتدفقه .. كنت أبدو — وقد نبذتني نفسي وخلفتني مسترخية ، بلا حول ولا قوة — وكأنما ألقي بي في حوض نهر جاف ، ثم سمعت فيضاً ينساب منحدراً من جبال بعيدة ، وأحسست بسيولة تقترب مني ، دون أن أجد من نفسي رغبة في النهوض ، أو قدرة على الفرار ، فرقدت خائرة القوى أتلهف على الموت ؛ ولا تراودني سوى فكرة واحدة .. ذكرى الله ، تبدت في صلاة صامتة راحت كلماتها تسبح في خاطري كشيء يجب أن أهمس به دون أن أقوى على النطق به : « اللهم لا تبتعد عني لأن العناء قريب ولا أحد في عوني ! » .

كان السيل قريباً .. ولكني لم أجأر بالدعاء للسماء كي تقيني ، ولم أضم يدي أو أثني ركبتي أو أحرك شفتي .. ثم اقترب السيل ودهمني بكل قوته واندفاعه ، فإذا كل إحساسي المضعضع بالحياة ، وحبي المضيع ، وآمالي الخابية ، وإيماني المصعوق .. إذا بها جميعاً تنصب على رأسي كتلة واحدة .. وكانت ساعة مريرة رهيبة يصعب وصفها .. والواقع أن الماء دهم نفسي ، فإذا بي أغرق في حمأة عميقة ، دون أن أجد أرضاً أضع عليها قدمي ، وما لبثت أن بلغت الماء العميق ثم جرفتني السيول !

• • •

الفصل السابع والعشرون

● ورفعت رأسى — فى الأصيل — وتلفت حولى فرأيت الشمس الغاربة ترسم على الجدار صورة غروبها ، ورحت أتساءل : « ماذا أعمل ؟ » ، فجاءنى الرد من نفسى : « غادرى ثورنفيلد فى الحال ! » .. وكان رداً سريعاً مروعاً جعلنى أصم أذنى . وأعترف بأننى لم أكن أطيق إذ ذاك سماع مثل هذه الكلمات .. ورحت أجادل نفسى : « ليس أسوأ ما فى الأمر أننى لم أعد زوجة إدوارد روشستر ، ولكن استيقاظى من أحلامى الرائعة لأجدها كلها زائفة كاذبة ، هو الأمر الرهيب الذى لا أقوى على احتماله والتغلب عليه . كما لا يمكن أن أحتمل أو أن أقدم على مغادرة سيدى فى إصرار ، وفى الحال ، وإلى الأبد ! » .

ولكن صوتاً من أعماق أهاب بى أن ذلك فى وسعى ، وأن من واجبى أن أفعله . ورحت أناضل هذا القرار وأتمنى أن أكون من الضعف بحيث أتحاشى الطريق المؤلم الذى يفضى إلى عذاب آخر رأيته مبسوطاً أمامى ! .. وعندئذ ثار « الضمير » وتحول إلى طاغية أمسك بخناق « الهوى » ثم قال يؤنبه : إنه قد دس قدمه الرشيقة فى حمأة موحلة ، وأقسم أن يلقيه بذراع حديدية فى أعماق الآلام والأوجاع .. وعندئذ صرخت : « سأغرق إرباً إذن ! .. أما من معين ؟ » .. وأجاب الهاتف : « كلا بل إنك ستمزقين نفسك دون أن يساعدك أحد ! .. سوف تفقئين عينك اليمنى وتقطعين بنفسك يدك اليمنى . وسيكون قلبك الضحية وستكونين أنت الكاهن الذى يذبح هذا القربان ! » .

وإذ ذاك نهضت فجأة وقد استبد بى الرعب لوحدتى القاسية مع هذا القاضى الذى لا يرحم ، ومع هذا الصمت الذى غشى حواشيه مثل هذا الصوت الرهيب ! .. وإذ انتصبت واقفة ، سبح رأسى ، وأدركنى غثيان فطنت إلى أنه ناشئ عن ثورتى وخلو معدتى لأننى لم أذق طعاماً ولا شراباً فى ذلك اليوم .. حتى الفطور لم أجد وقتاً لتناوله . وفطنت — وقلبى يخفق بألم عجيب — إلى أننى إذا ظللت فى معزلى هذا فلن يسأل عنى أحد أو يدعونى إنسان للنزول .. حتى أديل الصغيرة لن تطرق بابى .. بل إن مسز فيرفاكس لن تبحث عنى ! .. ثم غمغمت وأنا أرفع المزلاج : « إن الأصدقاء ينسون دائماً من يتخلى عنهم الحظ ! » . وخرجت لأتعثر بشئ فى طريقى ، وكنت ما أزال غائمة العينين واهنة الأطراف لا أقوى على استجماع قواى الخائرة ، فسقطت .. لا على الأرض ، وإنما تلقفتنى ذراع ممدودة ، فرفعت عينى لأحدق مستندة إلى مستر روشستر وقد جلس على مقعد عند عتبة غرفتى ، ثم قال :

— ها قد خرجت أخيراً ! .. لقد انتظرتك طويلاً ، وأرهفت السمع دون أن تتناهى إلى أدنى حركة أو نشيج واحد ، ولو أن هذا السكون المطبق الشبيه بسكون الموت استمر خمس دقائق أخرى ، لفتحت الباب عنوة كلص .. هل تجفلين منى ؟ .. لماذا تغلقين عليك الباب وتستسلمين وحدك للأحزان ؟ .. إننى أوثر أن تأتى وتعنفينى فى قسوة ! .. إنك شديدة الانفعال سريعة التأثر ولذلك كنت أتوقع منك مثل هذا المشهد فأعددت نفسى لوابل من الدموع الحارة والعبرات . وما كنت أرجو سوى أن تذرفيها على صدرى بدل أن تتلقاها الأرض التى لا تحس ولا تشعر . أو يتلقفها

منديلك الصغير المبلل . بل أحسبنى مخطئاً فإنى أرى وجنتك شاحبة وعينك ذابلة دون أثر فيها للدموع ، فأغلب الظن إذن أن قلبك كان يبكى دماً !.. حسناً ياجين ! أما من كلمة تقريع ؟.. أما من شىء أشد مرارة وأنكى وخزاً ؟ أما من شىء يؤلم الشعور أو يلدغ العاطفة ؟.. إنك تجلسين هادئة حيث وضعتك وتتطلعين إلى بنظرة واهنة سلبية !.. ما أردت ياجين أن أصيبك بهذا الجرح .. إن المرء الذى لم يؤت سوى شاة صغيرة يعتز بها كما لو كانت ابنته ، ويدعها تأكل من خبزه وتشرب من كأسه ، وترقد فى حجره ، قد يضطر لخطأ ما إلى ذبحها .. ولكنه لن يعانى إذ ذاك من الندم على غلطته الدامية ، ما أعانى من الحسرة على غلطتى .. فهلا صفحت ؟

* * *

● ولقد صفحت عنه أيها القارئ فى الحال ، وعلى الفور ، بعد أن تبدى فى عينيه ما نم عن ذلك الندم العميق ، وما تجلى فى لهجته من هذا الأسى الحقيقى ، وما ظهر على طلعته من رجولة صادقة . هذا ، فضلا عما كان فى كل شكله وهيأته من حب لا يتبدل ولا يتغير .. أجل ، لقد غفرت له كل شىء .. غفرت فى صميم فؤادى . وإن لم أعبر عن ذلك بقول أو تظاهر . وكأنما رابه إخلادى الطويل إلى الصمت والاستكانة اللذين كانا نتيجة ضعف أكثر مما كانا نتيجة تعمد وقصد . فما لبث أن سألنى : « أتدركين أننى وغد ياجين ؟ » .

— نعم ياسيدى :

— إذن قولى ذلك فى عنف وحدة ولا تأخذك بى رحمة !

— لا أستطيع .. إننى متعبة ومريضة ، وفى حاجة إلى بعض الماء .

فتنهد تنهدة واحدة ، ثم حملنى بين ذراعيه إلى الطابق الأسفل . ولم أدر فى أول الأمر إلى أية حجرة حملنى ، لأن كل شىء كان غائماً فى ناظرى ، ثم سرعان ما استشعرت دفء النيران المنعش بعد أن كنت محوطة فى حجرتى ببرودة جليدية برغم أننا كنا فى الصيف !.. ثم سكب خمراً بين شفتى فتذوقتها وانتعشت . وما لبثت أن تناولت طعاماً قدمه إلىّ فاستردت قواى وتبينت أننى فى حجرة المكتبة ، أجلس على مقعد السيد ، بينما جلس هو على مقربة منى . وحدثت نفسى قائلة : « ليتنى أغادر الحياة الآن دون ألم شديد ، فإن هذا خير لى ، إذ يكفينى مئونة بذل الجهد فى انتزاع نياط قلبى وأنا أفصله عن قلب مستر روشستر الذى يبدو ألا مفر من فراقه ، وإن كنت لا أحب أن أتركه ولا أستطيع مغادرته ! » .. وسألنى إذ ذاك : « كيف حالك ياجين ؟ » .

— أحس كثيراً ياسيدى ، ولن ألبث أن أصبح بخير .

— تذوقى النبيذ مرة أخرى ياجين .

فأطعته ، وعندئذ وضع الكأس على المنضدة ثم وقف أمامى يتفرس فىّ متمعناً . وفجأة .. ابتعد وقد ندت عنه صيحة مدغمة زاخرة بالانفعال ثم أسرع ليعبر الحجرة ليعود من فوره فينحنى علىّ وكأنه يهم بتقبيلى ، ولكنى تذكرت أن الغزل قد بات محظوراً علينا . فأشحت بوجهى عنه ، ودفعت وجهه بعيداً . فصاح على الفور : « ماذا ؟!.. كيف هذا ؟ أواه ، لقد عرفت !.. إنك لا تريدين تقبيل زوج برتا ميسون وتعتبرين ذراعى مليئتين ، وصدرى ملكاً لغيرك .. أليس كذلك ؟ » .

- على كل ، ليس لى مكان أو حق فى ذلك ياسيدى .
- لماذا ياجين ؟ سأكفيك مشقة الحديث الطويل وأتولى عنك الجواب ، لأننى متزوج فعلا ، أليس هذا ردك كما أتوقعه ؟
- نعم .
- إذا كان هذا ما تظنينه ، فإن رأيك فى يجب أن يكون صحيحاً .. ولا بد أنك تعدينى متهتكاً خليعاً يتآمر عليك ، ووغداً وضيعاً دنيئاً تظاهر لك بحب كاذب زائف ليجتذبك إلى فخ محبوك الأطراف عن قصد وعمد فيجردك من الشرف ويسلبك كرامتك واعتزازك بنفسك .. ماقولك فى هذا ؟ أراك لا تقوين على قول شىء : أولا لأنك مازلت ضعيفة واهنة ولا تكادين تقوين على اجتذاب أنفاسك ، وثانياً لأنك لا تستطيعين بعد أن تعودى نفسك على اتهامى والتهارى .. وفوق ذلك ها قد تفتحت عيون الدموع ، وسوف تنفجر إذا ما أكثرت من الكلام !.. لا رغبة لديك فى الاعتراض والتعنيف وإشهاد الناس علينا ، ولكنك تفكرين فيما يجب عمله ، وترين فى الكلام أمراً لايجدى ولا ينفع .. إننى أعرفك وآخذ منك حذرى !
- لا رغبة لدى فى أن أعمل ضدك ياسيدى .

* * *

● ونبهنى صوتى المرتجف إلى ضرورة الإيجاز والاقتضاب ، فلم أزد ولكنه أجاب قائلا : « إنك لا ترغبين فى العمل ضدى بالمعنى الذى تفهمينه ، ولكنك ترسمين خطتك للقضاء علىّ بالمعنى الذى أفهمه . فقد صدقت فى قولك إننى رجل متزوج فيجب أن تتجنبينى وأن تبتعدى

عن طريقى بمثل ما رفضت منذ لحظة أن تقبلينى لأنك اعتزمت أن تجعلى نفسك إنسانة غريبة عنى تماماً ، وألا تعيشى تحت هذا السقف إلا كمعلمة لأديل ، وإذا وجهت إليك كلمة ود أو اجتذبتك نحوى بشعور الصداقة ، فسوف تقولين : « لقد كاد هذا الرجل أن يتخذ منى خليلة له ، فيجب أن أكون فى علاقتى به كالثلج والحجارة » . وإنى لأدرك أن بوسعك أن تصبحى كذلك فعلا !

فجلوت صوتى وثبت نبراته لأرد قائلة : « لقد تغير كل شىء حولى يا سيدى ، فيجب أن أتغير بدورى . هذا أمر لا شك فيه .. ولكى أتحاشى كل تحول فى مشاعرى وكل صراع مع ذكرياتى وصلاتى لا أجد أمامى سوى طريق واحد ، هو ضرورة البحث لأديل عن معلمة أخرى ! »

- أوه !.. إن أديل سوف تذهب إلى المدرسة ، فقد قررت ذلك منذ قليل ، كما أننى لا أريد أن أعذبك بذكرياتك البغيضة وصلاتك القديمة بثورنفيلد هول .. هذا المكان اللعين .. هذا القبو العاتى الذى يعكس على ضياء السماء الفسيحة شحوب الموت .. هذا الجحيم الحجرى الضيق ، وشيطانه الحقيقية التى تجعله أسوأ من كل ما تتصور !.. سوف لا تقيمين هنا يا جين ، ولا أنا !.. فقد أخطأت فى أن جئت بك إلى ثورنفيلد هول برغم ما أعلمه عن هذا المكان الذى تسكنه العفاريت. ولقد أمرتهم بأن يخفوا عنك لعنة هذا المكان قبل أن تقع عليك عيناى ، لأننى خشيت ألا أحصل على معلمة لأديل إذا علمت أية مرشحة بالشيطانة التى ستضطر إلى الإقامة معها . ولم أكن أعتزم نقل هذه

المجنونة إلى مكان آخر ، مع أنني أملك داراً قديمة في ضيعة (فرندين) أكثر عزلة من هذا القصر . وكان في مقدوري أن أنقلها إلى هناك في سلام وطمأنينة ، لولا أن خطر لي خاطر عن الظروف الصحية في قلب الغابة ، فأثار ضميري .. كان من المحتمل أن تعجل الجدران الرطبة بخلاصي منها . ولكن لكل وغد عيباً ، وعيبي أنني لا أميل إلى القتل غير المباشر ، ولو لأكثر الناس نصيباً من بغضائي !..

ولقد أخفيت عنك مكان المجنونة القريب . فكنت في ذلك كمن يغطي طفلا بعباءة ثم يرقده بالقرب من شجرة (الأوبا) — السامة — فإن العيش بجوار هذه المجنونة سام !.. لسوف أغلق (ثورنفيلد هول) وأسمر بابه الخارجي ، وأسد نوافذ الطابق الأرضي بالألواح الخشبية ، وأعطي مسز بول مائتي جنيه في السنة لتعيش هنا مع زوجتي ، كما تسمين هذه الشوهاء الرهيبة .. و (جريس بول) لا تتردد في عمل الكثير من أجل النقود ، وسوف تستعين بابنها — الذي يشتغل كحارس في جريمسبي ريتريت — ليحمل رفقتها ويبادر إلى مساعدتها في نوبات الهياج ؛ عندما تحاول زوجتي — كعادتها — حرق الناس في مضاجعهم بالليل ، أو طعنهم وفصل لحومهم عن عظامهم بأسنانها ، وما إلى ذلك .

فقاطعته قائلة : « إنك شديد القسوة على تلك السيدة التعسة يا سيدي .. إنك تتحدث عنها بمقت .. بحقد ونقمة . وهذه قسوة منك ، إذ لا حيلة لها في جنونها » .

— يا جين .. يا حبيبتي الصغيرة — هكذا سأناديك وهكذا أنت

بالنسبة إليّ — إنك لا تدرين ماذا تقولين . إنك تسيئين الحكم عليّ مرة أخرى .. إنني لا أكرهها لأنها مجنونة . هل تظنينني أكرهك إذا مسك خبل ؟

— أظن ذلك يا سيدي .

— إذن فأنت مخطئة ، ولا تعرفين شيئاً عني أو عن مدى الحب الذي يمكن أن يزخر به قلبي .. إن كل ذرة من بدنك عزيزة لدي كأنها من لحمي ، سواء كانت سليمة أو عليلة . وعقلك كنزي الغالي ومهما اختل فسيظل كنزي كذلك .. وإذا أنت هذيت فسوف تكون ذراعاي مأواك ، وليس ذلك القميص الضيق ، وإذا احتجت فإن قبضتك تغدو كوقع السحر عندي ، وإذا هاجمتني بوحشية — كما فعلت تلك المرأة صباح اليوم — تلقيتك على صدري لأضمك وأقيدك إليّ ، دون أن أجفل منك كما جفلت منها متقززاً .. أما في لحظات الهدوء فلن يحرسك أو يمرضك سواي ، وفي وسعي أن ألازمك بحنان لا يدركه تعب رغم أنك لن تكافئيني على ذلك بابتسامة !.. لن أمل من التطلع إلى عينيك وإن لم يعد ينبعث منهما شعاع ينم عن أنك تعرفينني .. ولكن لماذا أتبع مثل هذه الأفكار المتلاحقة ؟.. كنت أتحدث معك عن نقلك من (ثورنفيلد) .. إن كل شيء معد كما تعلمين وستسافرين غداً . فقط أطلب إليك يا جين أن تحتملي المبيت ليلة أخرى تحت سقف هذا القصر ، ثم تودعينه وتودعين آلامه وأهواله إلى الأبد !.. ولدي مكان يمكن أن تحتمي فيه من الذكريات البغيضة والتطفل الكريه ، ومن الزيف والنميمة !..

فقاطعته قائلة : «خذ أديل معك يا سيدى ، وسوف تؤنسك !» .

— ماذا تعنين يا جين ؟.. لقد قلت لك إنى سأرسلها إلى المدرسة . ثم ما حاجتى إلى طفلة ترافقنى .. طفلة ليست من صلبى ، وإنما ولدتها راقصة فرنسية فاجرة ؟ لماذا كل هذه الفجاجة بشأنها .. لماذا تفرضينها علىّ كرفيقة ؟

— لقد حدثتنى عن رغبتك فى التقاعد والاعتزال يا سيدى .. وهما من بواعث الهم والاكتئاب .. لا سيما بالنسبة إليك .

فقال ثائراً : «الاعتزال ! الوحدة !.. أرى من واجبى أن أبسط لك الأمر ، ولا أدرى أى غموض هذا الذى يرتسم على أساريرك ويجعلك أشبه بأبى الهول ! إنك أنت التى يجب أن تشاطرينى وحدتى . أفهمت ؟» .. فهززت رأسى .. كنت فى حاجة إلى شيء من الشجاعة أمام ثورته حتى أستطيع أن أجازف بالتعبير — ولو فى صمت — عن رفضى . وكان يذرع الحجرة بسرعة ، فتوقف فجأة وكأن قدميه سمرتا إلى بقعة واحدة ، ثم تفرس فى وجهى طويلاً وبقسوة ، فحولت عنه عينى لأثبتهما فى نيران المدفأة محاولة أن أبدو أمامه هادئة رابطة الجأش . وأخيراً قال فى هدوء لم أتوقعه من نظرته : «ها هنا الثغرة فى أخلاق جين !.. إن بكرة الخيط الحريرى قد انسابت حتى الآن ناعمة ملساء ولكنى لم أشك أبداً فى أن تأتى عقدة تعرقل سيرها وتحير العقل ، وها هى ذى قد أتت لتبعث الكدر والحنق والمتاعب التى لا تنتهى . يا إلهى ! كم أتمنى أن تكون لى قوة شمشون فأحطم كل قيد وكأنى أحطم حبلاً من الكتان !» .. وعاد يذرع الحجرة من جديد ،

ثم ما لبث أن توقف مرة أخرى أمامى مباشرة ، وانحنى مقترباً بشفتيه من أذنى وقال :

— هلا أصغيت يا جين إلى صوت العقل ؟.. إذا لم تفعلى فسوف ألتجئ إلى العنف ؟

وكان صوته مبحوحاً ، ونظرته كنظرة من يوشك أن يحطم قيداً لا يحتمل ثم يندفع فى ثورة هائجة . وأدركت أننى إذا مكثت لحظة أخرى سادرة فى برودى فلن أتمكن من الوصول إلى شيء معه .. كان الحاضر كل ما يجب أن أمسك بعنانه وأكبحه فى نفسى ، وكل حركة نافرة أو جافة أو خائفة كفيلة بأن تقرر مصيرى ومصيره ، ولكننى لم أكن خائفة بحال من الأحوال ، بل إننى استشعرت قوة داخلية كامنة وإحساساً من النفوذ عليه يساندنى . وكانت الأزمة خطيرة ، وإن لم تخل من السحر الذى يحسه الهندى وهو ينزلق فى قاربه على الجنادل ، فمددت يدى وأمسكت بيده المتشنجة . وإذ ذاك استرخت أصابعه الملتوية ، فقلت له فى رفق : «اجلس . سأحدثك طويلاً كما تريد ، وسأصغى إلى كل ما تريد قوله ، سواء كان معقولاً أو غير معقول» .

* * *

● وجلس ، ولكنى لم آذن له فى الحديث على الفور ، لأننى كنت أصارع دموعى . وعانيت كثيراً من الآلام فى حبسها لأننى كنت أعلم أنه يود أن يرانى باكية ، ولكننى عدت فآثرت أن أطلق لها العنان كما تشاء ، ولو أغضبه ذلك ! وهكذا بكيت بحرقة ، وإذا بى أسمعه يتضرع إلىّ أن أهدئ من جأشى . فقلت له إن هذا لم يكن فى وسعى ما ظل هو

ثائراً مهتاجاً . وإذ ذاك قال : « ولكنى لست غاضباً يا جين ، وإنما أنا أحبك فحسب ، وقد رأيت على وجهك الصغير الشاحب دلائل الجمود والبرود والإصرار فلم أطق رؤيتك على هذه الحال . كفى الآن وكفكفى دموعك ! »

وكشف صوته الناعم عن هدوئه فهدأت بدورى . وحاول إذ ذاك أن يعتمد برأسه على كتفى ، ولكنى لم أدعه .. ثم أراد أن يجذبنى إليه فأبيت ، وعندئذ قال فى لهجة بالغة الحزن والمرارة إلى درجة هزت أعصابى : « جين ! جين ! إنك لا تحبيننى . إنك لم تقدرى فقط سوى مركزى والمركز التى تتبوؤه من تكون زوجتى ، فلما رأيت الآن أننى لا أستأهل أن أكون زوجاً لك ، كششت منى وأجفلت من لمسى وكأننى ضفدع أو قرد ! »

أثرت فى نفسى هذه الكلمات ولكن ما الذى كان فى وسعى أن أفعل أو أقول ؟ .. ولعله كان من الواجب أن أفعل أو أن أقول شيئاً ، ولكنى كنت أتعذب بالندم لإيذائى مشاعره . ولم يسعنى أن أقاوم رغبتى فى وضع بلسم شاف على الجرح الذى أدميته فقلت : « إننى أحبك أكثر من أى وقت مضى ولكن .. لا ينبغى أن أظهر هذا الشعور أو أطلق له العنان .. بل يجب أن تكون هذه آخر مرة أعرب لك فيها عن شعورى » .

— آخر مرة يا جين ! ماذا ؟ أتحسبين أنك تستطيعين العيش معى ورؤيتى فى كل يوم ثم تمضين فى برودك ونأيك عنى وأنت ما زلت تحبيننى ؟

— كلا يا سيدى . هذا ما لا أشك فيه .. إن ثمة طريقة واحدة ، ولكنك قد تهتاج إذا ذكرتها لك .

— أوه . اذكريها ! وإذا عصف بى الغضب فلديك فن البكاء !

— يجب يا مستر روشستر .. أن أغادرك !

— إلى متى يا جين ؟ .. لبضع دقائق حتى تسوى شعرك الذى تشعث قليلا ، وحتى تغسلى وجهك شبه المحموم ؟

— يجب أن أغادر أديل وثورنفيلد .. يجب أن أفارقكم مدى الحياة ! .. يجب أن أبدأ حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة !

— طبعاً ، وقد أخبرتك بأن هذا ضرورى . ولسوف أستبعد أنك تزمعين فراق ، لأفهم قولك على أنك تعنين — ولابد — أن تصبحى جزءاً منى . أما عن الحياة الجديدة ، فلا ضير هناك .. إنك على كل حال ستصبحين زوجتى ، لأننى لست متزوجاً ! .. ستكونين مسز روشستر اسماً وفعلا ، وسألازمك ما دمت حياً .. وسوف تنتقلين إلى قصر أمتلكه فى جنوب فرنسا .. فيللا بيضاء على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، حيث تنعمين بالسعادة فى أمان وتحيين حياة صافية ولا تخشين أن أغريك بارتكاب إحدى المعاصى وأن أتخذك خليلة . لماذا تهزين رأسك ؟ يجب أن تكونى عاقلة يا جين وإلا هاجت ثائرتى مرة أخرى .

وكان صوته ويده يهتزان ، وخياشيمه الكبيرة تتسع ، كما تألقت عيناه ، ولكنى جرؤت على الكلام فقلت : « إن زوجتك ما تزال حية يا سيدى وهذه حقيقة اعترفت بها بنفسك فى هذا الصباح ، فإذا أنا

عشت معك كما تهوى صرت لك خليلة .. أما القول بغير ذلك فسفسطة وزيف ! » .

— أنا لست من رقيق الطبع يا جين فلا تنسى ذلك ، كما أنى لست ممن يقوون على الاحتمال الطويل .. لست بارداً أو هادئاً ، ولذلك أرجو إشفاقاً علىّ — وعلى نفسك — أن تضعى إصبعك على نبضى ، وتنبئى وجيبه ثم حاذرى !

وكشف عن رسغه وقدمها إلىّ . ووجدت الدماء تهرب من وجنتيه وشفتيه ، وقد استحال لونها إلى الزرقة،فشمل الحزن كل نفسى ،لأن إثارته إلى هذا الحد المضنى — الذى كان يكرهه — ضرب من القسوة .. وكان خضوعى فى الوقت ذاته — أمراً مستحيلا . ففعلت ما يفعله غيرى من البشر بغريزته عندما يساق إلى نهاية الشوط : تطلعت إلى غياث من قوة تسمو على الإنسان ، وصحت على غير إرادتى : « أمدنى بالعون يا رباه ! » :

* * *

● وفجأة صاح مستر روشستر : « ما أحمقنى ! لقد ظللت أحدثها بأننى لست متزوجاً دون أن أبسط لها الأسباب فقد نسيت أنها لا تعلم شيئاً عن أخلاق تلك المرأة وعن الظروف التى لابست زواجى البغيض بها .. وأننى لواثق من أن جين سوف تتفق معى فى الرأى عندما تعرف كل ما أعرفه !.. فقط ضعى يدك فى يدى يا جانيت لكى أرى بحاستى اللمس والبصر أنك قريبة منى ، وسأبسط لك فى إيجاز حقيقة الأمر ، فهل تستطيعين الإصغاء إلىّ ؟ » :

— نعم يا سيدى .. ساعات إذا شئت !

— كلا فلست أسألك سوى بضع دقائق يا جين .. هل سمعت أننى لم أكن أكبر أخوتى فى القصر وأنه كان لى أخ يكبرنى ؟

— أذكر أن مسز فيرفاكس أخبرتنى بذلك .

— وهل سمعت أن أبى كان رجلا شحيحاً محباً للمال ؟

— فهمت شيئاً من هذا القبيل .

— حسناً يا جين . لما كانت هذه طباع أبى فإنه لم يكن يطيق مجرد التفكير فى تقسيم ممتلكاته ليترك لى نصيباً عادلا ، ومن ثم استقر رأيه على أن يرث أخى (رولاند) كل شىء ، ولكنه لم يرتض لى حياة الفقر ففى يبحث لى عن زوجة غنية . وكان صديقه القديم مستر ميسون مزارعاً من سراة جزر الهند الغربية وتاجراً كبيراً ، عرف أبى أنه أنجب ابناً وابنة ، وأنه آثر الأخيرة بثلاثين ألف جنيه ، وما أن غادرت الكلية ، حتى أوفدنى أبى إلى (جامايكا) لأخطب الفتاة ، دون أن يشير إلى ثروتها ، بيد أنه قال إنها فتنة المدينة . ولم يكن كاذباً فى ذلك ، إذ وجدتها جميلة من طراز بلانش انجرام : هيفاء سمراء ملتفة القوام ، أرادت أسرتها أن تستحوذ علىّ نظراً لكرم محتدى ، وبحثت فى ذلك .. كانوا يبرزونها لى فى المجتمعات فى أبهى فتنتها ، فيحيط بها الرجال معجبين وهم يغبطوننى عليها . ووجدتنى مبهور العواطف ، مساقاً للإغراء ؛ لا أدرى حقيقة أمرى . فقد كنت غراً قليل التجربة ، ولم أنفرد بها أو أطل معها الحديث على حدة ، فخيل إلىّ أننى أحببتها .. وليست هناك حماقة تسلب اللب وتعجل بتصيير الإنسان كالتنافس الأبله

فى المجتمعات ، وكالاندفاع وراء العاطفة ، وتهور الشباب وعدم بصيرته . وهكذا شجعنى أهل الفتاة ودفعنى تزاحم المتنافسين عليها ، وبهرتنى هى بسحرها ، فتم الزواج قبل أن أدرك أين أنا !.. آه ، كم أحتقر نفسى عندما أفكر فى هذه الحماقة !.. وكم أتألم فى قرارتى للزراية التى تستبد بى ، فإننى لم أحبها ولم أحترمها قط ، بل إننى لم أكن أكاد أعرفها ، أو أطمئن إلى وجود فضيلة واحدة فى طبيعتها ، أو ألمس فى عقلها أو خلقها شيئاً من الخفر أو الأريحية أو الصراحة أو التهذيب .. وتزوجتها مع ذلك ، فكم كنت أبله حقيراً قصير النظر ! أما أمها فإننى لم أرها ، وفهمت أنها كانت ميتة . فلما انقضى شهر العسل أدركت خطئى ، إذ علمت أن الأم مجنونة فى مستشفى المجاذيب . وأن لزوجتى كذلك أخاً يصغرها أبله تماماً . أما أخوها الأكبر — الذى رأيته — فسوف يلقى على الأرجح نفس المصير يوماً ما ، ولكنى لا أستطيع أن أكرهه — وإن أبغضت كل أقاربه — بسبب ما كان يظهر لأخته من حب يتبدى فى اهتمامه بهذه البائسة المنكودة ، وبسبب أنه كان يلازمنى كثيراً ملازمة الكلب لصاحبه . وكان أبى وأخى (رولاند) يعرفان ذلك كله ، ولكن تفكيرهما كان مقصوراً على الثلاثين ألف جنيه ، فاشتركا فى المؤامرة التى دبرت ضدى !

واستطرد قائلا : « هكذا انكشفت لى الحيلة الخسيسة الدنيئة .. ولولا إخفاؤها عنى ما جعلتها موضوعاً لتأنيب زوجتى وتقريعها ، حتى بعد أن وجدت طباعها تتنافى مع طباعى ، وميولها تتباين مع ميولى ، وعقلها منحطاً ضيق الأفق يستحيل التسامى به أو الامتداد به إلى ما هو

أفسح من رقعته المحدودة . ووجدت أننى لا أستطيع أن أقضى معها أمسية واحدة — بل ساعة واحدة من النهار — فى راحة وسلام ، وأنه لا سبيل إلى أن نتبادل الحديث معاً ، لأننى كنت إذا بدأت الكلام فى موضوع ما ، تلقت هى حديثى بفظاظة وخشونة وغباء ، ووجدت ألا سبيل إلى فى منزلى إلى هدوء أو استقرار .. بل إن خادماً واحداً لم يقو على احتمال ثوراتها العنيفة الدائبة وطباعها البلهاء ، وأوامرها السخيفة المتناقضة التى كانت تفرضها فرضاً ، وحاولت أن أكبح عواطفى ، وأن أتجنب التقريع والتوبيخ ، فأوجزت فى احتجاجاتى ، وحاولت أن أطوى صدرى على ما كان ينتابنى من ندم وتقزز ، وكتمت ما كنت أحس به من كراهية وبغضاء :

« ولست أريد يا جين أن أثقل عليك بالتفاصيل المقيتة ، بل تكفى بضع كلمات قوية للتعبير عما أريد قوله ، فقد عشت مع المرأة التى بالطابق العلوى أربع سنوات ذقت منها خلالها الأمرين ، إذ تبدت طباعها بسرعة عجيبة مخيفة ، وتجلت رذائلها بقوة لا تجدى معها غير القسوة التى لم أشأ أن أعمد إليها . كانت قزمة فى عقليتها ، عملاقة فى نزواتها ونزعاتها الشريرة التى جرت على أبشع اللعنات .. أجل ، إن برتا ميسون كانت ابنة صادقة لأم مجنونة متبذلة ، وقد جلبت علىّ كل ألوان العذاب المقيت المهين الذى يلاحق أى رجل ارتبط بزوجة مختلة العقل ، غير عفيفة !

« وفى تلك الأثناء توفى أخى الأكبر ، وفى نهاية السنوات الأربع مات والدى كذلك ، فأصبحت غنياً . ولكن ما كان أشد فقرى — فى

الحقيقة والواقع — بمعاشرة هذه المخلوقة البغيضة التي باتت شريكتي في الحياة ، والتي يعتبرها القانون والناس جزءاً مني ، والتي لم يعد في وسعي أن أتخلص منها بأية وسيلة شرعية ، إذ كان الأطباء قد اكتشفوا إذ ذاك أنها مخبولة !.. إنك لا تميلين إلى قصتي يا جين ، إذ أرى على وجهك دلائل الامتعاض ، فهل تحبين أن أؤجل البقية إلى يوم آخر ؟

— كلا يا سيدي ، أتممها الآن.. إنني أرثي لك .. أرثي لك حقاً !

— إن الرثاء من بعض الناس يا جين عاطفة مهينة مزرية ، يخلق بالمرء أن يرميها في وجوه من يقدمونها ، إذ أنها تكون وليدة قلوب مليئة بالحقد والأنانية ، وإنه لما يدعو إلى الألم — القائم على الأثرة — أن يسمع الإنسان كيف تقابل ويلات الناس ونكباتهم بالازدراء ينصب على رءوس من احتملوا وقاسوا !.. أما رثاؤك لي يا جين فمن نوع آخر أراه يرتسم على وجهك ويلتمع في عينيك وينبض به قلبك ، وترتعد له يدك وهي في يدي ... إن رثاءك يا حبيبتي منبعث من قلب طاهر كقلب الأم المضناة ، فلا يسعني سوى أن أتقبله يا جين ، وأفتح صدري !

— استمر ياسيدي . ماذا فعلت عندما وجدت أنها مجنونة ؟

— كنت على شفا هوة اليأس والقنوط ياجين . ولم يحل بيني وبينها سوى بقية من احترام للنفس . نعم ، كنت ملطخ الشرف في أعين الناس ، ولكني أصررت على أن أكون نقياً في عيني نفسي . وأن أنأى عن دنس جرائم هذه المرأة وأن أبتعد عن عيوبها ونقائصها العقلية .. وبرغم ذلك ظل المجتمع يقرن اسمها باسمي ، وظللت أراها وأسمع صوتها وأتنفس الهواء المشبع بأنفاسها — والعياذ بالله — كما أنني لم أنس أنني كنت يوماً

زوجها ، وإن كانت هذه الذكرى — وما تزال — بشعة مقيتة إلى درجة لا توصف !.. وفضلا عن هذا فإنني كنت أدرك أن ليس بوسعي أن أكون زوجاً لزوجة تفضلها ، مادامت هي على قيد الحياة . ومع أنها تكبرني بخمس سنوات — فقد كذبت أسرتها وأبوها حتى فيما يختص بسنها — إلا أنه من المحتمل أن تعيش قدر ما أعيش ، لأنها أوتيت من قوة البنية بقدر ما لديها من خبل . وهكذا وجدتني في السادسة والعشرين من عمري بلا أمل في الحياة !

* * *

● ومضى يقول : « وحدث ذات ليلة أن استيقظت على صرخاتها ، إذ كنا قد حبسناها بطبيعة الحال ، منذ قطع الأطباء بجنونها .. وكانت الليلة من ليالي جزر الهند الغربية النارية ، كما يصفون الطقس الذي يسبق العواصف هناك !.. وإذ عز عليّ أن أعود للنعاس ، غادرت فراشي وفتحت النافذة . ولكن الهواء كان أشبه بعيون كبريتية ، فلم أجد فيما كان حولي ما ينعش النفس . وأقبل البعوض يطن في عناد ويحوم في الحجرة . وتناهى إلى سمعي هدير البحر مكتوماً ، وقد انعقدت السحب القاتمة ، وانحدر القمر إلى المغيب في أطواء الأمواج ، فبدا عريضاً محمراً كقنبلة انطلقت من مدفع .. وراح يرنو بنظرة دموية أخيرة للعالم الذي كان يرتجف أمام العاصفة المقبلة !.. وأثر الجو والمنظر في نفسي ، كما امتلأت أذناي بالشتائم التي كانت المجنونة ما تزال تصرخ بها ، والتي كانت تخلطها من آن لآخر باسمي في لهجة حاقدة بشعة ، وفي تعبيرات وقحة لا تفوه بها عاهرة !.. وكانت كل كلمة تتناهى إلى مسمعي وإن

فصلتني عنها حجرتان . إذ أن الجدران في بيوت الهند الغربية رقيقة ، لاتحجب مثل تلك الصرخات الشبيهة بعواء الذئب . وأخيراً قلت :

— إن هذه الحياة جحيم .. فهذا هواء جهنم ، وهذه هي الأصوات التي تنبعث من جوفها الذي لاقرار له ! .. إن من حقي أن أتخلص منها إذا استطعت . فإن آلام هذه الحال القاتلة خليقة بأن تخنق روحي .. إنني لا أخشى الجحيم المقيم الذي يؤمن به المتعصبون ، فليس من مصير أسوأ من حياتي الراهنة .. لأتخلص من هذه الحال ، ولأطلق روحي لبارئها ! » .

« قلت ذلك وأنا أجثو على ركبتي بجوار حقيبة مفتوحة مليئة بمسدسات محشوة بالرصاص . وكنت قد عزمت على الانتحار ، ولكن هذه الفكرة لم تتملكني سوى لحظة واحدة عاد بعدها صوابي ليتغلب على رغبتي في القضاء على نفسي .. وإذ ذاك هبت رياح منعشة من ناحية أوروبا ، ثم انسابت من المحيط إلى الحديقة . وثارت العاصفة وأرعدت وتوهجت ، ثم صفا الهواء ، وعندئذ رسمت خطة وعولت على قرار .. فبينما كنت أتمشى تحت أشجار البرتقال في الحديقة المبللة ، وبين أشجار الرمان والأناناس ، والفجر من حولي يضيء الأقاليم الاستوائية ، فكرت ياجين فأصغي لما ساورني ، لأن هذه هي الحكمة التي وجدت فيها عزاء في تلك الساعة وهي التي هدتني الطريق الصحيح الذي يجب أن أسلكه .

«وكانت الرياح المنعشة القادمة من أوروبا ما تزال تهمس بين أوراق الشجر التي انتعشت ، وكان المحيط الأطلسي يهدر في انطلاق بديع . وما لبث قلبي الذي طال جفافه واحتراقه أن تحرك لتلك الأنغام ، وامتلأ بدم حي ، كما تاق كياني للتجديد وتعطشت روحي إلى هواء نقي ، ورأيت

الأمل ينبعث ، وشعرت بأن تجدد القلب سهل ميسور . فرحت — من خميلة مزهرة في نهاية الحديقة — أتطلع إلى البحر الذي كان يفوق السماء زرقة . فرأيت العالم القديم بعيداً وقد تفتحت أمامي الأماني هكذا :

« وحدثني الأمل قائلا : « اذهب وعش في أوربا ، حيث لا يعرف أحد أي اسم ملطخ تحمله ، وأي عبء قذر جثم على كاهلك . وفي وسعك أن تأخذ المجنونة معك إلى انجلترا حيث تحبسها في (ثورنفيلد) وسط رعاية واحتياطات شديدة ، ثم ارحل حيث شئت واتخذ لنفسك الحياة التي تروق لك والعلاقات التي تحبها ، لأن المرأة التي دنست اسمك ولطخت شرفك وقضت على زهرة شبابك ليست زوجتك ، ولست أنت زوجها . واطمئن إلى أنها تلقى من العناية ما تتطلبه حالها ، وأنك فعلت كل ما يتطلبه منك الله والإنسانية . أما حقيقتها وعلاقتها بك فأمران يجب أن يطويا في حجلات النسيان ، فلا ترو لأحد قصتهما .. ولتدعها في أمان وسكينة وتستتر على هوانها ، ثم غادرها إلى الأبد ! » .

« وعملت بهذا الاقتراح بكل دقة . ولم يكن أبي وأخي قد أذاعا خبر زواجي بين معارفهما ، لأنني ألححت عليهما — في أول خطاب أرسلته بعد زواجي — أن يكتما خبر هذه الرابطة بعد أن بدأت أستشعر القزز البالغ من عواقبها . وبعد أن رأيت على ضوء الأسرة التي صاهرتها وحالها وطباعها أي مستقبل بغيض كان ينبسط أمامي . ولم يلبث نبأ المرأة المخبولة المبتذلة التي اختارها لي أبي زوجة أن تناهى إليه ، فأصبح وجهه يتضرج بدماء الخجل لانتسابها إليه ، وأصبح أكثر مني رغبة في كتمان أمرها !

« نقلتها إذن إلى انجلترا . وما كان أفظع الرحيل مع هذه الوحشة

فى سفينة واحدة !.. وكم ابتهجت نفسى عندما بلغت بها (ثورنفيلد) ، فوضعتها فى الغرفة الخفية التى بالطابق الثالث ، والتى اتخذتها هذه (الحيوانة) الكاسرة عريناً لها عشر سنوات طوال ، تحت رعاية جريس بول وإشرافها .. فإن هذه المرأة والجراح الدكتور كارتر – الذى ضمد جراح ميسون – هما الوحيدان اللذان أطلعتهما على هذا السر الرهيب . ولعل مسز فيرفاكس قد استرابت فى الأمر ، ولكنها لاتدرى شيئاً عن الحقيقة . وعلى الرغم من أن جريس قامت بمهمتها فى الحراسة على أكمل وجه ، إلا أنه حدث بسبب غلطة ارتكبتها – ويبدو ألا شفاء لها منها وإن تغمضت عليها صفو مهنتها – أن يقظتها تراخت أكثر من مرة ؛ فإن المجنونة ماكرة بقدر ماهى شريرة مؤذية ، فلذلك لم يفتها أن تنتهز غفلة من حارستها ، فحصلت على ذلك الخنجر الذى طعنت به أخاها . كما سرقت المفتاح مرتين فى أثناء الليل ، وحاولت أن تحرقنى فى فراشى فى المرة الأولى ، ثم زارتك فى المرة الثانية ، تلك الزيارة الرهيبة . وإنى لأشكر للعناية الإلهية أن صانتك فاقتصرت المجنونة على أن تصب جام غضبها على خمار زفافك .. إذ أنه لابد قد أعاد إليها ذكريات غامضة عن أيام عرسها ، ولست أحتمل مجرد تصور ما كان يحتمل أن يحدث !.. إن الدم ليجمد فى عروقى حين أفكر فى ذلك الوحش الذى انقض فى هذا الصباح على عنقى ، وخيم بطلعته القرمزية القائمة على عش حبى ! .

* * *

● وعندما توقف سألته : « وماذا فعلت ياسيدى بعد أن جئت بها إلى إلى هنا ؟ إلى أين ذهبت ؟ » .



وعندما توقف سألته :
« وماذا فعلت يا سيدى بعد أن جئت بها الى هنا ؟ الى اين ذهبت ؟ »

— ماذا فعلت ياجين ؟ تحولت إلى طيف .. إلى سراب ! وإلى أين ذهبت ؟ رحت أتجول كالأرواح الهائمة .. سعيت إلى أوربا ورحت أضرب فى مناكبها ، وأطوف ببلدانها ، وقد وضعت نصب عينى أن أبحث عن امرأة طيبة ذكية أستطيع أن أهيم بها حباً ، وأن تكون على نقيض تلك الشيطانة التى تركتها فى ثورنفيلد .

— ولكنك لم تكن تملك أن تتزوج ياسيدى .

— كنت قد قررت ذلك وأقنعت نفسى بأن فى وسعى أن أتزوج .. بل وبأن من الواجب أن أتزوج . ولم يكن فى نيتى أن أخدع أحداً كما خدعتك ، بل كنت أعتزم بسط قصتى فى بساطة وعرض مقترحاتى فى صراحة . وبدا لى أن من المعقول جداً أن يعتبرنى الناس حراً فى أن أحب وأن أحظى بالحب . ولم أشك فى وجود امرأة تستطيع فهم قضيتى . فتقبلنى زوجاً على الرغم من اللعنة التى تثقل عاتقى .

— وبعد ياسيدى ؟

— إن فضولك ياجين يحملنى على الابتسام ، إذ تفتحين عينيك كطائر متلهف ، وتند منك بين الحين والآخر حركة تنبئ عن قلق ، وكأن المعلومات التى يزخر بها حديثى لاتوافيك بسرعة ، فأنت تودين أن تستشفى قرارة قلبى .. ولكن قبل أن أسترسل فى الحديث ، خبرينى : ما الذى تعنيه بعبارة « وبعد ياسيدى ؟ » .. إنها عبارة صغيرة عادية منك ، ولكنها طالما استدرجتنى إلى حديث لا ينتهى ، ولا أدرى السبب فى ذلك .

— إنما أعنى : ماذا بعد ذلك ؟.. كيف سرت فى طريقك ، وماذا نجم عن مثل هذا الحادث ؟

— تماماً !.. وماذا ترغبين فى معرفته الآن ؟

— هل وجدت من أحببتها ، وهل طلبت إليها أن تتزوجك ، وماذا قالت ؟

— فى وسعى أن أجيب عن : هل وجدت من أحببتها ، وهل طلبت إليها أن تتزوجنى .. أما ماقالته فسيدون فى سجل القدر . فلقد قضيت عشر سنوات أهيم هنا وهناك ، أعيش فترة فى عاصمة ، ثم أغادرها إلى غيرها .. فأنا حيناً فى سانت بطرسبرج ، وحيناً فى باريس ، وأحياناً كثيرة فى روما ونابولى والبندقية . وبفضل ما كنت مزوداً به من مال ، ومن جواز سفر يحمل اسماً قديماً ، فقد كان بوسعى أن أختار الوسط الذى آنس إليه ، إذ لم يكن أى وسط يغلق أبوابه فى وجهى . فرحت أبحث عن زوجة نموذجية بين السيدات الإنجليزيات و « الكونتات » الفرنسيات و « السنيورات » الإيطاليات و « الجرافينات » الألمانيات ، دون أن أهتدى إلى ضالتى . وكان يخيل لى أحياناً — لفترة عابرة — أننى لمحت نظرة وسمعت صوتاً ورأيت قواماً يحقق حلمى ، ولكنى كنت لا ألبث أن أثوب إلى رشدى !.. لا تحسبى أننى كنت أنشد الكمال سواء فى العقل أو الجمال ، ولكنى كنت أتلهف فقط على من تلائمنى على نقيض هذه الخلاسية . وعبثاً حاولت ، إذ لم أجد بينهن من يمكن أن أسألها أن تتزوجنى لو أتيحت لى الحرية ، بعد كل ما عانيت من المخاطر والأهوال والخوف من الأواصر التى لاتتلاءم معى . وجعل اليأس منى شخصاً مستهتراً فحاولت الانغماس فى الملذات .. وليس فى الفسق ، فإنى كنت أكرهه وما زلت أكرهه !.. وكانت كل متعة فيها صخب تقربنى من المرأة

التى كنت أهرب منها ، ومن ثم كنت أسارع إلى تجنبها !.. ومع ذلك فإنى لم أستطع العيش بمفردى فجربت معاشرة الخليلات ، ووقع اختيارى أولا على (سيلين فارنس) — وهذه إحدى الخطوات التى تجعل المرء يحتقر نفسه كلما تذكرها — وأنت تعرفين ماذا كانت وكيف انتهت صلتى بها ، وأعقبتها اثنتان : إحداهما إيطالية تدعى (جياشينتا) ، والأخرى ألمانية تدعى (كلارا) . وكانت كل منهما آية فى الجمال ، ولكن ما الذى صار إليه جمالها فى عينى بعد بضعة أسابيع ؟.. كانت (جياشينتا) امرأة عنيفة ، وضيعة الأخلاق والمبادئ فسئمتها بعد ثلاثة أشهر ، بينما كانت (كلارا) أمينة وهادئة ، ولكنها كانت ثقيلة بلا عقل ولا عاطفة . كما أنها كانت لاتثير شعرة فى جسدى . فاغتبطت بأن أمنحها مبلغاً كبيراً يكفل لها العيش الرغد ، وهكذا تخلصت منها برفق ! ولكنى أرى من سيمائك ياجين أنك لاتأخذين عنى الآن فكرة طيبة ، فهل تحسبيننى وغداً مستهتراً لايشعر ولا يتقيد بمبدأ ؟!

— إننى لا أحبك بمثل ما أحببتك فى بعض الأحيان .. هذا هو الواقع ياسيدى . أفلا ترى أنه من الخطأ على الأقل أن تحيا بهذه الطريقة : تعاشر هذه العشيقة ثم تلك ؟.. أراك تتحدث عن هذه الأمور كما لو كانت طبيعية !!

— هكذا كنت أحيا ولكنى لم أحب هذه الطريقة ، ولكنها كانت مجرد وسيلة هائمة للبقاء فى الحياة ولا أحب أن أعود إليها بحال . فإن استئجار عشيقة هو فى عينى بمثابة استرقاق جارية ، كلاهما دنىء بطبيعته

وبوضعه . وفى العيش مع الأدنياء تدهور وانحطاط ، ولذلك فإننى أكره التفكير فى الفترة التى قضيتها مع سيلين وجياشينتا وكلارا !

* * *

● وشعرت بصدق هذه الكلمات ، واستخلصت منها النهاية الأكيدة . فلو أننى نسيت نفسى والتعاليم التى غرست فى أعماقى ، فغدوت خليفة لهذه الفتيات التعسات — مبررة فعلتى بأى مبرر ، أو بأية حجة ، أو مساقة لأى إغراء — لنظر إلىّ على نفس الضوء الذى يشع الآن فى ذهنه على ذكراهن :: ولم أبح بهذا الاقتناع ، مكتفية بأن أشعر به ، فكتمته فى فؤادى عسى أن يمكث فيه ليكون فى عونى فى وقت الضيق !

— والآن ياجين ، لماذا لاتقولين : « وبعد ياسيدى ؟ » .. إنك تبدين مهمومة وأراك مازلت تستنكفين ما فعلت ؛ ولكن دعينا نصل إلى ما أرمى إليه : فقد تخلصت فى يناير الماضى من كل خليلاتى ، إذ تولانى تفكير قاس مرير ، نتيجة الحياة غير المجدية ، الهائمة ، الموحشة ، التى نخرها القنوط والخيبة ، فإذا بى أشعر بكراهية بغيضة لكل الناس ، لاسيما النساء منهم ، لأننى بدأت أعتنق الرأى القائل عن عقل وإخلاص : إن المرأة المحبة لاتعدو حلماً من الأحلام !.. وكانت شئونى قد أرجعتنى إلى انجلترا . وفيما كنت راكباً جوادى بعد ظهر يوم شديد البرد من أيام الشتاء ، وقد أشرفت على (ثورنفيلد هول) — هذا المكان البغيض الذى لم أكن أتوقع فيه سلاماً ولا هناء — شاهدت فى طريق (هاى) شبحاً صغيراً يجلس وحيداً فى هدوء ، فواصلت السير دون اكتراث ماراً بشجرة الصفصاف القطبية فى الاتجاه الآخر دون أن أدرى ما سيكون لهذا الشبح

من شأن فى حياتى ، ودون أن ينبهنى شىء فى قرارة نفسى إلى أن المرأة
التى سيكون لها الحكم الفاصل فى حياتى ، وإلى أن الجنية التى ستقودنى إلى
الخير أو إلى الشر ، كانت تنتظرنى متنكرة فى شخصية متواضعة . أجل ،
لم أفطن إلى ذلك ، حتى عندما تقدمت جادة تعرض مساعدتها لإنهاضى
من عثرتى عندما كبا بى جوادى « مسرور » ..

كم كانت مخلوقة ناحلة أشبه بالأطفال !.. لقد خيل إلىّ أنها عصفور
وثب عند قدمى وعرض علىّ أن يحملنى على جناحه الصغير !.. وكنت
فظاً ، ولكن هذه المخلوقة لم تنصرف بل وقفت أمامى فى إلحاح عجيب ،
وجعلت تتطلع إلىّ وتحدثنى فيما يشبه الأمر بأنى يجب علىّ أتقبل العون من
يدها بالذات .. وفعلا عاونتنى .. وما أن ضغطت على كتفها الهزيلة ،
حتى تسرب إلى جسمى إحساس جديد .. ثم طبت نفساً عندما علمت أن
هذه (القزمة) لن تلبث أن تعود لى ، إنها على صلة بمنزلى .. ولولا ذلك
ما تركتها تمضى فى سبيلها وتختفى وراء السياج القائم دون ندم غير عادى !.
ثم سمعتك تعودين إلى المنزل فى تلك الليلة ياجين ، وإن لم يخطر ببالك
أنى كنت أفكر فيك أو أرتقب عودتك . وفى اليوم التالى ، لاحظتك
خفية نحو نصف ساعة وأنت تلعبين مع أديل فى الدهليز ، إذ كان اليوم
قراً والجليد يتساقط ، فلم يكن فى وسعكما الخروج .. ولقد شغلت أديل
اهتمامك برهة ، ومع ذلك فقد خيل إلىّ أن أفكارك كانت تهيم فى مكان
آخر . ولكنك كنت بالغة الصبر فى معاملتك لأديل ياصغيرتى جين ،
فظللت تحدثينها وتسلينها طويلا .. حتى إذا غادرتك الطفلة فى النهاية ،
غرقت على الفور فى لجة عميقة من أحلام اليقظة ، ورحت تذرعين الدهليز

بخطوات بطيئة ، وكنت بين الفينة والأخرى تطلين — كلما مررت
بالنافذة — على الجليد الكثيف المتساقط وتصغين إلى نحيب الرياح ، ثم
تعودين إلى ذرع الدهليز وأنت سادرة فى أحلامك ! وأغلب الظن أن
أحلام اليقظة تلك لم تكن قاتمة ، لأن عينيك كانتا تشعان فى سرور
واغتباط ، وكانت انفعالاتك تنجلى على أساريرك ناعمة ، لاتدل على
شعور بمرارة أو اكتئاب أو وسوسة .. كانت نظرتك تشى بأفكار
الشباب الحلوة التى تحلق مع الروح على أجنحة الأمل إلى سماء المثل العالية .
وأخيراً ، أفقت من أحلامك على صوت مسز فيرفاكس تنادى إحدى
الخادمات ، وبالابتسامة التى ابتسمتها ياجانيت إذ ذاك لنفسك .. كانت
ابتسامة تزخر بالمعانى .. ابتسامة أريبة تلقى ضوءاً على شرود أفكارك ،
وكأنها تقول : « إن أحلامى لذيذة للغاية ، ولكن يجب ألا أنسى أنها
مجرد أوهام خيالية .. إن فى رأسى جنة نضيرة الأزهار وسماء وردية
اللون ، ولكن عند قدمى طريقاً وعراً ، وحولى تتجمع العواصف
السوداء » .. ثم أسرعت تهبطين الدرج إلى الطابق السفلى ، وطلبت إلى
مسز فيرفاكس نوعاً من العمل لعله الحساب الأسبوعى لنفقات القصر
أو شىء من هذا القبيل ، فاستأت أنا لاختفائك عن عينى !

وترقبت وفود المساء فى صبر نافد ، لأدعوك إلى حضرتى . فقد
شككت فى أن تكون لك طباع غير عادية ولا قبل لى بها ، فأردت أن
أسبر غورها وأتعرف عليها جيداً . ورأيتك تدخلين الحجرة بمظهر يجمع
بين الحياء والاستقلال الشخصية ، كما أنك كنت فى ثياب عجيبة كما أنت
الآن .. واستدرجتك إلى الكلام ، فسرعان ما وجدتك مشحونة بالمتناقضات

العجيبة : فقد كانت ثيابك وطباعك تخضع لقيود شديدة ، وكان مظهر
ينم فى أغلب الأحيان عن خفر وحياء ، ولكنه فى مجموعه كان يدل على
أنك مثقفة ، وغير مختلطة بالمجتمع .. كنت شديدة الخوف من التعرض
بلا داع إلى الهراء والأخطاء ، ولكنك — إذا ماوجه إليك حديث —
كنت ترفعين إلى وجه محدثك عيناً حادة جريئة متألقة ، وظهر فى كل
لمحة من لحاظك أنك ذات سلطان ينفذ إلى أعماق محدثك ، فإذا ضيق عليك
الأسئلة جاءت ردودك حاضرة سديدة .. وسرعان ما ألفتنى وأعتقد أنك
شعرت بالتجاوب بينك وبين مخدومك المتجهم العبوس ياجين . لأن
نورتك كانت تخبو لأقل تهدئة من ناحيتى . ولأنك لم تعجبى لما أتصف
به من عبوس وفظاظة ، ولم تخافى ولم تجزعى ولم تستائى لشراستى . بل
كنت ترمقيننى وتبتسمين إلىّ من حين إلى آخر ببساطة تجل عن الوصف ،
فقنعت بما رأيت ورضيت بما شاهدت وتمنيت المزيد ، ولكنى ظللت
لمدة طويلة أعاملك معاملة ترمى إلى إقصائك ، فلم أسع للاختلاط بك
إلا فيما ندر ، لأننى أردت أن أطيل حبل القصة من جهة ، ولأننى
خشيت من جهة أخرى أن تذبل الزهرة إذا أكثرت من تداولها ، فتضيع
رائحتها الساحرة .. وما كنت أعرف وقتذاك أن ازدهارها ليس زائلا ،
وإنما هو إشراق دائم كتألق الجوهرة لا يتلاشى ولا يمحى . هذا إلى
أننى أردت أن أعرف ما إذا كنت تنشدين رؤيتى إذا تجنبتك ، ولكنك
لم تحفلى بى ياجين وظللت تلازمين حجرتك ، فإذا التقيت بى عرضاً
واتفاقاً ، لم تظهرى نحوى إلا ما يفرضه عليك واجب الاحترام .

وكانت أساريرك العادية فى تلك الأيام ياجين تنم عن التفكير العميق .

ولم تكن شاحبة ، لأنك لم تكونى تعانين إذ ذاك هماً ولا قنوطاً .. وكذلك
لم تكن متهللة ، إذ كانت آمالك قليلة بسيطة ولم تكن فى حياتك غبطة
حقيقية .. ولقد ساءلت نفسى عما جال بخاطرك عنى ، وعما إذا كنت
قد فكرت لحظة فىّ .. ولكى أتبين ذلك ظللت أراقبك ، فإذا نظراتك
شىء من الفرح ، وفى تصرفاتك ما ينم عن سماحة ، وفى حديثك — إذا
تكلمت — ما يكشف عن قلب ودود . وما كان حزنك سوى ضجر
تولد عن حجرة الدراسة الساكنة ، وعن الحياة الرتيبة ، الجامدة ! ..
وتركت نفسى تنعم بمعاملتك بالحسنى . وسرعان ما تحركت عواطفك
بهذه الشفقة ولانت أساريرك ونبراتك .. وأصبحت أحب سماع اسمى
تنطق به شفتاك بلهجة تشف عن الامتنان والسعادة ، كما اعتدت أن
أتحين الفرص لملاقاتك فى تلك الأيام ياجين ؛ ورأيتك فى حيرة . وشاهدت
قلقاً فى نظراتك ، إذ لم تكونى تدرين هل سأمثل معك دور السيد فأعاملك
بشدة وحزم ، أو أننى سأتخذ دور الصديق فأبدى لك الود والعطف ..
ولكننى كنت قد أصبحت متيماً فى هواك إلى درجة حالت دون أن أقوم
إزاءك بالدور الأول . فكنت إذا مددت إليك يدى فى ود ، تهلل وجهك
الصغير وتوردت أساريرك المشتاقة حتى أصبحت أجد عناء كثيراً فى
منع نفسى من أن أضمك إلى صدرى .

* * *

● فقاطعته وأنا أكفكف دموعى خلسة : ولا تحدثنى مرة أخرى عن
تلك الأيام ياسيدى ! .. فلقد كانت كلماته تعذبنى ، لأننى كنت قد
عرفت ما يجب أن أفعله .. وأن أفعله بسرعة ؛ ومن ثم فقد كانت تلك

الذكريات والاعترافات العاطفية تزيد فى صعوبة مهمتى . وأجابنى قائلا : « كلا ياجين .. لا ضرورة تدعو إلى التحدث عن الماضى إذا كان الحاضر أكثر منه أمناً ، والمستقبل أكثر إشراقاً وتألقاً ! » .

وارتجفت لهذا التأكيد الذى يدل على أنه رجل مسلوب القلب . ولكنه استرسل يقول : « هاأنتذى قد رأيت قضيتى .. أليس كذلك ؟ فبعد شباب ورجولة انقضيا فى بؤس لا يوصف ووحدة موحشة ، عثرت على ضالتى المنشودة ، والتقيت بمن أستطيع أن أحبها حباً صادقاً .. عثرت عليك أنت .. أنت عاطفتى وذاتى الفضلى وملاكى الكريم !.. وإنى لمرتبط بك برباط قوى ، وأراك فتاة طيبة موهوبة مليحة . وأحمل لك فى قلبى حباً عاتياً يهفو إليك ويجتذبك إلى سويدائى وإلى منبع حياتى ، ويدفع وجودى إلى أن يلف حولك ، وإلى أن يشتعل فى لهيب صاف مشبوب يصهرك وإياى فى كيان واحد !.. كان شعورى هذا ومعرفتى هذه سر إصرارى على أن أتزوجك . وإذا قلت لك الآن أن لى زوجة فإن هذا القول يعد سخرية فارغة . لأنك تعلمين أنها شيطانة مريدة !.. لقد أخطأت فعلا فى إخفاء هذه الحقيقة عنك ، وعذرى أنى كنت أخشى ما أعهده من عناد فى أخلاقك .. إنه جبن منى بلا ريب . فقد كان خليقاً بى أن أبسط لك قضيتى كما بسطتها الآن ، ثم أتوسل إلى نفسك النبيلة وإلى كرم أخلاقك أولا ، ثم أكشف لك بصراحة عن تاريخ حياتى العقلية وأصف لك مدى جوعى وتعطشى إلى حياة أسمى وأفضل .. حتى إذا ما أبديت لك عزمى الذى لا يثنى على أن أحب وأخلص حباً أجد

الحب والإخلاص ، كان لى أن أسألك أن تبادلينى العهد على الوفاء .. فهلا عاهدتنى ياجين ؟ » .

وران السكون بيننا لحظة قال بعدها : « لماذا تسكتين يا جين ؟ » .

وكنت أعانى عذاباً مضنياً ، وكأنما راحت تعتصر أحشائى قبضة من حديد ملتهب .. كانت لحظة عصيبة زخرت بالصراع والظلام والاحتراق !.. ما كان فى الدنيا إنسان يهفو إلى أن يلقى من الحب ما كنت ألقى .. وكنت أعبد هذا الذى يحبنى عبادة مطلقة ، ولكن واجبى كان يحتم علىّ أن أنبذ هذا الحب وهذا المعبود !.. كان كل واجبى ينحصر فى كلمة واحدة ، بغيضة .. الرحيل ! » .

وعاد يسألنى : « أتفهمين ياجين ما أريده منك ؟ .. لا أريد سوى هذا الوعد : سأكون لك يامستر روشستر ! » .

— بل إننى لن أكون لك يا مستر روشستر !

وران سكون مطبق آخر ، قبل أن يستأنف السيد حديثه بصوت رقيق انفطر له قلبى ، وأحالنى كالحجر البارد لفرط الإشفاق والهلع . فقد بدا كصوت أسد يلهث وهو يقول : « أتعنين ياجين أن تتخذى لك فى هذا العالم طريقاً غير طريق ؟ » .

— نعم أعنى ذلك .

فانحنى علىّ وضمنى إلى صدره ، ثم عاد يقول : « وهل مازلت تعنينه الآن ؟ » .

— نعم أعنيه .

فطبع قبلة رقيقة على وجنتى وجبينى ثم قال : « والآن » .

فبادرت إلى انتزاع نفسى تماماً من أحضانه وقلت : « نعم أعنيه ! » .

— أواه ياجين .. هذه قسوة ! .. هذا شر ! هل من الشر أن تحبينى ؟

— بل من الشر أن أطيعك .

فارتفع حاجباه عن نظرات شرسة توهجت على أساريره ، ثم نهض من مكانه . ولكنه تجلد بينما اتكأت بيدى على ظهرى أحد المقاعد خشية السقوط ، وقد ارتجف جسمى واستبد بى الخوف . ولكننى ظللت مصرة على ما اعتزمت ، فقال : « لحظة واحدة ياجين .. ألقى نظرة واحدة على حياتى البائسة قبل أن تذهبى . إنك تنتزعين معك كل سعادتى . فماذا يبقى لى بعدها ؟ .. ليس لى إلا الزوجة المجنونة بالطابق العلوى كأنها إحدى الجثث المدفونة فى فناء الكنيسة . فماذا أفعل ياجين ؟ وأين أنشد الرفيق ؟ وأى أمل يبقى لى فى الحياة ؟ » .

— افعل مثلى : ثق فى الله ، وفى نفسك ، وآمن بالسماء ، وتمسك بالأمل فى أن نلتقى فيها !

— إذن فلن ترضخى ؟

— كلا .

فقال بصوت مرتفع : « إذن فأنت تقضين علىّ بأن أعيش شقياً وأن أموت ملعوناً ؟ » .

— بل أنصحك بأن تعيش بلا خطيئة ، وأتمنى لك أن تموت فى هدوء وسلام !

— إذن فأنت تنتزعين منى الحب والبراءة ، وتردينى إلى الشهوات والرذيلة ؟

— أنا لا أحملك على مثل هذه الحياة يامستر روشستر ، اللهم إلا إذا كنت أرتضيها لنفسى .. إنما ولدنا لكى نناضل ونحتمل .. هذا مصيرك ومصيرى ، وسوف تنسانى قبل أن أنساك !

— إنك بهذه الكلمات تصميننى بالكذب والرياء ، وتستهينين بشرفى . لقد صارحتك بأننى لن أجد لى رفيقاً غيرك ، ولكنك تواجهيننى بأننى لن ألبث أن أتغير فأنساك .. ألا ما أقسى حكمك ، وما أبعد آراءك عن الحقيقة ! .. هل من الخير أن تلقى مخلوقاً فى غياهب اليأس بدلا من أن تتجاوزى عن قانون بشرى لن يضير أحداً إذا نقضه ؟ .. إنك بلا أقارب أو معارف تخشين غضبهم إذا ما عشت معى !

* * *

● كان هذا صحيحاً .. وكان ضميرى وعقلى قد تألبا ضدى — أثناء الحديث — واتهمانى بأننى أجرم فى حقه إذ أقاومه . وصاح شعورى عالياً بلورى : « أواه ! .. اخضعى ! .. فكرى فى شقائه .. فكرى فى الخطر الذى يتهدده . فكرى فى حاله عندما تغادرينه وحيداً .. تذكرى اندفاعه وتهوره فى حبك وفكرى فيما قد يجره عليه اليأس .. هيا خففى عنه وانقذيه وأحبيه .. أخبريه بأنك تحبينه وأنك ستكونين له .. من ذا الذى يعنى بك فى العالم غيره ، ومن الذى يضيره ماتفعلين ؟ » .

ورغم ذلك ، فقد ظل الجواب الذى لايغلب ولا يقهر : « سأعنى بنفسى .. وكلما بقيت فى عزلة وبلا صديق أو عائل ، زدت احتراماً لنفسى وتمسكاً بالشرائع التى استنها الله وأقرها البشر : نعم ، سأتمسك بالمبادئ التى اعتنقتها وأنا فى سلامتى العقلية ، لا وأنا مخبولة بالانفعالات

كما أنا الآن ، فإن قيمة الشرائع والمبادئ ليست فى الأوقات التى تخلو من الإغراء ، وإنما هى فى مثل هذه اللحظات التى يتمرد فيها الجسم والروح على صرامة تلك المبادئ والشرائع . فهى صارمة حقاً ، ولكنها ستظل مصونة حصينة . وإذا كان فى وسعى أن أنتهكها لمصلحتى الخاصة ، فأية قيمة لها إذن ؟ إن لها قيمتها كما كنت أعتقد دائماً ، فإذا كنت قد كففت عن الاعتقاد الآن ، فما ذلك إلا لأننى مجنونة .. مجنونة وأى جنون بسبب النار التى تسرى فى شرايينى ، وبسبب نبضات قلبى التى لم أعد أقوى على ملاحقتها وإحصائها .. لم يبق لى الآن سوى الوقوف بجانب الآراء القديمة والإرادة السابقة ، وسوف أتسمر إليها لا أريم ولا أتحرك ؟ » .

وقد فعلت ذلك ! .. ورأى مستر روشستر مما ارتسم على أسارير وجهى أننى اعتزمت ذلك .. وكان غضبه قد بلغ الذروة فعوّل على أن يهدئ من سورته مهما حدث ، ولذلك عبر الحجرة وأمسك بذراعى ثم أمسك بخصرى وراح يصليني بنظراته الملتهبة ، فشعرت فى تلك اللحظة بعجزى الجثمانى . ولكنى بقيت محتفظة بقواى العقلية . وأحسست بأننى لذلك فى مأمن تام وسلامة كاملة .. ومن حسن الحظ أن العين تترجم ما يدور بالنفس ترجمة أمينة دون أن تدرى ، وكنت قد رفعت عينى إلى عينه . وفيما كنت أتفرس فى وجهه الثائر ، ندت عن صدرى زفرة — برغمى — إذ كان يشد بقوة على خصرى . ووجدت قواى تخور فقال وهو يصرف على أسنانه : « ما رأيت فى حياتى قط مخلوقة كهذه .. غاية فى الضعف ، وغاية فى الصلابة ! .. إنها لتبدو فى يدى كقصبة من البوص ! » .. وهزنى بقوة وهو يقول : « إننى أكاد ألويها بين إصبعى

وإبهامى . ولكن أى نفع أجنيه إذا أنا لويتها أو حطمتها أو سحقتها ؟ .. انظر إلى هذه العين ! .. تأمل النظرة العنيدة ، النافرة ، المنطلقة .. إنها تتحدانى بشىء يفوق الشجاعة .. بشعور بالنصر المؤزر ! .. كأنى بهذا الجسد الهش قفص يضم روحها .. ولكنى لن أستطيع — مهما أفعل بهذا القفص — أن أصل إلى هذه المخلوقة المتوحشة الجميلة ! .. لو أننى مزقت أو هشمت هذا القفص الضئيل ، فلن يؤدى هياجى إلا إلى انطلاق الطائر الأسير .. إننى قد أقتحم هذا المأوى ، ولكن ساكنته ستفر إلى السماء قبل أن تصل إليها يداى . إنك أنت أيتها الروح بما أوتيت من قوة وفضيلة وطهارة ، هى كل ما أنشد ، فلا حاجة لى بهيكلك الهش .. إن فى وسعك أن تأتينى طواعية وأن تحطى على صدرى كعصفور ، أما إذا أمسكت بك رغم أنفك فسوف تروغين من قبضتى مثل الأثير ، وسوف تختفين قبل أن أنهل من عبيرك ؟ أواه .. تعالى ياجين .. تعالى ! » .

ثم أطلقنى من قبضته وراح يتأملنى بنظرة أشد إيلاماً للنفس من قبضته ولكنى وجدت من الحمق والغباء أن أستسلم الآن بعد أن جرؤت وقاومت ثورته فى عنفوانها ، فتراجعت إلى الباب ولكنه صاح : « أذاهبة أنت ياجين ؟ » .

— أجل ، أنا ذاهبة ياسيدى .

— وهل تتركيننى ؟

— نعم .

— ألا تعودين ؟ .. هلا تكونين لى الأنيسة المنقذة ؟ .. ألا قيمة لديك لحبى العميق وحزنى الشديد وضراعتى الحارة ؟

وكان فى صوته نشيج مكبوت ، ولذلك كان شاقاً علىَّ أن أقول فى عزم وإصرار : « إننى ذاهبة » .. فهتف : « جين ! » .. قلت : « مستر روشستر ! » .

— اذهبى إذن .. لقد رضيت ، ولكن تذكرى أنك تتركيننى هنا لأعانى آلاماً مبرحة . اصعدى إلى غرفتك وفكرى فى كل ما قلته لك ، ثم ألقى نظرة على شجونى وفكرى فىَّ !

واستدار وانكفأ فوق الأريكة ، ثم غمغم بين شفتيه فى ألم : « أواه ياجين ! يا أملى وحبى وحياتى ! » . ونهنه باكياً .. وكنت قد بلغت الباب إذ ذاك ، ولكنى عدت أيها القارئ .. عدت بالعزم الذى انسحبت به ، فركعت بجواره ، وحولت وجهه عن الوسادة نحوى ، وقبلت وجنته ، ومسحت بيدى على شعره ، ثم قلت : « باركك الله ياسيدى العزيز ، وحفظك من كل شر ، وعصمك من الخطأ وسدد خطاك ، ومنحك السلوان ، وجزاك خير الجزاء على ما أسلفت علىَّ من عطف وحنان ! » .. فأجابنى : « إن حب جين الصغيرة هو خير ما أطمع فيه من جزاء ، وبدونه يتحطم قلبى . إلا أن جين ستمنحنى حبها .. نعم ستمنحنيه فى نبل وكرم ! » .. ثم اندفعت الدماء حارة إلى وجنتيه والتهبت عيناه فوثب واقفاً على قدميه ، ومد ذراعيه ، ولكنى أفلت من بينهما وغادرت الحجرة على الفور ، بينما كان قلبى يصيح وأنا أتركه : « وداعاً ؟ » .. وأضاف « اليأس » إلى ذلك قوله : « وداعاً .. إلى الأبد ! » .

* * *

● لم يطف بخاطرى فى تلك الليلة أننى بحاجة إلى النوم ، ولكنى لم أكد

أستلقى على فراشى حتى أخذتنى سنة من النوم ، فانتقلت بى الرؤيا إلى أيام طفولتى ، وحلمت بأننى راقدة بالغرفة الحمراء فى (جيتسهيد) فى ليلة حالكة الظلام ، وقد استبدت بعقلى مخاوف عجيبة . وانبعث فى المنام ضوء المصباح الذى لاح لى عندما كنت حبيسة تلك الغرفة — منذ أمد بعيد — فأذكى خوفى وجعلنى أفقد الرشد .. تراءى لى ذلك الضوء وهو ينزلق على الجدران ، ويظل يرتعش ويهتز حتى تركز على السقف المعتم ، وتبعه بصرى فإذا بى أرى السقف يتحول إلى سحب عالية داكنة وقد بدا فيها ذلك النور أشبه بالضياء الذى يخلعه القمر على السحب عندما يهم بتمزيق شملها .. ورحت أرقب ظهور القمر .. رحت أترقبه فى لهفة عجيبة وكأن مصيرى سينطبع على قرصه . وسرعان ما برز بشكل ما لم يبرز قمر من قبل من بين السحب : فقد شقت يد طيات الغيوم السوداء وأزاحتها بعيداً ، وبدلا من أن يظهر القمر ، بدا شبح آدمى أبيض يلتمع فى اللون اللازوردى ، فأطل على الأرض بطلعة بهية ، وراح يحدق فىَّ ويطيل التحديق ، ثم خاطب روحى بصوت جد بعيد ، ولكنه مع ذلك كان جد قريب ، فكأنما كان يهمس فى قلبى وهو يقول : « اهربى يا ابنتى من الإغراء ! » .. فهتفت : « سأفعل يا أماه ! » .

وكررت هذه الإجابة وأنا أفيق من حلمى الذى كان أشبه باستغراقة روحية . وكان الليل لايزال مرخياً أستاره ، ولكن ليالى شهر يولية قصيرة ، لا تكاد تنتصف حتى يدهمها الفجر . فقلت لنفسى : « ليس الوقت مبكراً ، فلأنهض لأشرع فى المهمة التى يجب أن أؤديها ! » . ومن ثم نهضت ، ولم أكن قد خلعت من ثيابى غير حذائى : وكان من

اليسير عليّ أن أخرج من أدراجي بعض الثياب ، ورصيعتي وخاتمي .
وفيما كنت أجمع هذه الأشياء عثرت على عقد من اللؤلؤ كان مستر
روشستر قد أكرهني على قبوله منذ بضعة أيام ، فتركته لأنه لم يكن ملكاً
لي وإن كان ملكاً للعروس التي ذابت وتبددت في الهواء ! .. أما أمتعتي
الأخرى فقد حزمتها ، ووضعت كيس نقودي في جيبي — ولم يكن به
سوى عشرين شلناً هي كل ما كنت أملك — ثم ارتديت قلنسوتي القش
وثبتت شالي بالدبابيس إلى شعري ، وحملت حزمة الأمتعة و (شبشبي)
الذي لم ألبسه من قبل ، ثم تسللت من الحجرة .

وهمست وأنا أمر بباب غرفة مديرة القصر : « وداعاً يامسز فيرفاكس
الرحيمة !.. ووداعاً ياحبيبتي أديل ! » .. واكتفيت بالتطلع إلى حجرة
الطفلة دون أن أجسر على الدخول لأقبل أديل . وكان بودي أن أمضي في
طريقي دون توقف — عندما مررت بحجرة مستر روشستر — ولكن قلبي
كف عن النبض لحظة عندما بلغت عتبة بابها ، كما سمرت قدماي في
مكانيهما .. لم يكن النوم يعمر تلك الغرفة ، إذ كان ساكنها يذرعها في
قلق وانفعال ، من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر . وهو يتنهد بين
آونة وأخرى . وأرهفت السمع .. كانت هذه الغرفة خليقة بأن تغدو
جنتي لفترة من الزمن إذا شئت .. كل ما كان عليّ ، هو أن ألجها وأقول :
ولسوف أحبك يامستر روشستر ، ولسوف أحيا معك حتى الممات ! »
ثم يفيض على شفتي الفرح .. هكذا خيل إليّ !

لقد كان هذا السيد الرحيم — الذي لم يقو على النوم — ينتظر مطلع
النهار بصبر نافد ، كي يرسل في طلبي إذا ما أقبل الصباح . ولكني سأكون

قد رحلت .. ولسوف يبحث عني سدى ، ثم يشعر بأنني هجرته ونبذت
حبه ، فيتعذب ويتملكه اليأس .. فكرت في هذا كله أيضاً ، ثم امتدت
يدي إلى قفل باب السلم ففتحته ، ثم تسللت .. وهبطت الدرج في اكتئاب .
وكنت أدرك ماينبغي عمله ، ومن ثم رحت أتصرف بطريقة آلية ، فبحثت
عن مفتاح الباب الجانبي في المطبخ ، كما بحثت عن قارورة زيت وريشة
فدهنت المفتاح والقفل بالزيت ، وتناولت بعض الماء والخبز خشية أن
يطول بي المسير وتفادياً لخور القوى الذي أصبح ينتابني كثيراً في الفترة
الأخيرة . ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقته خلفي . ولاحت إذ ذاك
تباشير الفجر معتمة في الفناء . وكانت الأبواب الخارجية مغلقة بالمفاتيح ،
ولكن كوة في أحدها كانت موصدة بالمزلاج فقط ، فتسللت خلالها ،
ثم أغلقتها خلفي هي الأخرى .. وغدوت خارج (ثورنفيلد) !

وكان ثمة طريق — على بعد ميل من الحقول — يمتد في الاتجاه المضاد
لميلكوت .. طريق لم أكن قد سلكته من قبل ، ولكني شاهدته مراراً
دون أن أعرف إلى أين كان يفضي ، فيممت شطره ، وانطلقت فيه ،
لا أنظر إلى ما خلفي ولا إلى ما أمامي ، ولا أتجه بخواطري نحو الماضي
ولا نحو المستقبل ؛ فقد كان الأول صفحة سماوية البهاء ولكنها محفوفة
بالأسى ، يكفي أن أطالع سطراً واحداً من سطورها لتذوب شجاعتي
وتنهار عزيمتي .. ولأن الثاني كان صفحة مروعة أشبه بالدنيا التي أغرقها
الطوفان وأزالها من الوجود !

وسرت في محاذاة الحقول وأسوار المزارع والطرقات الضيقة إلى
مابعد طلوع الشمس . وأغلب الظن أنه كان صباحاً جميلاً من أيام الصيف

وكنت أدرك أن الندى لن يلبث أن يبلل حذاءى اللذين لبستهما عندما غادرت القصر .. ولم أتطلع إلى الشمس المشرقة أو إلى السماء الباسمة أو إلى الطبيعة المستيقظة ، فإن من يقاد إلى المقصلة عبر منظر جميل لايفكر فى الزهور التى تبتسم فى طريقه ، وإنما يتركز تفكيره فى النطع وحافة البلطة وتمزيق العظام والشرايين وفى القبر الذى يستقبله فى النهاية ! .. وكذلك كنت أنا الأخرى أفكر فى هروبى البغيض ، وفيما كنت مقبلة عليه من تشرد .. كما فكرت فيه .. فى مستر روشستر ! .. وتصورته فى غرفته يرقب مطلع الشمس ويعلل النفس بالآمال ، متوقعاً أن أعود إليه لأخبره بأنى سوف أحيا معه وأكون له .. آه ، كم كنت أتلهف على أن أكون له ، وأتحرق على أن أعود إليه ! .. إن الفرصة لم تكن قد ضاعت بعد وكان فى وسعى أن أكفيه مرارة الحزن واللوعة ! .. وإذ كنت واثقة من أن أحداً لم يفطن إلى قرارى . فقد كان من الميسور أن أرتد لأكون له الأنيسة ، ولأكون المرأة التى يفخر بها ، ولأنقذه من البؤس والشقاء ، وربما من الهلاك !

وكان هجره لنفسه أنكى من هجرى له ، فكيف أغرتنى نفسى بذلك الذى إذا فكرت فيه شعرت بسهم شائك فى صدرى يمزق قلبى كلما حاولت انتزاعه ، ويزيدنى ضعفاً ومرضاً كلما ساقته الذكريات إلى أبعد من ذلك .. وكانت الطيور قد بدأت تغرد على الأيكات والأجمات ، فخيل إلىّ أنها مخلصة ، كل إلف لأليفه ، بل إنها رموز الحب . أما أنا فماذا كنت ؟ .. لقد أبغضت نفسى وسط الآلام التى كانت تجتاح قلبى ، والمبادئ والمثل التى كنت أجاهد من أجلها .. لم يكن ثمة

عزاء لى بعد أن جرحت سيدى وآذيته ثم هجرته .. بل إننى غدوت بغيضة فى عينى نفسى ! ولكنى لم أكن أقوى على النكوص والرجوع إلى الخلف خطوة واحدة ، بل كان لابد من أن أسير قدماً فى الطريق الذى رسمه لى الله .. أما إرادتى وضميرى فإن الحزن الدافق داس الأول وكبت الثانى . ثم أخذت دموعى تنهمر بشدة وأنا أسير فى الطريق الموحش بسرعة مطردة كمن اختل عقلها أو مسها الذهول . إلى أن غشينى ضعف لم يلبث أن امتد إلى أطرافى واستبد بى فسقطت .. وظللت مستلقية على الأرض بضع دقائق وأنا أضغط وجهى فى الحشائش المبتلة ، وبى خشية أو رغبة فى الموت فى ذلك المكان . ولكنى لم ألبث أن نهضت وزحفت على يدى وركبتى ، ثم استويت على قدمى وقد عزمت فى إصرار أن أصل إلى الطريق الذى كنت أجتاز الحقول سعياً إليه .

وعندما بلغته ، اضطررت إلى الجلوس لأستريح تحت سياج نباتى ، على أننى لم ألبث أن سمعت وقع عجلات ، ثم رأيت عربة قادمة ، فوقفت ورفعت يدى فتوقفت العربة عن السير . وسألت إلى أين هى ذاهبة ، فذكر لى الحوذى مكاناً بعيداً حدست أن ليس لمستر روشستر علاقة به . وإذ سألت الحوذى عن الأجر الذى يريده ليقلنى إلى هناك ، قال إنه ثلاثون شلناً .. فقلت إننى لم أكن أملك سوى عشرين شلناً . وإذ ذاك قال إنه يكتفى بها ، وسمح لى بدخول العربة التى كانت خالية . ثم أغلق بابها ، ومضى فى طريقه .

أيها القارئ ، ادع الله أن يجنبك ما كنت أشعر به ، وأن لا تذرف عيناك قط ما ذرفت عيناى من دموع مدرارة ، لاذعة تعتصر القلب ،

وأن لاتلجأ إليه سبحانه فى صلواتك وأنت تعانى ما كنت أعانى إذ ذاك
من بأس ، وأن لا تكونى مثلى أداة نقمة وشر لمن تحب بكل روحك ! :

الفصل الثامن والعشرون

● انقضى يومان ، وحلت أمسية من أمسيات الصيف .. وكان الحوذى
قد أنزلنى فى مكان يدعى (هويتكروس) ، لأنه لم يشأ أن يقلنى بالمبلغ
الذى دفعته إلى أبعد من ذلك ، ولم أكن أمتلك من دنياى شلناً واحداً
فوق ذلك المبلغ .. وكانت العربة قد ابتعدت ميلا وخلفتنى وحيدة ،
عندما اكتشفت أننى نسيت أن أتناول من جيب العربة الحزمة التى
أودعتها كل حاجاتى ، والتى كنت قد وضعتها فى الجيب بغية الاطمئنان
على سلامتها !.. لقد بقيت حيث أودعتها ، وكان لابد من أن تبقى لأصبح
معدمة مجردة من كل شىء !

وليست (هويتكروس) بمدينة ، بل ولا هى بقرية ، وإنما هى
مجرد عمود حجرى أقيم عند ملتقى أربع طرق ، وقد طلى باللون الأبيض
ليبدو بوضوح على بعد ، وفى الظلام ، على ما أعتقد !.. وتمتد من قمة
العمود أربع أذرع تشير إلى أقرب المواقع على الطرق الأربع .. وكانت
أقرب بلدة تشير إليها — كما فهمت مما كتب عليها — تبعد بحوالى عشرة
أميال ، فى حين أن أبعدها كانت على بعد يزيد على عشرين ميلا . ومن
أسماء هذه المدن — وكانت مشهورة — عرفت المقاطعة التى هبطتها .
وكانت من مقاطعات الشمال الأوسط ، تسود أرضها المستنقعات ، ويقوم
على حافتها جبل كان من السهل أن أراه .. وكانت المستنقعات الواسعة
تمتد من خلفى وعلى جانبى :: أما فيما أمامى ، فقد كان ثمة واد منخفض ،

بدت خلفه سلسلة من الجبال !.. ولابد أن سكان الإقليم كانوا قلة ، فلم
يلح لى أى عابر فى الطرق التى كانت تمتد — شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً —
بيضاء ، واسعة ، مقفرة ، وقد شقت جميعاً وسط المستنقعات ، ونمت
الأعشاب وأعواد الغاب كثيفة ، طويلة ، على جانبيها .

ومع ذلك فقد كان من المحتمل أن تسوق المصادفة عابر سبيل ،
ولم تكن بى رغبة فى أن ترانى عين ، خشية أن يعجب الأغراب مما حدا
بى إلى التسكع هكذا عند دليل الطرقات بلا هدف أو غرض ، وقد
يسألنى أحد فلا أستطيع أن أجيب إلا باضطراب يثير الريب والشكوك ،
بعد أن أصبحت ولا شىء يربطنى بالمجتمع الإنسانى .. إذ لم يعد ثمة
صهر أو رجاء يدفعنى إلى حيث يقيم البشر . وما كان من المحتمل أن تساور
أى امرئ يرانى فكرة كريمة أو شعور يجعله يرجو لى خيراً . وإذ لم
يكن لى من أهل سوى الطبيعة — أم الكون — فقد عولت على أن ألجأ إلى
صدرها أنشد فوقه الراحة !

ورحت أضرب فى تلك الأجمات (أراضى المستنقعات) ، ثم يممت
شطر حفرة رأيتها تشق جانباً داكناً . ومضيت أخوض حتى ركبتى فى
حشائشها الحالكة ، وأدور مع منعرجاتها ، حتى عثرت فى ركن خفى
على صخرة شامخة من الجرانيت يعلوها طحلب أسود . فجلست تحتها
ومن حولى آجام عالية ، بينما كانت الصخرة تحمى رأسى ، والسماء من
فوقها .. وانقضت فترة قبل أن أشعر بالهدوء حتى فى ذلك المكان . فقد
كان يساورنى خوف غامض من أن تكون إلى جوارى دابة برية ،
أو أن يكتشف وجودى صياد .. وكنت أرفع رأسى كلما هبت الريح

إذ أخال هبوبها ثوراً مندفعاً نحوى ، وكلما صاح طائر توهمته رجلا ، حتى إذا أيقنت أن مخاوفى لا أساس لها ، وحتى إذا هدأ جأشى بفضل السكون العميق الذى ساد عندما أخذ الليل فى الهبوط ، اطمأنت نفسى . وكنت إلى تلك اللحظة لا أفكر فى شىء ، وإنما اكتفيت بأن أصغى وأرقب والخوف يساورنى . أما عندما اطمأننت فقد عاودتنى القدرة على التفكير والتأمل فتساءلت : « ما العمل ؟ وإلى أين أذهب ؟ » .

أواه !.. ما كان أقسى هذين السؤالين .. فى وقت لم أكن أستطيع فيه أن أعمل شيئاً أو أذهب إلى مكان ما .. فى وقت كان لابد لى فيه من أن أقطع مسافة طويلة على قدمى الكليلتين المرتعشتين قبل أن أصل إلى مكان آهل بالبشر .. فى وقت كان يجب أن أضرع فيه وألحف فى طلب الإحسان حتى أحظى بمأوى .. لم يكن ثمة شك فى أننى سأحتاج إلى اللجاجة والإلحاح لاكتساب عطف المستريبين قبل أن تجد قصتى من يستمع إليها ، وقبل أن تلقى حاجتى من يخف لقضائها !

* * *

● ولمست الحشائش فوجدتها جافة ولكنها دافئة بحرارة الصيف ، وتطلعت إلى السماء فوجدتها صافية الأديم وقد التمع نجم حان فوق حافة الهوة ، وتساقط الندى فى نعومة لطيفة .. ولم تكن هناك نسمة واحدة ، فخيل إلىَّ أن الطبيعة رحيمة طيبة القلب ، وحسبتها قد أشفقت علىَّ ، لأنها تحبنى وتهوانى — أنا المنبوذة المشردة التى لا تتوقع من الإنسان سوى الشك والنبذ والإهانة — فتعلقت بالطبيعة تعلق الطفلة بأمها الرءوم ، وعولت على أن أنزل عليها ضيفة فى هذه الليلة على الأقل ، كما لو كنت

ابنتها — فإن الأم خليقة بأن ترحب بابنتها — ومن ثم فلن تطالبنى بأجر الإيواء .. ولم يكن قد تبقى معى سوى كسرة من الخبز .. فضلة من رغيف كنت قد اشتريته من مدينة مررت بها فى الظهر بآخر بنس كان معى . ولكنى شاهدت ثمراً ناضجاً كالكرز ، يلتمع هنا وهناك خلال الآجام كأنه حبات المسابح ، فجمعت منه حفنة أكلتها بالخبز ، وبذلك خففت حدة جوعى وإن لم يتم إشباعه . ثم أديت صلاة المساء ، وأخذت أبحث عن مكان آخر أرقد فيه .. وكانت الأعشاب كثيفة بجانب الصخرة فدفنت فيها قدمى عندما رقدت ، وحال ارتفاع عيدانها على الجانبين دون أن يغزونى هواء الليل ، ثم ألقيت شالى مزدوجاً على جسمى واتخذت منه غطاء ، كما جمعت بعض العشب فتوسدته . وهكذا رقدت دون أن أشعر فى البداية — على الأقل — بأى برد !

وكان من الممكن أن تكون راحتى تامة ناعمة ، لولا أن الآلام كانت تبرأ قلبى الدامى الذى ظل ينتفض إشفاقاً على سيدى وعلى ما أصابه من مصير ، وينتحب من أجله فى رحمة ورثاء ، ويتلهف عليه مثل طائر مكسور الجناح يحاول عبثاً أن يهتدى إلى عشه . وإذ أمضتنى هذه الأفكار المضنية ، جثوت على ركبتى وقد بلغ الليل عنفوانه وارتفعت الكواكب فى كبد السماء .. كانت الليلة تمتاز بسكون ساج ، صاف ، لامجال معه لخوف !.. ونحن نعلم أن الله فى كل مكان ، ولكن وجوده — سبحانه — يتجلى على صورة أتم عندما تتبدى آياته الجليلة لأعيننا .. وفى تلك الليلة الصحوة ، التى كانت عجلة الكون تواصل فيها دورانها فى صمت هادئ ، تجلت لى لانهائية الله سبحانه ، وقدرته الشاملة ، ووجوده فى

كل مكان . ومن ثم رحت أصلى من أجل مستر روشستر وأنا جاثية على ركبتى . ورفعت عينى المغرورقتين بالدموع ، فرأيت البياض المضىء المتألق الذى يسميه الفلكيون (المجرة) . وإذ تذكرت أوصافه وعدد الأجرام التى تشق الفضاء فى وميض خاطف ، أيقنت بعظمة الله وقدرته على حفظ مخلوقاته ، وازداد اقتناعى بأن لاهلاك للأرض ، ولا لروح من الأرواح التى تعمرها ، إلا بإرادته سبحانه ، ومن ثم حولت صلاتى إلى شكر له .. فإن منبع الحياة هو أيضاً مخلص الأرواح ومنقذها !.. وأوحت لى هذه الفكرة بطمأنينة إلى أن مستر روشستر كان فى أمان ، لأنه من مخلوقات الله ، فلابد من أن يحرسه الله .

وعدت أرقد فى حضن الصخرة ، فما لبث النوم أن أنسانى همومى وأحزانى . ولكن العوز والحاجة والمسغبة عاودتنى فى اليوم التالى .. وكانت العصافير قد غادرت أعشاشها ، وخرج النحل يسعى فى صدر النهار البديع ليجمع الرحيق قبل أن يجف الندى . والصباح قد جمع ظلاله فملأ ضياء الشمس الأرض والسماء ، عندما نهضت ورحت أتأمل ما حولى .. وكم كان اليوم دافئاً بديعاً !.. وما كان أجمل الآجام المترامية ، إذ بدت — تحت الشمس السابغة — كصحراء ذهبية ، فهفت نفسى إلى العيش فيها وعليها .. ورأيت سحلية تجرى على صخرة ، ونحلة منهمكة بين الكرز اللذيذ ، فتمنيت لو كنت سحلية أو نحلة لأضمن الغذاء الطيب والمأوى الدائم فى ذلك المكان !.. ولكننى كنت من البشر ، وبى حاجة البشر ومطالبهم ، ومن ثم لم يكن من سبيل إلى أن يطول مكثى فى مكان لاقضاء فيه لتلك الحاجات والمطالب . ونظرت خلفى إلى الفراش الذى

غادرته .. وكنت يائسة من المستقبل ، فتمنيت لو أن الله كان قد استل حياتى أثناء نومى فخلص جسدى المضنى ، الواهن ، من الصراع الذى كان يرتقبه مع القدر ، وتركه ينحل فى سكينة ويمتزج فى سلام بتربة هذه الفلاة . ولكن الحياة كانت تدب فى كيانى بمطالبها وآلامها وتبعاتها ، فلم يكن بد من أن أقضى تلك المطالب ، وأحتمل تلك الآلام ، وأؤدى تلك التبعات .. ومن ثم سرت فى طريق ، فبلغت (هويتكروس) .. وواصلت السير فى الطريق الممتدة نحو الشمس المشرقة ، الحامية ، التى كانت تتربع السماء ، وسرت طويلاً على غير هدى حتى إذا حسبتنى قد قطعت مافيه الكفاية ، ونال منى التعب وأمضنى ، آثرت أن أستريح ، فجلست على حجر رأيته على مقربة ، ورضخت بلا مقاومة إلى الجمود الذى أربك قلبى وشل أطرافى . وإذا بى أسمع جرساً يدق .. جرس كنيسة !

واستدرت إلى ناحية الصوت ، فإذا بين التلال الرائعة — التى كففت عن ملاحظة صورها ومشاهدها المتعددة منذ ساعة — كوخ ومنارة تشبه المسلة . وإلى يمينى ، كان الوادى كله مليئاً بالمراعى وحقول القمح والغابات ، وقد انساب مجرى مؤتلق متعرج خلال ظلال هذه الخضرة السابغة فى ضياء الشمس . وذكرنى ضجيج عجلات بالطريق الذى أمامى ، فشاهدت عربة قطار مثقلة تصعد التل فى جهد شديد ، وعلى مقربة منها ، رأيت بقرتين وراعيهما ، فأدركت أننى قريبة من الحياة البشرية والعمل البشرى ، وأننى يجب أن أناضل وأكافح فى سبيل العيش كغيرى من البشر !

● ودخلت القرية حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، فرأيت فى نهاية شارعها الوحيد حانوتاً صغيراً أعرض فى واجهته بعض الخبز ، فتحرقت شوقاً إلى رغيف منه أستعيد به بعض نشاطى وقوتى . فقد بات من المتعذر أن أمضى فى سبيلى دون قوت . وعاودتنى الرغبة فى قسط من القوة والحيوية بمجرد أن وجدتنى بين مخلوقات بشرية مثلى . ورأيت أن من المهانة أن يغمى علىّ وأنا فى طريق إلى الكوخ ، ولو أننى كنت أمتلك شيئاً لما ترددت فى أن آخذ بثمنه رغيفاً من هذه الأرغفة . وكان معى منديل من الحرير — ألفه حول عنقى — ثم قفازى ، ولم أكن أدرى ماذا يصنع الناس فى وقت الضيق والعوز ، وأى هذين الشيئين يقبلهما صاحب الحانوت .. بل لعله يرفض الاثنين .. ولكنى قررت أن أجرب فى النهاية !.. ومن ثم دخلت الحانوت فوجدت به امرأة ظنتنى — لثيابى — إنسانة محترمة ، فتقدمت تستقبلنى بحفاوة . واستبد بى الخجل ، وانعقد لسانى فلم أستطع النطق بما أعددته من رجاء . ولم أجرؤ على أن أقدم لها القفاز البالى أو المنديل المتغضن حتى لا تستخفنى . فاكتفيت بأن رجوتها أن تأذن لى بالجلوس لحظة لأخفف من تعبى . وإذ خاب أملها فى أن أبتاع منها شيئاً ، قبلت طلبى ببرود وأشارت إلى مقعد غصت فيه ، وكدت أبكى لولا أننى استنكرت هذه الظاهرة فى غير أوانها ، فحبست دموعى . وما لبثت أن سألتها عما إذا كان فى القرية حائكة أو امرأة تشتغل بالتطريز ، فقالت :

— نعم . توجد اثنتان أو ثلاث ، هن كل ما تتطلبه الحاجة !

وفكرت هنيهة .. كنت مسوقة إلى عمل ، فقد وجدتنى أمام الحاجة

وجهاً لوجه ، وأصبحت فى موقف من لا مورد لها ولا صديق ولا نقود !. كان لابد لى من أن أعمل ، ولكن .. أى عمل ؟.. يجب أن أبحث ، ولكن .. أين ؟.. وسألت السيدة :

— هل تعرفين مكاناً قريباً يحتاجون فيه إلى خادمة ؟

— كلا . لا أستطيع الجزم .

— ما هى أهم المهن فى هذا المكان ؟.. ماذا يعمل معظم الناس ؟

— بعضهم مزارعون ، وكثير يعملون فى مصنع مستر أوليفر لإنتاج الإبر ، وفى المسبك .

— وهل يستخدم مستر أوليفر نساء ؟

— كلا .. إنه يستخدم الرجال .

— وبماذا تشتغل النساء !

وأجابت بأنها لم تكن تدرى .. وبدا أنها سئمت أسئلتى .. وأى حق كان لى — فى الواقع — فى هذا الإلحاف ؟.. وما لبث أن أقبل رجل أو اثنان من الجيران . فأصبح مقعدى مطلوباً ، ومن ثم استأذنت فى الانصراف ، وسرت فى الطريق أنظر يمنة ويسرة إلى المنازل . ولكنى لم أستطع أن أكتشف حجة أو حقاً يخول لى دخول منزل منها ، فواصلت السير أتلكأ حول القرية — أبتعد عنها قليلا لأعود إليها ، وهكذا — نحو ساعة أو أكثر ، حتى نال منى الإرهاق وأمضنى الجوع ، فاتجهت إلى حارة جانبية ، وجلست تحت سياج من النباتات . وقبل أن تنقضى بضع دقائق ، انتصبت على قدمى مرة أخرى ، لأبحث عن شىء .. عن معين أو على الأقل عمن يرشدنى إلى من يعيننى !.. ورأيت فى طرف الحارة



وسألتها بصوت ينبعث من قلب يائس وجسم أنهكته الآلام حتى كاد يغمى عليه : « هل تريدون خادمة ؟ »

منزلا صغيراً جميلا ، أمامه حديقة نظيفة مزهرة ، فتقدمت ووقفت عنده أتساءل : ما الذى يبيح لى أن أقترب من بابه الأبيض وألمس مقبضه اللامع ؟.. وكيف يتلقى سكانه مقدمى ؟.. وبرغم ذلك اقتربت وطرقت الباب ، ففتحته شابة مليحة الوجه والهندام . وسألتها بصوت ينبعث من قلب يائس وجسم أنهكته الآلام حتى كاد يغمى عليه : « هل تريدون خادمة ؟ » فأجابت : « كلا .. لسنا نستعين بخدم » .

— هل بوسعك أن ترشديني إلى مكان أجد فيه عملا ؟.. إننى غريبة بلا معارف هنا ، وفى حاجة إلى أى عمل .

ولكنها لم تكن مبالية إلى أن تفكر من أجلى أو تبحث لى عن مكان . وكان من الطبيعى أن تبدو لها شخصيتى ووضعى محوطين بالشك . لذلك هزت رأسها معربة عن أسفها لأنها لا تملك أن تمدنى بمعلومات فى هذا الصدد . ثم أغلقت الباب الأبيض فى رفق بالغ وتأدب ، فكأنما أغلقت بذلك باب الدنيا فى عينى .. ولو أنها أبقت الباب مفتوحاً لبضع لحظات أخرى ، لاستجديتها كسرة من الخبز ، إذ كانت كبريائى قد تهاوت من عليائها !.. ولم أكن أطيق أن أعود إلى القرية الجاحدة ، حيث لم يلح لى رجاء فى مساعدة ، فآثرت أن أمضى إلى غابة غير بعيدة ، جذبنى إليها ظلها الوارف . ولكنى كنت غاية فى الضعف والوهن ، كما أن غريزتى كانت تردنى إلى التجوال حول البقعة المعمورة ، حيث يحتمل أن تسنح فرصة الحصول على طعام ، فما كان ليهدأ لى بال أو يقر لى قرار مادام الجوع — ذلك النسر الكاسر — يغرس منقاره ومخالبه فى أحشائى !.. لذلك اقتربت من المساكن ، ثم باعدت بينى وبينها ، لأرتد

إليها مرة أخرى ، ثم همت على وجهى مبتعدة ، وفى أعماق شعور يتهرنى قائلا أن لا حق لى فى أن أطالب بشىء ، أو أتوقع أى إشفاق فى هذه المنطقة المنعزلة . وكان المساء يقترب — فى تلك الأثناء — وأنا أهيم ككلب ضال برح به الجوع !.. وفيما كنت أجتاز أحد الحقول ، شاهدت برج كنيسة أمامى ، فأسرعت نحوه . ووجدت بالقرب من فناء الكنيسة — ووسط حديقة — منزلا صغيراً ولكنه حسن البناء ، فأدركت أنه مسكن القس . وتذكرت أن الأغراب الذين يحلون فى مكان لا معارف لهم فيه لينشدوا عملا ، يلجأون أحياناً إلى القس ليوصى بهم ويساعدهم . وإذ كانت مهمة القس أن يساعد — ولو بالنصح — فقد رأيت من حقى أن أنشد هذا النصح ، ومن ثم استجمعت شتات قواى الخائرة ، وسعيت إلى المنزل فطرقت باب مطبخه .. وفتحت الباب امرأة عجوز سألتها عما إذا كان ذلك بيت القس ، فقالت : « نعم » .

— وهل القس هنا ؟

وإذ أجابت بالنفى ، عدت أسألها : « وهل سيعود قريباً ؟ » ، فقالت : « كلا ، لقد رحل » ، فسألتها : « أإلى بعيد ؟ » .

— ليس بعيداً جداً .. لعله على مسيرة أميال ثلاثة ، فقد استدعى لوفاة والده فى (مارش أند) ، حيث يحتمل أن يبقى أسبوعين آخرين !

— هل توجد ربة للبيت ؟

— كلا .. لا يوجد غيرى .. مديرة المنزل .

ولم أطق — أيها القارئ — أن أسألها أن تنتشلنى من الضيق الذى كنت غارقة فى لجته ، ولم أشأ أن أستجدى ، فعدت أزحف من حيث

أتيت ، وأخرجت منديلى من جديد .. ومرة أخرى فكرت فى أرغفة الخبز فى ذلك الحانوت الصغير .. آه ، أنى لى ولو ببعض الفتات !.. ولو بلقمة تهدئ من آلام هذا الجوع !.. ولم ألبث أن يممت بغريزتى شطر القرية ، حيث وجدت الحانوت مرة أخرى فدخلته ، ووجدت أشخاصاً مع المرأة ، ولكنى تجرأت وتوسلت إليها قائلة : « هل تعطيننى رغيفاً فى مقابل هذا المنديل ؟ » :

فنظرت إلىّ فى شك باد ، ثم قالت : « كلا فلست أشترى الأشياء بهذه الطريقة قط ! » .. وكدت أيأس ، فطلبت منها نصف رغيف ، ولكنها رفضت مرة أخرى قائلة : « كيف لى أن أعلم من أين حصلت على هذا المنديل ؟ » .. فسألتها ضارعة : « هل تأخذين قفازى ؟ » ، ولكنها قالت : « كلا . ماذا أصنع بهما ؟ » :

وليس من دواعى السرور — أيها القارئ — أن أورد هذه التفاصيل وقد يرى بعض الناس أن هناك متعة فى ذكر المحن المؤلمة التى تقضت ، ولكنى لا أحتمل اليوم أن أستعيد ذكرى الأوقات التى ألمح إليها ، فإن ما فيها من هوان يمتزج بالعناء الجثمانى فتتألف منهما ذكريات أليمة لا أحب التفكير فيها . ولم ألح باللائمة على أحد من هؤلاء الذين نهرونى بل خيل إلىّ أن هذا هو عين ما كان يجب أن أتوقع دون أن يكون لى فى الأمر حيلة ، فإن المتسول العادى يكون دوماً عرضة للشكوك مهما يكن هندامه حسناً : والواقع أنى لم أكن أسأل إحساناً ، وإنما كنت أنشد عملا ، ولكن .. من الذى يعنى بأن يقدم لى عملا ؟.. ما كان لى — بطبيعة الأمر — أن أرجو ذلك ممن كانوا يروننى لأول مرة ، فلبسوا

يعرفون عن أخلاق شيئاً . ولقد كانت المرأة على حق فى رفضها أن تقبل منديلى فى مقابل خبزها . فربما رابها أمرى ، أو لعلها رأت المقايضة غير مربحة .. ومن ثم أوجز الآن فى الحديث لأنى سئمت الموضوع .

* * *

● وقبيل الغروب ، مررت بمنزل فى مزرعة ، وقد جلس فى بابه المفتوح فلاح يتناول عشاءه من الخبز والجبن . فتوقفت أمامه وقلت : « هل لك أن تعطينى كسرة من الخبز لأنى جائعة جداً ؟ » .. فرمقنى الرجل فى دهشة . ولكنه قطع شريحة كبيرة من رغيفه أعطانيها دون أن ينطق بحرف . وأغلب الظن أنه لم يتصورنى متسولة . وإنما حسبنى سيدة غريبة الأطوار ، اشتهاها رغيفه الأسمر ! .. وما أن ابتعدت عن منزله ، حتى جلست ألتهم الشريحة .

ولم يكن يساورنى أى رجاء فى الحصول على مأوى تحت أحد السقوف . فالتجأت إلى الغابة التى أشرت إليها من قبل ، ولكن ليلتى كانت شقاء ، وراحتى لم تتوفر ، إذ كانت الأرض مبللة والهواء بارداً ، فضلا عن مرور المتطفلين بى أكثر من مرة ، مما كان يضطرنى إلى تغيير مرقدى دون أن يلازمنى شعور بالسلامة والطمأنينة . وأمطرت السماء قبيل الصباح ، واستمر المطر يهطل طوال النهار التالى . ولا تسألنى أيها القارئ أن أسرد عليك تفاصيل ذلك اليوم بدقة ، فقد بحثت عن عمل كما حدث فى اليوم الذى سبقه ، وقوبلت بالجفاء والنفور من جديد ، حتى أشرفت على الموت جوعاً . إذ أننى لم أذق طعاماً فى

ذلك اليوم إلا مرة واحدة . فقد مررت بفتاة عند باب كوخ ، تهم بإلقاء بقية من ثريد بارد أمام خنزير فسألتها : « هل لك أن تعطينى هذا ؟ » .. فحملقت فى وجهى وصاحت : « أماه ! توجد امرأة تريد أن أعطيها هذا الثريد ! » .. فأجابها صوت من الداخل : « حسناً يا صبية .. اعطيها إياه إذا كانت متسولة ، لأن الخنزير لا يريده ! » .

ومن ثم أفرغت الفتاة ذلك العفن المتيبس فى راحتى ، فسرعان ما التهمته فى نهم .

وعندما اعتكر ضياء الغسق ، توقفت عن السير فى طريق راكبى الخيل منعزل ، كنت أتعقبه منذ أكثر من ساعة ، ثم قلت أناجى نفسى : « إن قواى تتخلى عنى ، وأشعر بأن ليس فى وسعى المضى إلى أبعد من ذلك ، فهل سأبيت هذه الليلة أيضاً ؟ .. وهل لابد من أن أتوسد الأرض الباردة المبتلة ، بينما تنهمر الأمطار بهذا الشكل ؟ .. ما أرى أمامى سوى هذا ، إذ من يقبل إيوائى ؟ .. ولكنه أمر مروع نظراً لجوعى وضعفى وبرودتى وعزلتى ، وهذا الأمل المتقوض ، فليس بمستبعد أن ألفظ آخر أنفاسى قبل أن يطلع الصباح .. ولكن لماذا لا أوطن النفس على الموت ؟ .. ولماذا أناضل للاحتفاظ بحياتى التافهة ؟ الواقع أننى كنت أشعر — بل أوقن — بأن مستر روشستر حى يرزق ، وإذن فالموت من الإملاق والبرد مصير لا تقبله الطبيعة باستكانة واستسلام . أواه ، أيتها العناية الإلهية أمدينى بقوتك .. عاونينى واهدينى سواء السبيل !

وراحت عيناى المحملقتان تجوبان فى أنحاء الأرض المعتمة التى

تعلوها السحب ، ووجدتنى قد نأيت عن القرية بحيث غابت عنى معالمها ، ولم يعد بينى وبين التل غير بضعة حقول قليلة ، فآثرت الموت هنالك على الموت فى شارع تطرقه المارة .. بل آثرت أن تنهش الغربان لحمى – إذا وجدت غربان فى تلك الأنحاء – على أن أحين فى كفن وأدفن فى مقابر المتسولين !

وما لبثت أن يممت شطر التل حتى بلغته ، وبقى فقط أن أبحث عن حفرة أرقد فيها وأشعر بأنى مختبئة فيها عن الأنظار ، إن لم أكن فى أمان وسلام . ولكن الأرض كلها كانت مستوية ، ولا تختلف بقاعها إلا فى اللون ، فهى خضراء – بسبب الطحلب والحشائش النامية – فى البطاح والمستنقعات ، أو سوداء حيث لا تحمل التربة الجافة سوى الجدب والموت . واشتدت الظلمة شيئاً فشيئاً ، ولكنى كنت ما أزال أتبين ذلك الاختلاف فى اللون ، وإن بدا كتعاقب الظلال والأضواء ، لأن اللون الحقيقى امحى مع نور النهار .

وظلت عيناى تحومان فوق المرتفعات الكئيبة وحافة الآجام ، ثم تهيم نظراتهما وسط ذلك المنظر الموحش ، إلى أن ظهر ضياء فجأة ، كنقطة بعيدة بين البطاح والحواف ، ففكرت أول ما فكرت فى أن ذلك نوع من السراب ، وتوقعت أن يتلاشى على الفور . ولكنه ظل متقداً فى ثبات واستقرار ، دون أن يتضاءل أو يتزايد ، فتساءلت : « أهى نار أشعلت على التو؟ » .. وترقبت لأتبين ما إذا كانت ستشتد . ولكنها لم تقو ، كما أنها لم تتضاءل ، فحدست أنها ربما كانت مصباحاً فى منزل : ولكن ، فيم يهمنى أمرها وليس فى وسعى أن أصل إليها

– إذا صح حدسى – لأنها كانت جد بعيدة ؟.. بل ما نفعها إذا كانت على ياردة واحدة من مكانى ، ما دمت آنف أن أطرق بابها حتى لا يغلق فى وجهى ؟.. وتهالكت فى البقعة التى كنت أقف عليها ، وأخفيت وجهى فى الأرض ، ورقدت فترة فى هدوء وسكون .. وكانت الرياح تهب فوق التل وفوق ، ثم يتلاشى أنينها بعيداً . وأخذت الأمطار تهطل بسرعة فتبللنى من جديد وتنفذ إلى جلدى ، فلم يسعنى سوى أن أجد فى ذلك الصقيع الذى خلت أنه برودة الموت تسرى فى جسدى :: وما كان ينبغى أن أتأذى منها ، ولكن الجسد الحى ما لبث أن راح يرتعش تحت وخزها ، فما لبثت أن نهضت .

* * *

● وكان الضوء لا يزال يشع هنالك وباستمرار ، خلال المطر ، فحاولت السير مرة أخرى ، ورحت أجر قدمى العليلتين فى بطء نحوه ، فإذا بى أتجه إلى أعلى التل خلال مستنقع واسع كان الخوض فيه مستحيلا فى الشتاء ، بل فى هذه الآونة ، إذ كنا فى منتصف الصيف !.. وسقطت مرتين ، ولكنى نهضت واستجمعت قواى ، لأن هذا الضوء كان الأمل الذى أستقتل فى سبيله ولابد من أن أبلغه !.. فلما عبرت المستنقع شاهدت أثراً لبياض فوق الآجام ، فسرت إليه ، وإذ به طريق يصعد إلى النور الذى كان يضىء من خلال ثغرة وسط مجموعة من أشجار الشربين على ما لاح لى وسط الظلام ، واختفى (نجمى) عندما اقتربت منه ، لأن عقبة حالت بينى وبينه فحجبته عن عينى . ولكنى بسطت يدى أتلمس طريقى فى الظلمة التى كانت أمامى ، إلى أن وصلت إلى

سور من أحجار خشنة . فواصلت تلمسى إلى أن رأيت مرة أخرى شيئاً أبيض يلتمع أمام عينى .. وكان هذا الشيء باباً لمسته فتحرك على مفاصله ، فإذا خلفه – على كل من الجانبين – أيكة قاتمة اللون من أشجار السدر .. ونفذت خلال ذلك الباب وسرت بين الحشائش ، فرأيت شبح منزل أسود منخفض ، طويل ، ولكنى لم أر أثراً للنور الهادئ حولى ، بل كان الظلام مسيطراً . ترى هل هجع سكان الدار ؟.. ووجف قلبي لهذه الفكرة . وفيما كنت أبحث عن باب المبنى ، انثنيت حول زاوية ، فسطع أمامى الضوء الصديق مرة أخرى خلال زجاج نافذة صغيرة ترتفع قدماً عن الأرض وتبدو أصغر من حجمها الحقيقى ، إذ كانت تحيط بها النباتات الزاحفة كالعليق وغيره .

وكان الداخل محجوباً ، فأزحت ستار النباتات المتسلقة عن النافذة وإذ ذاك تجلى المشهد أمامى ، فرأيت حجرة فرشت أرضها بالرمال ، وبها منضدة وبعض مقاعد . وكان المصباح الذى أرشدنى يسطع فوق المنضدة ، فشاهدت على ضوئه امرأة طاعنة فى السن ، خشنة المظهر ، ولكنها غاية فى النظافة ككل شيء حولها ، وقد جلست ترفو جورباً .. وكانت النظرة التى ألقيتها على هذه الأشياء سطحية ، إذ لم يكن بينها شاذ أو غير عادى . ولكن منظراً آخر استرعى انتباهى .. كانت ثمة شابتان بجانب المدفأة ؛ وسط السكينة الوردية والدفء الغامر .. وكانتا سيدتين فى كل شيء ، وقد جلست إحداهما على مقعد متأرجح خفيض والأخرى على مقعد أكثر انخفاضاً ، ودون مساند .. وكانتا فى ثياب الحداد التى زاد سوادها من تألق وجهيهما وتحريهما ، وقد اعتمد

كلب كبير – من كلاب الصيد – برأسه الضخم على ركبة إحدى الفتاتين ، بينما استكانت فى حجر الأخرى قطة سوداء !

ما كان أغربه من مكان هذا المطبخ المتواضع ، إذا قيس بمظهر ساكنائه !.. ترى من تكون الشابتان ؟ ما كان من المحتمل أن تكونا ابنتى هذه المرأة الجالسة بجانب المائدة ، لأنها كانت خشنة جافة ، فى حين أنهما كانتا رقيقتين مهذبتين . والحق أنى لم أر مثل وجهيهما من قبل . ولست أملك أن أصفهما بالجمال الفاتن لأنهما كانتا شديدتى الامتقاع والرزانة .. وعندما كانت الواحدة منهما تنحنى على كتابها ، كانت آيات التفكير العميق الحاد تتجلى على أساريرها . وكان بينهما قائم يحمل شمعة أخرى ، ومجلدين ضخمين طالما رجعتا إليهما ، وكأنهما تقارنان بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا فى أيديهما كما يرجع الناس عادة إلى القاموس ليعاونهم على مهمة الترجمة . وكان مشهداً ساكناً ، فبدا الأشخاص كالأشباح ، وبدت الحجرة السابحة فى أضواء الموقد أشبه بالصورة الرائعة .. أجل . كانت الحجرة فى صمت شامل حتى أنى سمعت تساقط الرماد خلال شبكة المدفأة ، ودقات الساعة فى الركن المظلم . بل لقد خيل لى أنى سمعت ارتطام الإبر فى يدى المرأة العجوز !.. وأخيراً . هتك حجاب الصمت صوت تناهى لأذنى ، إذ قالت إحدى الفتاتين المنهمكتين لرفيقتها : « اسمعى يا ديانا .. إن فرانز ودانيال الشيخ يقضيان الليل معاً . فيروى فرانز حلماً استيقظ منه مضطرباً .. اصغى ! » ثم قرأت شيئاً بصوت خافت لم أدرك منه

كلمة واحدة لأنه كان بلغة يونانية أو ألمانية حتى إذا فرغت من قراءتها قالت : « هذا أسلوب قوى لا أستسيغه ! »

وكانت الفتاة الأخرى قد رفعت رأسها لتصغى إلى أختها، فكررت سطراً مما قرئ وهى تحملق فى نار المدفأة . ولقد عرفت فيما بعد تلك اللغة وذلك الكتاب ، ومع ذلك فإننى لم أفهم معنى لذلك السطر الذى هبط على رأسى أشبه بطرقة على نحاس رنان .. أجل ، كان كالرنين الأجوف الذى لا معنى له ، ثم هتفت الفتاة وعيناها السوداوان العميقتان تأتلقان : حسن !.. حسن !.. إننى أستسيغه !» . وران عليهما الصمت مرة أخرى إلى أن قطعته العجوز وقد رفعت عينيها عن شغل الإبرة :

— هل توجد بلاد يتحدثون فيها بمثل هذه اللغة ؟

— نعم ياحنة :: بلاد أكبر كثيراً من إنجلترا ، لا يتكلمون فيها غير هذه اللغة »

— الواقع أننى لا أدرى كيف يفهم بعضهم بعضاً . فهل إذا ذهبت إحداكما إلى تلك البلاد استطاعت أن تدرك ما يقولون ؟

— لعلنا نعرف بعض ما يقولون وليس كله ، لأننا لا نتكلم الألمانية ولا نستطيع أن نقرأها بغير الاستعانة بقاموس !

— وأية فائدة ترجوانها ؟

— نرجو أن نتولى تدريسها .. أو أن نعلم على الأقل مبادئها — كما يقولون — وعندئذ نحصل على أكثر مما نربحه الآن !

— حسناً . كفى درساً هذه الليلة !

— أظننا كذلك .. إننى — من ناحيتى — متعبة ، وأنت يا مارى ؟

— كل التعب ، فإنه من الصعب أن نرهق أنفسنا فى لغة لا تقدر عليها غير المعاجم !

— هو ذاك ، لا سيما إذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقدة ، وإن كانت رائعة . ترى متى سيعود سانت جون ؟

فقالت وهى تتطلع إلى ساعة ذهبية صغيرة أخرجتها من حزامها : «سيعود بعد قليل ونحن الآن فى تمام العاشرة ، والمطر ينهمر غزيراً سريعاً يا حنة . هل لك أن تطمئنى إلى اشتعال النار فى غرفة الجلوس ؟ » .. فنهضت المرأة وفتحت باباً رأيت من خلاله ممراً ، ثم ما لبثت أن سمعتها تقلب ناراً فى غرفة داخلية وتعود على الفور لتقول : « أواه يا صغيرتى !.. لكم يمضنى أن أذهب الآن إلى تلك الغرفة التى تبدو موحشة بالمقعد الخاوى المودع فى أحد الأركان ! » .. ومسحت عينيها بمرولتها ، كما تبدى الحزن على الفتاتين الرزينتين ، واستطردت حنة تقول :

— ولكنه انتقل إلى مكان أفضل ، ولذا نرجو له أن يعود إلى هنا . فما أظن أحداً حظى بأهدأ من ميتته !

فسألتها إحدى السيدتين : « تقولين إنه لم يذكرنا ؟ »

— لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك ، فإن المنية عاجلته .. كان يعانى بعض التوعك الذى أصابه فى الليلة السابقة دون أن نهتم كثيراً بالأمر . ولما سأله أخوكما مستر (سانت جون) عما إذا كنا نرسل فى طلب إحداكما ، اكتفى بأن ضحك منه ، ثم أصيب فى اليوم التالى بثقل فى رأسه .. كان ذلك منذ أسبوعين تماماً ، ثم مضى لينام

فلم يستيقظ إلى الأبد !.. وعندما دخل عليه أخوكما وجده جثة هامدة . أواه يا طفلتى !.. هكذا انتهى الرجل الكهل بمثل ما ذهبت أمكما من قبل . إنك صورة طبق الأصل منها يا مارى .. أما أنت يا ديانا فتشبهين والدك !

ولكننى كنت أراهما جد متشابهتين . فلم أدر من أين جاءت الخادمة العجوز بهذا الفارق بينهما . فى حين أن كلا منهما كانت جميلة المحيا ، نحيفة القوام ، ترتسم على وجهها آيات الفطنة والذكاء ، وإن كان شعر إحداهن أحلك قليلا من شعر الأخرى ويختلف فى طريقة تصفيفه . فمارى ذات خصلات سوداء مفروقة معقوصة . بينما كانت جدائل ديانا – الأحلك لوناً – تنسدل بحواة على عنقها !

* * *

● ودقت الساعة العاشرة . فقالت حنة : « أعتقد أنكما ترغبان فى تناول العشاء ، وكذلك سيفعل مستر سانت جون بمجرد عودته ! » .. ثم تقدمت لتعد العشاء . فنهضت السيدتان ، ولاح أنهما تهمان بالانتقال إلى حجرة الجلوس . وكنت إلى تلك اللحظة أرقبهما فى اهتمام وقد استهوانى منظرهما وحديثهما ، حتى كدت أنسى موقفى التعس ، ولكن سرعان ما عاودتنى الآلام ورأيت كيف تناقض حالتى اليائسة حالتهما ، وأدركت كيف يستحيل أن أجعل سيدتى هذا المنزل يهتمان بأمرى وأحملهما على تصديق حاجتى وويلاتى وأغريهما بأن تريحانى من عناء التشرد . وعندما تحسست طريقى إلى الباب وطرقته فى تردد ، شعرت بأن الأمل الأخير لا يعدو أن يكون وهماً باطلا . وفتحت حنة

الباب . فلما رأتنى على ضوء الشمعة التى تحملها ، سألتنى فى صوت مشدوه : « ماذا تريدين ؟ » فأجبتها : « هل أستطيع التحدث إلى سيدتيك ؟ »

– يحسن أن تخبرينى بما تريدينه منهما . من أين جئت ؟

قلت : « إننى غريبة ! » .

فأجابت متسائلة : « وماذا تريدين فى مثل هذه الساعة ؟ »

– أريد أن أبيت ليلتى فى حجرة خارجية أو فى أى مكان وأريد كسرة من الخبز .

وبدأ الإحساس بالشك – الذى كنت أخشاه – يظهر على وجه حنة ، فقالت بعد صمت قصير : « سأعطيك كسرة من الخبز ولكننا لا نستطيع أن نؤوى غريبة » .

فهتفت ضارعة : « ألا دعينى أتحدث إلى سيدتيك ! »

– كلا .. فما الذى تصنعانه لك ؟.. ما كان يجمل أن تتجولى الآن على هذه الصورة التى لا تليق إطلاقاً .

– ولكن أين أذهب إذا طردتنى ؟ ماذا أصنع ؟

– إنك أدرى بلا شك بالمكان الذى تذهبين إليه ، وبما تصنعينه !. إنما حذار من الإقدام على أى شر . خذى هذا البنس واذهبى !

– إن البنس لا يستطيع أن يطعمنى ، ولا قوة لى على السير أكثر من هذا . لا تغلقى الباب .. أواه لا تغلقيه بالله عليك !

– بل يجب أن أفعل لأن المطر ينهمر .

– أخبرى السيدتين . دعينى ألقاهما !؟

— كلا لن أفعل . لأنك لست أهلا للقائهما ، وإلا ما أحدثت هذه الجلبة . اذهبي من هنا !

— ولكني أموت إذا طردتني :

— لا ضير عليك !.. أخشى أن تكون لك أغراض شريرة ، هي التي تجعلك تحومين حول بيوت الناس في مثل هذا الوقت من الليل فإذا كان ثمة رفاق لك من اللصوص أو من إليهم يتربصون على مقربة، فخير لك أن تخبريهم بأننا لسنا وحيدات في البيت ، بل إن معنا سيداً، ولدينا كلاب وبنادق :

وهنا أوصدت الخادم الأمينة — التي لم يلن لي قلبها — باب المنزل وأحكمت الرتاج . وكانت هذه هي الطامة الكبرى ، فجاش الألم في قلبي ومزقه بعد أن استبد بي اليأس والقنوط . وبلغ بي الإعياء أن غدوت لا أقوى على التحرك خطوة واحدة . فتهالكت على عتبة الباب المبتلة ، أتوجع وأعتصر يدى وأبكي في ألم ممض . أواه .. هذا شبح الموت !.. أواه ، هذه ساعتي الأخيرة تدنو رهيبة مروعة!.. وا أسفاه على هذه العزلة ، وهذا البعد عن أبناء جنسي !.. ولم تزايلني فقط (مرساة) الأمل ، وإنما تلاشت كذلك (قاعدة) الجلد والثبات ، لحظة على الأقل ، سارعت بعدها أحاول استعادة آخر بارقة من الرجاء وصحت : « لا معدى من الموت ! إنى أومن بالله فلأنتظر إرادته في سكون وهدوء ! »

ولم تمر هذه الكلمات بخاطرى فحسب ، ولكنني نطقت بها ، ثم كتمت شقائي في قلبي ، وحاولت إكراهه على البقاء هنالك في صمت

وسكون ؛ وارتفع إذ ذاك صوت قريب يقول : « لابد للناس جميعاً من الموت ، ولكنهم جميعاً ليسوا مسوقين لأن يلقوا مثل هذا المصير البطيء السابق للأوان ، والذى يمكن أن تلقيه أنت إذا هلكت هنا من الإملاق ! » :

فارتجفت للصوت الذى لم أكن أتوقعه ، وسألت : « من أو ماذا يتكلم ؟ » .. وكنت عاجزة عن توقع أى أمل في مساعدة ، ولكنني رأيت شبحاً أسود كظلام الليل ، وعجز نظرى — الذى ضعف — من تبينه ، ثم طرق الوافد الجديد الباب طرقاً عالياً طويلا ، فصاحت حنة : « أهذا أنت يا مستر سانت جون ؟ »

— نعم . نعم . افتحى بسرعة !

— لا شك أنك تقاسي البلل والبرودة في مثل هذه الليلة الموحشة . ادخل فإن أختيك في غاية من القلق عليك .. وأعتقد أن في هذه البقعة قوماً من الأشرار . فقد جاءت متسولة .. إنها لم تذهب بعد، فها هي ذى ترقد هنا ! قومي ! يا للعار !.. اذهبي من هنا !

— صه يا حنة ، فلدى ما أقوله لهذه المرأة . لقد قمت بواجبك بطردها ، فدعيني أقوم بواجبي بإدخالها ، فقد كنت على مقربة وسمعت كل ما دار بينكما من حديث ، وأعتقد أن هذه حادثة غير عادية يحتاج إلى أن أدرسها . انهضي يا شابة وتقدميني إلى المنزل !

فأطعته في عناء ، وما لبثت أن وجدتني داخل المطبخ النظيف المشرق أرتجف ، وقد أخذ رأسي يدور ، ومن حولي مشهد في الخارج

غاية فى الوحشة وقد عصفت به الطبيعة ، بينما كانت السيدتان وأخوهما يحملقون فى . ثم سمعت من يسأله : « من هذه الفتاة يا سانت جون ؟ »

— لا أدرى . لقد وجدتها عند الباب !

وقالت حنة : « إنها تبدو شاحبة » .

— شاحبة كالصلصال أو كالموت ، وتكاد تهوى من الإعياء فدعيها تجلس .

* * *

● والواقع أن رأسى كان يسبح ، وسقطت ليتلقفنى أحد المقاعد . وكنت ما أزال مستجمعة حواسى ، وإن عجزت عن الكلام إذ ذاك . فقال الشاب : « لعل جرعة من الماء تعيد إليها قواها يا حنة ، فائتيها ببعض المياه . ولكنها منهوكة غاية الإنهاك وغاية فى الهزال والامتقاع! » .

— إنها مجرد شبح !

— هل هى مريضة أو هو الجوع برح بها فحسب !

— أظنها تتضور جوعاً . هل هذا لبن يا حنة ؟.. هاتيه وهاتى كسرة من الخبز .

أما ديانا — التى عرفتها بجدائلها الطويلة التى حجبت عنى المدفأة — عندما انحنت علىَّ — فقد قطعت شريحة من الخبز غمستها فى اللبن ووضعتها فى فمى . وكان وجهها قريباً منى فشاهدت عليه آيات الرثاء كما لمست حنانها فى أنفاسها الراكضة . وقالت لى بكلمات بسيطة تشف عن نفس العواطف : « حاولى أن تأكلى ! » .. ورددت مارى الرجاء فى رفق قائلة : « أجل ، حاولى ! » .. ثم رفعت قلنسوتى المبللة كما

رفعت رأسى ، فتناولت ما قدم إلىَّ فى ضعف ثم فى لهفة . وقال أخوهما : « لا تعطيها كثيراً فى البداية ، فقد تناولت ما فيه الكفاية ! » .. ثم سحب فنجان اللبن وطبق الخبز ، ولكنها قالت : « بل أعطها مزيداً يا سانت جون . انظر إلى الضراعة المتجلية فى عينيها ! » .. فقال : « يكفى الآن ما تناولته يا أختاه . جربى ما إذا كانت تقوى على الكلام، سائليها عن اسمها » ..

وشعرت بأنى أستطيع الكلام فقلت : « إن اسمى : جين اليوت ! » . فقد انتحلت هذا الاسم حرصاً منى على ألا يكتشف أحد حقيقتى .

— وأين تقيمين ؟.. أين أصدقاؤك ؟

ولزمت الصمت ، فعاد يسألنى : « هل فى الوسع أن نرسل فى طلب واحد من معارفك ؟ » .. ولكننى هززت رأسى . فقال : « ماذا لديك من القول عن نفسك ؟ » :

وشعرت بأنى وقد عبرت عتبة هذه الدار ، وأصبحت مع أصحابها وجهاً لوجه ، لم أعد المنبوذة الشريدة التى تنكرت لها الدنيا . ولذلك جرؤت فخلعت عنى ثوب المتسولة المستجدية ، واستعدت أطوارى وأخلاقى الطبيعية ، وبدأت أعرف نفسى مرة أخرى . فلما سألنى مستر (سانت جون) أن أروى قصتى — التى كان ضعفى إذ ذاك يحول دون روايتها — أجبته بعد فترة وجيزة : « لست أقوى الليلة على ذكر التفاصيل يا سيدى » . فقال : « وما الذى تتوقعين منى أن أعمله من أجلك ؟ » . فأجبت : « لا شىء ! » .

وكانت قوتى لا تكفى لغير الإجابات المقتضبة ، فقالت ديانا : « أتعنين أننا قدمنا لك كل ما كنت تحتاجين إليه من معونة ، وأن فى وسعنا أن نبعث بك الآن إلى الأجام والليل المطير ؟ ».. فتطلعت إليها ، وإذا هى — كما بدت لى — ذات محيا عجيب يتميز بالقوة والطيبة ، فتشجعت فجأة ، وأجبت عن نظرتها الحنون بابتسامة ، شفعتها بقولى : « سأضع فيك ثقتى .. لو أننى كنت كلبة ضالة بلا صاحب ، ما طردتنى من منزلك الليلة !.. لست خائفة ، فافعلى ما شئت بى ولأجلى ولكنى أسألك الصفح إذا عجزت عن الكلام الطويل ، إذ أن أنفاسى قصيرة وأشعر عند الحديث بتشنج يضايقنى ».

وران السكون على الثلاثة .. وأخيراً قال مستر سانت جون : « دعيها يا حنة تجلس هنالك الآن ولا تلقى عليها أسئلة ، وبعد عشر دقائق أعطيها بقية الخبز واللبن . هيا بنا يا مارى وأنت يا ديانا إلى غرفة الجلوس لنتحدث فى الأمر ».. ثم انسحبوا ، وسرعان ما عادت إحدى السيدتين — ولم أدر أيتهما ، إذ كنت فى شبه غيبوبة لذيذة ، وأنا جالسة بجوار النار البهيجة — فألقت على حنة بعض تعليماتها بصوت خافت ، وما لبثت أن ارتقيت الدرج بمعاونة الخادمة إلى حيث خلعت ثيابى المبللة .. وتلقفنى فراش دافئ جاف ، فشكرت الله وقد غمرنى — وسط الإنهاك الشديد — ضياء الفرحة الشاكرة ، ثم نمت !

• • •

الفصل التاسع والعشرون

● إن ذكرى حوالى ثلاثة أيام وليالى — بعد ذلك — تقبع مبهمة فى ذهنى .. وبوسعى أن أذكر بعض الأحاسيس التى خامرتنى فى تلك الفترة ، ولكننى لا أذكر من الأفكار الواضحة المعالم إلا قليلا ، كما أننى لم أقم بعمل ما !.. وكنت أدرك أننى فى حجرة صغيرة وسرير ضيق .. وخيل إلىّ أننى كنت أكبر من ذلك السرير ، وقد رقدت عليه دون ما حراك ، وكأننى تحولت إلى صخر : وكان انتزاعى منه يعنى قتلى . ولم أفطن إلى مرور الزمن .. لم أكن أعى تطور الصباح إلى ظهيرة ، ولا تحول الظهر إلى مساء ، ولكننى كنت أشعر بأهل الدار عندما كانوا يدخلون الغرفة أو يغادرونها . بل كان فى وسعى أن أميز شخصياتهم ، وأن أفهم ما كانوا يقولون إذا وقف المتكلم على مقربة منى ، ولكنى لم أكن أستطيع أن أجيب .. كان انفراج شفتى أو تحريك أطرافى ضرباً من المستحيل ، وكانت (حنة) — الخادم — أكثر أهل البيت تردداً على غرفتى ، فكان مقدمها يزعجنى ، إذ كنت أشعر بأنها راغبة فى إقصائى ، وأنها لم تفهمنى ولا قدرت ظروفى ، ومن ثم كانت متحاملة علىّ . أما ديانا ومارى فكانتا تأتيان إلى حجرتى مرة أو اثنتين فى كل يوم ، فتتهامسان بجانب فراشى ، بمثل ما يلى من عبارات :

« لقد أحسنا كثيراً بإيوائها ! » .. « نعم وإلا عثر عليها فى الصباح جثة هامدة بجوار الباب ، لو أنها تركت فى الخارج طوال الليل : ترى

أى عناء قاسته ؟ » .. « لابد أنها قاست متاعب عجيبة فيما أعتقد ، فيا لها من مشردة بائسة هزيلة شاحبة ! » .. « أغلب الظن أنها متعلمة كما يبدو من تصرفاتها وحديثها . فإن لهجتها جد مهذبة ، وملابسها التى خلعتها جميلة ، وليست بالية تماماً ، وإن كانت ملوثة بالطين ومبللة » .. « إن لوجهها طابعاً فذاً ، برغم أنه هزيل منهوك ، وبوسعى أن أتصورها ذات سحنة مقبولة بمجرد أن تسترد صحتها وتنتعش » .

ولم ألمس قط فى حديثهما المتبادل ما يدل على ما أغدقا وأخوهما علىّ من كرم الوفادة ، أو ما يوحى بالشك أو النفور منى ، مما أثلج صدرى .. أما مستر (سانت جون) ، فلم يزرنى سوى مرة واحدة نظر فيها إلىّ ، ثم قال : إن سباتى العميق كان نتيجة رد فعل لتعب شديد طال أمده ، وأن لا حاجة تدعو إلى دعوة طبيب ، لأنه كان واثقاً من أن الطبيعة سوف تتكفل بى على أكمل وجه إذا تركت لحالى ، وأكد أن كل أعصابى قد أرهقت بحيث أصبح جميع جهازى العصبى فى حاجة إلى الاستجمام بعض الوقت ، وأننى لست مريضة على الإطلاق وقال إنه يعتقد أننى إذا ما بدأت أسترد قوتى ، فلن ألبث أن أستكمل شفائى سريعاً . وعبر عن آرائه هذه فى كلمات قلائل ، وبصوت خافت ، ثم توقف لحظة وعاد يقول بلهجة الرجل الذى لم يعتد كثيراً أن يطيل التعليق : « إن لوجهها سحنة لا تكاد تكون عادية ، ولكنها ليست بكل تأكيد على شىء من الابتذال أو الخسة » .

فأجابته ديانا : « حقاً .. ولا أكتمك أن قلبى يحنو على هذه الصغيرة البائسة ، وبودى لو نقوى على مساعدتها مساعدة دائمة » ..

وكان رده : « ليس ذلك محتملا ، وسوف تجدين أنها سيدة شابة وقع بينها وبين أهلها سوء تفاهم ، فغادرتهم فى تهور ، وقد نوفق فى أن نعيدها إليهم ما لم تكن عنيدة ، ولكنى أقرأ على وجهها سطوراً تدل على القوة مما يجعلنى أوقن من ضآلة أخلاقها » .. ثم استرسل يقول : « إنها تبدو عاقلة ولكنها ليست جميلة ! » :

— إنها غاية فى المرض يا سانت جون .

— مريضة أو غير مريضة فستظل امرأة غير جميلة ، إذ ينقص أساريرها التناسق .

* * *

● وفى اليوم الثالث تحسنت حالتى ، وفى الرابع استطعت الكلام والتحرك فى فراشى ، والجلوس فيه ، والتقلب فى أرجائه . وجاءتنى حنة ببعض الحساء والخبز المحمص لغذائى فيما أعتقد ، فأكلت بشهية . وكان طعاماً جيداً خالياً من ذلك الطعم المحموم الذى كان يسمم ما كنت أبتلعه من قبل . وعندما غادرتنى ، أحسست بقوة ونشاط نسبيين ، ثم لم ألبث بعد قليل أن شعرت بميل إلى التحرك ومغادرة الفراش ، ولكن ماذا أرتدى ؟ .. لم يكن لدى سوى ملابسى المبللة القذرة ، فشعرت بالخجل من أن أظهر أمام من أحسنوا إلى بهذه الثياب . ولكنهم وفروا على هذا الشعور المهين ، إذ وجدت ثيابى كلها نظيفة وجافة على مقعد بجوار الفراش ، بينما كان فستانى الحريرى الأسود معلقاً إلى الجدار وقد أزيلت عنه أقذار المستنقع ، وسويت التغضنات التى كانت به فبدا لطيفاً كل اللطف .. حتى حذائى وجوربى نظفت بحيث أصبحت



وجاءتنى (حنة) ببعض الحساء والخبز المحمص لغذائى فيما أعتقد ، فأكلت بشهية

لائقة : وكذلك أعدت فى حجرتى وسائل الاغتسال ، وزودت بمشط وفرشاة للشعر ، فما لبثت بعد عناء والتماس للراحة فى كل خمس دقائق، أن تمكنت من ارتداء ملابسى التى تهدلت على كتفى بسبب ما أصابنى من هزال، ولكنى سترت هذا العيب بشالى، وهكذا استعدت مظهرى النظيف المحترم ، وتخلصت من الأقذار التى علقت بى ، ومن الفوضى التى أكرهها بطبيعتى وأشعر بأنها تحط من قدرى ، ثم هبطت الدرج الحجرى زاحفة ، وأنا أستعين بالدرابزين حتى بلغت ردهة ضيقة خفيضة السقف ، وسرعان ما وجدت طريقى إلى المطبخ ، فإذا به يعبق بعبير الخبز الطازج ؛ وقد أفعم بدفء نار مستعرة :

وكانت حنة تخبز . ومن المعروف أن النفور والتحامل يصعب اقتلاعهما من القلب الذى لم يخصب التعليم تربته ، إذ أن جذورهما تتغلغل هنالك قوية كالأعشاب التى تنمو بين الأحجار . وقد كانت حنة باردة جافة معى فى أول الأمر ولكنها بدأت أخيراً ترق بعض الشىء، فلما رأتنى أدخل عليها فى ثياب نظيفة مهندمة ، ابتسمت وقالت: « ماذا ؟!.. هل نهضت من فراشك ؟.. إذن فأنت أحسن حالا ، وفى وسعك إذا أردت أن تجلسى فى مقعدى بجانب المدفأة » .. وأشارت إلى المقعد المتأرجح ، فجلست فيه ، بينما انهمكت هى فى عملها ، وهى ترمقنى من طرف خفى بين وقت وآخر ، ثم تناولت بعض أرغفة من الفرن واستدارت إلىّ تسألنى فى جفوة وغلظة : « هل كنت تتسولين قبل أن تأتى إلى هنا ؟ » .. فتولانى الغيظ لحظة . ولكنى سرعان

ما تذكرت أن الغضب لا يجدى . وأنى فعلا كنت أبدو كالمتسولة ، فأجبتها فى هدوء لا يخلو من بعض الحزم :

– إنك تخطئين إذا حسبتنى متسولة . فأنا أبعد عن التسول بعدك وبعد سيدتيك عنه .

فسكتت لحظة ثم قالت : « لست أفهم .. ألست بلا دار ولا نحاس ؟ » .

– إن الحاجة إلى الدار والنحاسْ – وأظنك تعنين به المال – لا تكفى لأن تجعل الإنسان متسولا كما تعنى كلماتك .

فسألتنى على الفور : « أمتعلمة أنت ؟ » .

فأجبت : « أجل . وإلى درجة كبيرة » .

– هل دخلت مدرسة داخلية ؟

– نعم ، وقضيت بها ثمانى سنوات .

فاتسعت عيناها وقالت : « إذن فلماذا لا تستطيعين إعالة نفسك ؟ »

– لقد كنت أعول نفسى وسأعولها مرة أخرى .

ولما أخرجت سلة من الكرز قلت : « ما الذى تعتزمين صنعه بهذه الفاكهة ؟ » ، فأجابت : « فطائر ! » .. فقلت : « هاتيها لأعنى بإقصاء الثمار غير الطيبة » . وإذ أجابت : « كلا .. لا أريد أن تعمل شيئا » ، قلت لها : « بل يجب أن أقوم بعمل ما . هاتى الفاكهة ! » .

وقبلت . فجاءتنى بمنشفة نظيفة نشرتها على ثوبى حتى لا يتسخ ، وهى تقول : « أرى من يديك أنك لم تمارسى أعمال الخدم من قبل . فهل كنت تمارسين الحياكة ؟ » .

– كلا .. لقد أخطأت الحدس . لا تهتمى بما كنته . ولا تشغلى بالك بى ولكن ما اسم المنزل الذى نحن به ؟

– بعضهم يسميه (مارش آند) والبعض الآخر يسميه (مور هاوس) .

– والسيد الذى يقيم هنا .. أيدعى مستر سانت جون ؟

– لا ، إنه لا يقيم هنا ، ولكنه جاء لبعض الوقت . أما مقامه ففى أبروشته بمورتون .

– تلك القرية التى تبعد بضعة أميال عن هنا ؟

– وإذ قالت : « نعم » ، عدت أسألها : « وماذا يعمل ؟ » . فأجابت : « إنه قس » .. وتذكرت رد مديرة المنزل العجوز فى بيت راعى الكنيسة ، عندما طلبت إليها أن أقابل القسيس . فقلت : « إذن فهذا بيت أبيه ؟ » .

– نعم كان مستر ريفرز الشيخ يقيم هنا ، ومن قبله والده وجده وجده الأكبر .

– إذن فاسم هذا السيد هو مستر سانت جون ريفرز ؟

– نعم . ويبدو أن (سانت جون) اسمه عند التعميد .

– وهل تدعى شقيقتاه ديانا ومارى ريفرز ؟

وأجابت : « هو ذاك » . فعدت أسألها : « وهل توفى أبوهم ؟ » فقالت : « منذ ثلاثة أسابيع » . وإذ ذاك سألتها : « أو ليست لهم أم ؟ » فأجابت : « لقد توفيت منذ سنوات » .

– وهل قضيت مع الأسرة طويلا ؟

– قضيت هنا ثلاثين عاماً ربيت خلالها الإخوة الثلاثة !

– هذا يدل على أنك خادم أمينة مخلصة ، وسأفضى إليك بالكثير وإن بلغت بك السماجة أن دعوتنى متسولة !

فحملقت فى وجهى مرة أخرى وهى مشدوهة ثم قالت : «أعتقد أننى كنت مخطئة فيما خطر لى عنك ولكن المظاهر خداعة فاعذرينى !»؛ ولكننى استأنفت حديثى بشىء من الحدة والصرامة : «ومع ذلك فقد شئت أن تطردينى عن بابك فى ليلة ما كان ينبغى أن تطردى فيها كلباً من الكلاب».

– كانت قسوة منى ، ولكن أى حيلة للإنسان فى ذلك وقد كان تفكيرى فى الفتاتين أكثر منه فى نفسى ، إذ ليس هناك من يهتم بهاتين المخلوقتين المسكينتين غيرى ، ولذلك أبدو على شىء من الحدة !

وأخذت لحظة إلى صمت متجهم فقالت : «أرجو ألا تقسى فى الحكم علىّ !»

– بل إننى أقسو ، لا لأنك أبيت إيوائى ، أو ظننتنى محتالة ، وإنما لأنك عيرتنى منذ قليل بأننى لا أملك داراً ولا مالا ، مع أن العالم زاخر بالفقراء والمعوزين ممن هم على شاكلتى . ولو أنك كنت تقية لما اعتبرت الفقر جرماً !

– لن أفعل ذلك بعد الآن . وهكذا حدثنى مستر سانت جون ، ولذلك أدركت غلطتى . وقد غيرت الآن فكرتى.. إنى لأراك مخلوقة لطيفة مستقيمة .

– حسناً . لقد صفحت عنك فصافحينى :

فوضعت يدها الخشنة المكسوة بالدقيق فى يدى ، وأشرق وجهها الجاف بابتسامة طيبة ، وصرنا بعد ذلك صديقتين :

* * *

● وكان من الجلى أن حنة مغرمة بالكلام والثرثرة ، فلما أخذت أفرز الثمار وانهمكت بدورها فى إعداد العجين للفطائر ، راحت تقص علىّ بالتفصيل كل شىء عن المرحومين سيدها وسيدتها ، وعن الفتاتين .. فقالت : إن مستر ريفرز الشيخ كان رجلا بسيطاً ، ولكنه سيد من أعرق العائلات ، وأن ضيعة (مارش آند) ملك لهم منذ كانت منزلا عتيقاً شيدته العائلة منذ مائتى سنة ، ولا يقارن بالبهو الكبير فى قصر مستر (أوليفر) فى (مورتون) . ومع ذلك فقد كان والد (بيل أوليفر) صانع إبر متجول ، فى حين كان آل ريفرز من السادة ملاك الأراضى منذ عهد الملك هنرى ، كما يستطيع كل امرئ أن يرى بنفسه فى سجلات كنيسة (مورتون) . على أن السيد لم يكن يمتاز بغير ولعه الجنونى بالصيد والزراعة وما إليهما ، أما زوجته فكانت على النقيض ، تشغف بالقراءة والاطلاع ، وقد أخذ أولادها عنها ذلك الشغف ، فلم يكن فى تلك الأصقاع — ولن يأتى — من يفوق ثلاثتهم علماً ، إذ كانوا يدرسون منذ نعومة أظفارهم ، وقد اختار كل منهم مستقبله . فلما كبر مستر سانت جون ، تعلم وأصبح كاهناً . أما الفتاتان ، فقد اختارتا عندما أتمتا الدراسة ، أن تصبحا مربيتين ، إذ أخبرتاها بأن أباها فقد شطراً كبيراً من ثروته منذ سنوات — إثر إفلاس رجل كان قد ائتمنه على ماله — ومن ثم لم يعد فى وسعه أن يخلف لهما ثروة ، فكان عليهما

أن تكسبا عيشهما .. ولم تكونا تقيمان فى الدار إلا لفترات قليلة — منذ زمن — وما جاءتا أخيراً إلا لتمكثا بضعة أسابيع . بعد موت أبيهما ، ولكنهما كانتا تحبان (مارش آند) و (موورتون) والمستنقعات والتلال المحيطة بهما .. وقد زارتا لندن وغيرها من المدن الكبيرة وإن ظلتا تؤكدان أن لا شيء يعدل عندهما مسقط رأسيهما . وهما متحابتان : لم يقع بينهما خلاف قط . ولا تكاد توجد للأسرة شبيهة فى التضامن !

وإذ انتهيت من مهمتى فى تنقية الكرز . سألتها عن السيدتين وأخيهما . فقالت : « لقد ذهبوا يتمشون إلى قرية (موورتون) وسيعودون قبل نصف ساعة لتناول الشاى » .. والواقع أنهم حضروا قبل الموعد الذى قدرته حنة . فدخلوا المنزل من باب المطبخ . ولما رآنى مستر سانت جون اكتفى بأن حنى رأسه ثم واصل السير . أما السيدتان فقد توقفتا . وأعربت لى مارى عن ابتهاجها لرؤيتى بخير وقادرة على النزول بينما تناولت ديانا يدى ثم هزت رأسها وقالت : « كان ينبغى أن تنتظرى حتى أسمح لك بالنزول . فإنك ما زلت شاحبة ناحلة يا مسكينة ! » .

وكان لها صوت جميل الوقع فى أذنى . فكأنه هديل الحمام . ونظرة أحسست ببهجة كلما التقت بنظرتى . ووجه ملىء بالسحر فى عينى . وكذلك كانت أسارير مارى تنم عن نفس الذكاء والجمال ، ولكنها كانت تبدو أكثر تحفظاً . كما كان حديثها يتسم بحب السيطرة والسلطان ، ويدل على مضاء العزيمة . وكنت أجد بطبيعتى راحة فى الخضوع لمثل هذا النفوذ ، وفى أن أنثنى للإرادة الماضية ، فيما يسمح به ضميرى وترضى عنه كرامتى .

واسترسلت ديانا تقول : « وماذا تفعلين هنا ؟ ليس هذا مكانك .. إننى ومارى نجلس فى المطبخ أحياناً ، لأننا نحب ونحن فى المنزل أن نتحرر وألا نتقيد بشيء ، ولكنك زائرة ، فيجب أن تذهبى إلى غرفة الجلوس » . فقلت : « بل إننى مغتبطة هنا » ، ولكنها قالت : « لا غبطة على الإطلاق مع صخب حنة ودقيقها الذى يتناثر عليك ! » . وتدخلت مارى فى الحديث قائلة : « ثم إن النيران هنا أشد من أن تحتمليها » ، فأردفت أختها تخاطبنى : « بالتأكيد ، هيا ، وكونى مطيعة ! » .

وأنهضتنى وهى ما زالت ممسكة بيدى ، فقادتنى إلى الغرفة الداخلية حيث أجلستنى على أريكة وقالت : « امكثى هنا ريثما نخلع ثيابنا ونعد الشاى فإنه ليحلو لنا ونحن فى دارنا هذه أن نهيئ وجباتنا بأنفسنا عندما نحب ، أو عندما تكون حنة مشغولة بالخبز أو بصنع الجعة أو الغسيل أو الكى ! » .. ثم أغلقت الباب لتتركنى وحيدة مع مستر سانت جون الذى كان يجلس فى مواجهتى منصرفاً إلى كتاب أو صحيفة كانت فى يده ، فرحت فى أول الأمر أتأمل الحجرة ثم أخذت أتأمل شاغلها :

كانت حجرة الجلوس صغيرة بسيطة الرياش ، ولكنها نظيفة أنيقة بمقاعدها القديمة اللامعة ، ومنضدة من خشب الجوز أشبه بالمرآة المصقولة ، وبضع صور عجيبة عتيقة لرجال ونساء من الزمن السالف وصوان ذى أبواب زجاجية يحتوى على بعض الكتب وطاقم قديم من الخزف . ولم أر فى الحجرة زينة لا داعى لها ، ولا شيئاً من الرياش الحديث سوى صندوقين ومكتب نسوى من خشب الورد ، قام بجانب منضدة بجوار الحائط . وهكذا كان كل شيء فى الغرفة — بما فى ذلك

البساط والستائر – ينم لأول وهلة عن حسن التنسيق والاختيار :

وكان مستر سانت جون ساكناً فى جلسته سكون الصور المعلقة إلى الجدران ، وقد تسمرت عيناه على الصفحة التى كان يطالعها ، وأطبقت شفتاه ، مما مكننى من تفحصه بسهولة . ولو أنه كان تمثالا وليس إنساناً لكانت مهمتى أسهل وأيسر : كان شاباً بين الثامنة والعشرين والثلاثين ، طويل القامة ، نحيل الجسم ، يجتذب وجهه النظر لأنه كان يشبه الوجه الإغريقى فى نقائه وصفائه وأنفه المستقيم . كما كان له فم وذقن من أثينا . والواقع أنه قل أن تجد وجهاً إنجليزياً أقرب من وجهه إلى النماذج القديمة . ومن ثم فقد كان على حق حين صدم لعدم تناسق أساريرى وهو على هذه الملاحة . إذ كانت عيناه واسعتين زرقاوين ، وكانت أهدابه سوداء ، وكان جبينه كالعاج تتدلى عليه خصلات من شعره الجميل فى إهمال .. أليس هذا رسماً دقيقاً لمعالمه ، أيها القارئ ؟ . ولكن ، من الذى لا يؤثر – بأوصاف كهذه – فى نفس أوتيت مثل طبيعة رقيقة طيعة سهلة القياد على جانب كبير من الوداعة ؟! وبالرغم من هدوئه فى جلسته ، فقد كان ثمة شىء حول خياشيمه وفمه وجبينه يدل – فيما بدا لى – على معالم توحى بالقلق ، أو ضيق النفس والتلهف .. ولكنه لم يوجه إلىّ كلمة أو نظرة واحدة ، حتى عادت شقيقتاه : وجاءتنى ديانا بكعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن ، وهى تقول :

– كلى هذه الآن لأنك جائعة بلا شك ، فقد أخبرتنى حنة أنك لم تتناولى شيئاً بعد الإفطار سوى بعض الثريد .

ولم أرفض ، لأن معدتى كانت قد تيقظت وتاقت إلى الطعام :

وعندئذ أغلق مستر ريفرز كتابه واقترب منى ثم راح – وهو يتخذ لنفسه مجلساً – يتفرس فىّ بعينيه الزرقاوين الجميلتين ، وقد ارتسمت فيهما استقامة غير متكلفة وعزم نافذ راسخ ، مما دلنى على أنه لم يكن يتحاشى النظر إلى الغريبة عن الدار تهيباً وإنما عن قصد وعمد . وما لبث أن قال : « إنك جد جوعانة ! » . فأجبت : « نعم يا سيدى .. إن من عادتى – وكانت دائماً عادتى بالسليقة – أن أقابل القلة بالاقتصاد ، والوفرة بالإقبال ! » .

– كان خيراً لك أن تضطرى بسبب الحمى البسيطة إلى الامتناع عن الأكل ثلاثة أيام ، إذ كان هناك خطر من تلبية نداءات الجوع فى بادئ الأمر . أما الآن ففى وسعك أن تأكلى ، ولكن فى اعتدال !

– ثق أننى لن أتناول الطعام طويلا على نفقتك يا سيدى :

وكان رداً نابياً غاية فى السماجة ، ولكنه أجابنى فى برود : « كلا فسوف تكتب إلى أصدقائك متى دللتنا على مكانهم ، وستعودين إلى منزلك » .

– يجب أن أصارحك بأننى لا أملك هذا ، لأننى بلا صديق وبلا منزل !

* * *

● وتطلع الثلاثة إلىّ غير مصدقين .. ولم ألمس شكاً فى نظراتهم ، وإنما مجرد دهشة وعجب .. وأنا بهذا أعنى الفتاتين بصفة خاصة ، لأن عينى سانت جون كانتا – رغم صفائهما – مما يصعب الغوص فيهما ، وكأنما كان لا يستخدمهما إلا فى سبر أغوار الآخرين وليس فى

الكشف عن أفكاره هو !.. وكان في نظراته خليط من الحدة والتحفظ مما يبعث على الارتباك لا التشجيع .. وسألني : « أتقصدين بقولك أنك لا ترتبطين بأية قربى على الإطلاق ؟ » :

— نعم ، فلا رابطة لي بأي حي ، ولا حق لي في الالتجاء إلى أي منزل بإنجلترا .

— يا له من مركز شاذ بالنسبة لفتاة في سنك !

ثم رأيت نظرة مسددة إلى يدى المعقودتين أمامي على المنضدة ، وعجبت لأفكاره ، ولكنه ما لبث أن أوضحها بلغة الكلام قائلا : « أما تزوجت قط ؟.. أعانس أنت ؟ » .. فضحكت ديانا وقالت : « كيف ، وهي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة أو الثامنة عشرة تقريباً يا سانت جون ؟ » .. فقلت : « إنني في التاسعة عشرة تقريباً ، ولكنني لم أتزوج .. كلا ! » .

وشعرت بوهج مشتعل يزحف إلى وجهي ، لأنه أيقظ بالإلماع إلى الزواج ذكرياتي المرة المثيرة . وشاهدوا جميعاً ما تولاني من ارتباك ، فحولت ديانا وشقيقتها أعينهما عني . أما القس فقد ظل يتفرسني حتى اشتد تضرج وجهي بالدماء ، واغرورقت عيناي بالدموع ، فسألني : « وأين كنت تقيمين آخر مرة ؟ » .. وهنا غمغمت ماري في خفوت : « إنك تكثر من الأسئلة يا سانت جون ! » .. ولكنه اتكأ على المنضدة ، ورمقني بنظرة أخرى من نظراته الرصينة الثاقبة يتعجلني الرد . فقلت : « إن اسم المكان الذي كنت أقيم فيه ، والشخص الذي كنت أقيم معه ، من أسراري » . فقالت ديانا : « فمن حقك — في رأيي — أن تخفيه عن

مستر سانت جون ، وعن كل سائل ، إن شئت » . وإذ ذاك قال القس : « ولكني لن أستطيع مساعدتك إذا لم أعرف شيئاً عنك وعن تاريخ حياتك ! .. إنك في حاجة إلى العون .. أليس كذلك ؟ » . فقلت : « بلى .. إنني في حاجة إليه وأطلبه يا سيدي على يد محب حقيقي للإنسانية ، يريني طريق الحصول على عمل أستطيع أن أؤديه ، وأن أكتسب منه الأجر الذي أتعيش منه ، والذي يوفر لي ولو ألزم ضرورات العيش ! » .

— إنني لا أدري ما إذا كنت محباً صادقاً للإنسانية — بالمعنى الذي تقصدينه — ولكنني راغب في مساعدتك بقصارى وسعي للوصول إلى عمل شريف . ولكن عليك أن تخبريني بما اعتدت أن تمارسيه ، وما تستطيعين أن تعمليه .

وكنت قد شربت الشاي . فشعرت بعد هذا الشراب بانتعاش لا يدانيه الانتعاش المنبعث من النبيذ المعتق ، فقد سرت في أعصابي قوة جديدة مكنتني من مخاطبة هذا القاضي الشاب — الثاقب النظرات — بكل ثبات . فاستدرت إليه وبادلته نظرة بنظرة في صراحة لا يشوبها تهيب وقلت : « لقد أسديت إلي يا مستر ريفرز — أنت وشقيقتاك — خدمة كبيرة لا تدانيها خدمة أي إنسان لآخر في الإنسانية . فقد أنقذتموني بكرمكم النبيل من الموت .. وهذا الجميل يمنحكم الحق في أن أشكركم وأعترف بفضلكم ، وفي أن تكونوا — إلى حد ما — موضع ثقتي . ولذلك سأروي لكم من تاريخ الفتاة الشاردة التي آويتموها القدر الذي أستطيع الإفضاء به دون أن أعكر صفو بالي ، ودون أن أعرض أمني — وأمن

الغير – لخطر أدبى أو مادى ، فأنا يتيمة ، وابنة قسيس ، وقد مات والداى قبل أن أعرفهما ، فنشأت عالة على غيرى ، وتعلمت فى معهد خيرى – سأخبركم باسمه – حيث قضيت ست سنوات فى طلب العلم ، وسنتين كمعلمة .. إنه يدعى ملجأ اليتيمات فى (لو وود) ، فهل سمعت به يا مستر ريفرز ؟ .. إن الأب روبرت بروكلهرست ينفق عليه » .

– سمعت باسم مستر بروكلهرست ، ورأيت المدرسة .

– ومنذ عام واحد تقريباً ، غادرت ملجأ (لو وود) لأعمل مربية خاصة وهى وظيفة طيبة سعدت بها ، ولكنى اضطررت إلى تركها منذ أربعة أيام قبل مجيئى إلى هنا . أما السبب الذى حملنى على الرحيل ، فلست أملك أن أفضى به ، لأن الإفضاء غير مجد ، وخطر ، فضلا عن أنكم لن تصدقوه . على أنه لا لوم علىّ فى ذلك ولا تثريب ، بل إننى لا أقل عن أى فرد من ثلاثتكم بعداً عن الجرم . إننى تعسة وسأظل كذلك زمناً ، لأن الكارثة التى طوحت بى من المنزل الذى ظننته جنتى كانت كارثة غريبة مروعة ، ولم أكن معنية فى قرارى بغير نقطتين : السرعة والتكتم .. ولبلوغ هذه الغاية ، تركت خلفى كل شىء عدا حزمة صغيرة نسيتها – لعجلتى واضطرابى – فى العربة التى أقلتنى إلى (هوينكروس) . وإلى هذه المنطقة جئت بالغة الفقر والعوز ، فبت ليلتين فى العراء ، وهمت على وجهى يومين دون أن أجتاز عتبة من الأعتاب ، ولم أذق الطعام فى تلك الأثناء سوى مرتين ، إلى أن أشرفت على الهلاك جوعاً وتعباً وقنوطاً ، فانتشلتنى أنت يا سيدى من الموت أمام بابك ، وأخذتنى تحت سقفك ، وقد عرفت ما فعلته شقيقتاك من

أجل ، لأننى كنت غائبة عن الوعى أثناء ما حسبتموه سباتاً عميقاً ، فأنا مدينة لرحمتهما الأصيلة غير المصطنعة ، بقدر ما أنا مدينة لإحسانك المنبعث من قلب يعرف الإيمان .

* * *

● وإذ أخلدت إلى الصمت ، قالت ديانا : « لا تحملها الآن على مزيد من الكلام يا سانت جون ، فإنها لا تحتمل الانفعال ، تعالى واجلسى على هذه الأريكة ، يا مس اليوت » .. فارتجفت مجفلة – على الرغم منى – عندما سمعت الاسم المستعار ، إذ كنت قد نسيت اسمى الجديد ، ولكن مستر ريفرز – الذى لم يكن يفوته شىء – سرعان ما لاحظ ذلك وقال : « ألم تقولى إن اسمك جين اليوت ؟ » .. فأجبت : « قلته ! .. فهذا هو الاسم الذى أراه مناسباً فى الوقت الحاضر ، ولكنه ليس اسمى الحقيقى . ولذلك كان له وقع غريب فى أذنى عندما سمعته » .

– ألا تذكرين اسمك الحقيقى ؟

– كلا فإن أخشى ما أخشاه أن يكشف أمرى وأحب أن أتحاشى ما قد يؤدى إليه هذا الكشف !

فقالت ديانا : « إنك على حق . والآن أرجو يا أخى أن تتركها قليلا فى سلام ! » .

ولكن ما إن أطرق (سانت جون) بضع لحظات ، حتى عاد إلى حديثه برباطة جأش وبراعة كعادته ، فقال : « إنك لن تقبلى أن أن تركنى إلى ضيافتنا طويلا ، إذ ترغبين فى التخلص – بأسرع

ما تستطيعين — من حنان وعطف شقيقتى ومن إحسانى (على الأخص) رغبة منك فى الاستقلال عنا » .

— هو ذلك ، وقد قلته من قبل . فأرنى كيف أعمل ، وكيف أجد عملا . هذا كل ما أرجوه ، وبعد ذلك دعنى أذهب ولو إلى أحقر كوخ . ولكن لا تطردنى من بيتك — قبل أن يتم ذلك — وأبقى هنا لأنى أخشى أية تجربة جديدة بين أهوال التشرد والفاقة .

فقالت ديانا وهى تضع يدها البيضاء على رأسى : « لسوف تبقين ولا شك » .. وكررت مارى ذلك بلهجة من الإخلاص بدت طبيعية إذ قالت : « ستمكثين هنا ! » . فقال مستر سانت جون : « إن شقيقتى تبتهجان — كما ترين — ببقائك ، ابتهاجهما بإيواء وإكرام طائر طوحت به إلينا رياح الشتاء وهو موشك على الموت برداً . ولسوف أعينك على أن تكفلى نفسك ، ولكنى أرجو أن تلاحظى أن منطقتى صغيرة ، وأننى لست أكثر من قسيس لأبرشية صغيرة فقيرة ، ولذلك ستكون مساعدتى ضئيلة متواضعة . فإذا لم ترق فى عينيك يوماً من الأيام وجب أن تبحثى لك عن معاونة أكثر مما فى طاقتى » . فأجابت ديانا عنى قائلة : « لقد قالت إنها راغبة فى أى عمل شريف تستطيع القيام به ، وأنت تعلم جيداً يا سانت جون أنها ليست مطلقة الحرية فى اختيار من يساعدونها ولكنها مكرهة على أن تلجأ إلى أمثالك من الأنكاد ! » . فقلت : « بوسعى أن أكون حائكة ، أو عاملة .. بل سأعمل خادمة أو مربية إذا لم أجد خيراً من ذلك ! » .

فأجاب مستر سانت جون فى برود تام : « حسن ، إذا كانت

هذه روحك فإنى أعدك بالمساعدة فى الوقت الذى أراه وبالطريقة التى أختارها » . ثم عاد إلى كتابه الذى كان مشغولا به قبل الشاى ، وسرعان ما انسحبت ، إذ كنت قد تحدثت كثيراً وجلست طويلا ، رغم ضعفى ووهنى .

* * *

الفصل الثلاثون

● أخذ حبى لأهل (مور هاوس) يزداد كلما ازددت معرفة بهم ، ولم تنقض سوى أيام قلائل حتى استرددت صحتى ، فاستطعت الجلوس طوال النهار ، والمشى فى الخارج فى أحيان كثيرة ، والاشتراك مع (ديانا) و (مارى) فيما كانتا تعملان ، والتحدث معهما فيما يحلو لهما ، ومعاونتهما كلما سمحتا لى .. ووجدت فى معاشرتهما لذة تحيى موات النفس !.. لذة من نوع لم أتذوق مثله من قبل ، لأنها انبعثت عن تجانس تام فى الأذواق والعواطف والمبادئ . فقد أحببت قراءة ما كان يطيب لهما مطالعته ، وكان ما يروق لهما يبهجنى ، وما تميلان إليه يلقى تقديراً منى .. وكانتا تحبان منزلهما المنعزل ، وكذلك أحببت أنا ذلك المبنى الصغير العتيق ، بسطحه المنخفض ، ونوافذه الموشاة بالنباتات الزاحفة ، وجدرانه المكسوة بالأعشاب المتسلقة ، وذلك الدرب الممتد بين صفين من أشجار الشربين التى كانت تنمو مائلة تحت دفع الرياح الجبلية ، والحديقة المكتظة بأشجار السدر والتى لم يكن ينمو فيها إلا أقوى الزهور احتمالا .. وألفيت فى كل ذلك سحراً قوياً مستديماً !

وكانت الفتاتان تهيمان بالأجمام الأرجوانية الممتدة خلف المنزل

وحوله . وبالوادى الخفيض ، والطريق المرصوف بالحصباء والذى
كان يفضى صعداً من جوفه إلى باب البيت ، ويتعرج ويتلوى بين
الشطآن المكسوة بنبات السرخس ، ثم بين بعض الحقول التى تحف
بالآجام الموحشة ، والتى ترعى عليها الأغنام الشهباء والخراف الصغيرة
الأجسام ، الموفورة الصوف . بل إننى لأذهب إلى القول بأن الفتاتين
كانتا تتعلقان بهذا المنظر فى حماس صادق ، تام ، ما لبثت أن أدركت
مبعثه ، فشاطرتهما إياه ، ولمست مثلهما فتنة هذا المكان . وشعرت
بقداسة هذه العزلة ، وتمتعت عيناى بتلك الآفاق ، كما تمتعت
بالألوان التى كان يخلعها الطحلب والنباتات والزهور البرية على القمم
والوديان . وأصبحت تلك المعالم بالنسبة لى — كما كانت بالنسبة
للفتاتين — مبعث غبطة صادقة ، عذبة .. وصارت الريح الهوجاء
والنسيم العليل ، واليوم العاصف واليوم الهادئ ، وساعات الشروق
وساعات الغروب ، وضوء القمر ، وديجور الليل الملبد بالسحب ..
صارت كل هذه تفتننى بقدر ما كانت تفتن الفتاتين ، وتغمر مشاعرى
بنفس السحر الذى كانت تغمر به مشاعرهما !

كذلك كان الانسجام تاماً بيننا فى داخل الدار . فقد كانت
الفتاتان مثقفتين ، وأكثر منى اطلاعاً ، ولكننى رحت أقتفى آثارهما
— فى توق وشغف — فى طريق المعرفة الذى سلكتاه قبلى ، وأقبلت
التهم الكتب التى كنت أستعيرها منهما ، وأجد متعة فى أن أناقشهما
فى المساء فيما طالعته أثناء النهار .

وإذا كان لثالوثنا رئيس وزعيم ، فقد انعقدت الزعامة لديانا التى

كانت تفوقنا فى الجسم ، كما كانت طريقة ذات عزم ومضاء . أما حيويتها
فكانت دنيا زاخرة أثارت دهشتى وإن دقت على فهمى . وكنت أتحدث
قليلا فى صدر المساء ، حتى إذا نفد معينى وزايلتنى طلاقتى ، جلست
على مقعد خفيض عند قدمى ديانا واعتمدت برأسى على ركبتيها ورحت
أصغى بالتتابع إليها وإلى أختها مارى وهما تديران الموضوع الذى أكون
قد أثرته . وعرضت ديانا أن تعلمنى الألمانية ، فأحببت أن أتعلم على
يديها ، ورأيت دور المعلمة يرضيها ويلائمها ، كما كان دور التلميذة
يرضينى ويلائمنى بعد أن توافقت طباعنا وتبادلنا الحب نتيجة لذلك .
واكتشفت الشقيقتان أننى أستطيع الرسم فسرعان ما كانت أقلامهما
وعلب ألوانهما فى خدمتى . وقد أدهشتهما وفتنتهما مهارتى وتفوقى
عليهما فى هذه الناحية ، فأخذت مارى تجلس بجانبى وتراقبنى ساعات
طويلة ، ثم تتلقى على يدى دروساً فى الرسم تظهر فى أثنائها أنها تلميذة
طيعة ذكية مثابرة . وهكذا مرت الأيام كأنها ساعات والأسابيع
كأنها أيام .

• • •

● أما مستر سانت جون : فإن المودة التى توطدت بسرعة وبلا تصنع
بينى وبين شقيقتيه لم تمتد إليه ، لأنه قلما كان يمكث فى المنزل . والظاهر
أن جزءاً كبيراً من وقته كان مكرساً لزيارة المرضى والفقراء من
سكان أبروشيته المتناثرين .. ولم يكن أى نوع من أنواع الطقس ليصده
عن القيام بهذه النزهات الخلوية ، فلم يكن يبالى — متى انتهى من
ساعات درس الصباح — بمطر أو صحو . بل كان يتناول قبعته ويخرج

ليؤدى رسالة الحب والواجب ، يتبعه (كارلو) كلب أبيه .. ولست أدرى فى أى ضوء كان ينظر إلى رسالته هذه . فقد كانت شقيقتاه فى اليوم غير الملائم تعترضان على خروجه ، ولكنه كان يجيبهما بابتسامة عجيبة فيها من الرزانة أكثر مما كان فيها من الابتهاج : « إذا كانت نفحة من ريح أو نثار من المطر يمنعنى من أداء هذه الواجبات السهلة ، فأى مستقبل أرجوه لنفسى يمثل هذا الكسل والاسترخاء ؟ » وكان رد ديانا ومارى على ذلك يتمثل عادة فى زفرة وبعض لحظات من التفكير الآسى !.. على أنه كان ثمة حائل آخر — إلى جانب هذا التغيب الكثير الدائب — يمنعه من أن يصادقنى .. ذلك أنه كان متحفظاً شارد الفكر ، كثير التأمل بطبيعته . وبالرغم من أنه كان ناصع السيرة ، غيوراً على واجبه الكنسى ، إلا أنه كان — على ما يظهر — ينعم بذلك الهدوء الفكرى والرضى الداخلى الذى ينعم به كل رجل دينى محب للإنسانية ، فلقد طالما شاهدته — وهو جالس إلى مكتبه يطالع أو يكتب — يلقى بالكتاب أو القلم ويعتمد بذقنه على يده ، ثم يسلم نفسه إلى أفكار لم أكن أدرى فى أى طريق تتجه ، ولكنها كانت ولاشك مزعجة مثيرة . كما كان يوحى تباين وميض عينيه واتساع حدقته .. وأحسب كذلك أن الطبيعة لم تكن له — كما كانت لشقيقتيه — مصدر بهجة وغبطة .. ولقد عبر مرة — ولكنه لم يفعل على مسمع منى سوى مرة واحدة — عن إعجاب قوى بما كان للتلال من سحر عابس ، وعن حب غريزى للجدران القاتمة العتيقة التى كان يدعوها منزله ! .. بيد أن اللهجة والكلمات التى عبر بها عن إحساسه هذا ، كانت تنم عن اكتئاب أكثر مما أوحت

بابتهاج . كما أنه لم يكن يتجول فى أنحاء المروج والآجام حباً فى سكونها الذى يهدئ الأعصاب . ولم يكن يبحث أو يعنى بالآلاف من مباهجها الصامتة !

ونظراً لزهده فى العشرة والاختلاط بالغير ، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن تسنح لى الفرصة لسبر غور أفكاره . وقد أدركت مداها لأول مرة عندما سمعته يعظ فى كنيسته فى (مورتون) . وبودى لو أقوى على وصف تلك الموعظة ، ولكن هذا فوق مقدورى ، بل إننى لا أستطيع حتى بيان التأثير الذى تركته فى نفسى . فقد بدأت الموعظة هادئة ، والواقع أنها — من حيث ارتفاع الصوت والإلقاء — ظلت هادئة حتى النهاية .. ولكن سرعان ما سرى حماس مكبوح فى نبراته الواضحة ، فراح يستحث الكلمات العصبية ، فإذا بها تزداد قوة .. ولكنها كانت قوة مضغوطة ، مكبوحة العنان .. واهتز القلب ، وذهل العقل ، لقوة الواعظ . وكانت تشيع فى العظة مرارة عجيبة .. كانت تعوزها الرقة المسيحية ، وتعددت فيها الألماعات القاسية إلى عقائد « كالفن » الإصلاحية — كالانتخاب والرذل ، وكالقضاء والقدر ، والاستنكار — وكان لكل إلماعة من هذه ، وقع الحكم بالإعدام . فلما انتهى من خطابه ، لم أشعر بأننى غدوت بحديثه أحسن حالا أو أهدأ بالا أو أكثر انشراحاً ، وإنما غشينى شعور بالحزن والأسى ، إذ أدركت — أكثر من غيرى — أن هذا البيان الفصيح الذى كنت أصغى إليه إنما ينبعث من أعماق يشوبها عكر اليأس ورواسب القنوط ، وتضطرب فيها بواعث مطامح لاتهن وآمال لاتشبع .. ووجدتنى أوقن من أن سانت جون ريفرز وإن كان

نق السيرة ، حي الضمير ، شديد الغيرة ، إلا أنه لم يجد هدوء الروح والنفس ، الذي يحل عن النهم .. وطاف بخاطرى أنه ــ في ذلك ــ لم يكن أسعد حظاً منى وسط أحزانى المكتومة ، المتأججة .. أحزانى على معبودى الذى تحطم وفردوسى الذى ضاع .. أحزانى التى تجنبت أخيراً أن أشير إليها ، وإن ظلت تستبد بي وتعذبني بلا رحمة أو هوادة .

* * *

● وانقضى فى تلك الأثناء شهر ، فاقترب موعد رحيل مارى وديانا عن (مور هاوس) لتعودا إلى الحياة البعيدة الخانقة التى كانت تنتظرهما كمربيتين ، فى إحدى المدن الكبيرة الحديثة بجنوب إنجلترا ، حيث تعمل كل منهما فى أسرة غنية متعالية تعتبرها تابعة وضيعة ، ولا تقدر مزاياها إلا بالمقياس الذى تقدر به مهارة الطاهية أو ذوق خادمة المائدة !.. ولم يكن مستر سانت جون قد حدثنى بشىء عن العمل الذى وعد بالحصول عليه من أجلى . فلما وجدتنى وحيدة معه ذات صباح فى حجرة الجلوس ، لبضع دقائق ، تجرأت واقتربت من فجوة النافذة القريبة من مكتبه ، وهممت بأن أتحدث ، وإن لم أدرك كيف أصوغ سؤالى أمام جليد التحفظ الذى كان يكسو طباعه . ولكنه كفانى تلك المشقة بأن بدأ الحديث ، إذ سألنى عندما اقتربت : « هل لديك ما تسأليننى عنه ؟ » .

ــ نعم أود أن أعرف عما إذا كنت قد سمعت بعمل أستطيع أن أتقدم للقيام به ؟

ــ لقد وجدت ، أو بالأحرى ابتكرت عملاً لك منذ ثلاثة أسابيع ، ولكنى عندما وجدتك تقضين وقتك فى سرور واغتباط مع شقيقتى

هنا ، رأيت من عدم اللياقة أن أعكر صفو سعادتكن إلى أن يحين وقت سفرهما .

ــ لسوف تسافران فى مدى ثلاثة أيام .

ــ نعم ، وسأعود إلى منزلى فى (مورتون) بعد سفرهما ، وستذهب حنة معى ويغلق هذا المنزل العتيق .

ثم سكت ، فانتظرت أن يعاود حديثه فى الموضوع ، ولكنى رأيت أفكاره قد شغلت بتأملات أخرى ، وشردت عنى وعن عملى ، فاضطررت إلى أن أنبهه إلى الأمر الحيوى الذى يهمنى . وسألته : « وما نوع العمل الذى وجدته يامستر ريفرز ؟.. أرجو ألا يزيد هذا التأخير فى صعوبة الحصول عليه » .

ــ كلا ، إنه يتوقف فقط على أن أعرضه عليك وأن تقبليه .

ثم سكت ثانية ، زهداً فى الحديث ، فنفذ صبرى وارتسمت على وجهى نظرة قلقة أغنت عن الكلمات فقال : « لاتتعجلى ، بل دعينى أخبرك بصراحة أن ليس لدى شىء واضح أو ذو فائض أقدمه لك . وقبل الشرح أرجو أن تتذكرى ماقلته ، وهو أننى إذا قدمت لك مساعدتى فإنها لن تزيد على مساعدة الأعمى للمقعد . إننى رجل فقير ، وقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن سددت ديون أبى ، فوجدت أن كل ما تبقى هو هذا البيت العتيق المتداعى ، وصف من أشجار الشربين العقيمة ، والأرض الحمأة الممتدة أمام الدار .. وأنا ما أزال نكرة .. إن اسم (ريفرز) عريق ، ولكن الثلاثة الوحيدين من سلالته كما ترينهم : اثنتان تكسبان عيشهما بخدمة الأغراب ، والثالث يعتبر نفسه

غريباً عن بلده ، لا فى الحياة فحسب ، بل وحتى فى الموت .. أجل ، وإنه ليظن — ويجد نفسه مسوقاً إلى الظن — بأنه لن يلقى التكريم من قومه ، ولن يتاح له أن يلهمهم إلا بعد أن يحمل على كتفيه صليب التحرر من روابط الجسد ، وعندما يهتف به قائد المجاهدين من رجال الكنيسة — الذين يعتبر نفسه أقلهم شأناً — أن : « قم واتبعنى ! » .

نطق سانت جون بهذه الكلمات بنفس الصوت الهادئ العميق الذى يلقى به مواعظه ، وقد غارت وجنتاه ، وانبعث من عينيه بريق وهاج . ثم استطرد : « وما كنت فقيراً ، نكرة ، فلست أملك أن أقدم لك سوى عمل فقير ، متواضع ، وقد ترين فى ذلك حطة . إذ أنى تبينت أن عاداتك مما يسميه الناس : « راقية مهذبة » ، ولأن أذواقك تنحو إلى السمو ، ولأن مقامك كان بين المثقفين .. على الأقل . على أنى لا أرى حطة فى أى عمل يؤدى إلى تحسين عنصرنا . إنى أعتقد أنه كلما اشتد جدب الأرض التى يقدر على المسيحى العامل أن يخندق حرثها ، ومهما تضاءل ما يستنبته منها ، كان نصيبه من التكريم أسمى ! .. إن حظه إذ ذاك حظ المجاهد فى الطليعة ، والرائد .. وقد كان أول الرواد فى الإنجيل هم الحواريون .. الرسل ! .. وكان قائدهم هو المسيح ، المنقذ والمخلص ! » .

وإذ عاد إلى السكوت ، قلت : « حسناً .. استمر ! » . فتطلع إلىّ وكأنه يقرأ وجهى ، كما لو كانت أساريرى حروفاً مخطوطة ! .. وعبر عما استخلصه من هذا الفحص بالعبارات التالية : « أعتقد أنك ستقبلين المهمة التى سأعرضها عليك ، وستؤدينها .. لا بصفة دائمة ، وإنما إلى

أجل ، فإن فى طبيعتك ما فى طبيعتى من عوامل تتأذى من الراحة .. وإن كانت عواملك من نوع غير نوع ما لدى ! » .

وأخلد للصمت مرة أخرى ، فقلت : « أرجو أن تزيدنى إيضاحاً ! »

— سأفعل ، وسترين كم هو فقير ، تافه هذا الاقتراح .. إننى لن أقيم طويلا فى (مورتون) بعد أن توفى والدى وأصبحت أملك زمام نفسى . ومن ثم فربما غادرت هذا المكان فى غضون اثنى عشر شهراً ، ولكنى لن أكف — مادمت مقيماً فى المنطقة — عن بذل قصارى الجهد فى سبيل تحسين حالها . فعندما قدمت إلى (موورتون) — منذ عامين — لم تكن فيها مدرسة واحدة ، بل كان أطفال الفقراء محرومين من كل أمل فى التقدم . ومن ثم فقد شيدت مدرسة للبنين ، وقد قررت أخيراً أن أنشئ مدرسة أخرى للبنات ، فاستأجرت مبنى لهذا الغرض ، وكوخاً يتصل به ويضم غرفتين لمعلمة المدرسة التى سيكون مرتبها ثلاثين جنيهاً فى العام . وقد أتممت تأثيث مسكن المعلمة هذا ، بأثاث بسيط ولكنه كاف ، وذلك بمعونة (مس أوليفر) ، الابنة الوحيدة للثرى الوحيد فى أبراشيتى ، وأعنى به مستر أوليفر ، صاحب مصنع الإبر والمسبك القائمين فى الوادى . وستكفل هذه السيدة — مس أوليفر — بنفقات تعليم وكساء فتاة يتيمة تجلبها من الملجأ لتعاون معلمة المدرسة فى الأعمال المنزلية والمدرسية البسيطة ، التى تحول واجبات المعلمة دون أن تباشرها بنفسها . فهل تقبلين أن تكونى هذه المعلمة ؟ » .

* * *

● ألقى سؤاله هذا فى شىء من العجلة ، وكأنه يخشى أن أرفضه فى تهم

وإياه ، غير مدرك حقيقة أفكارى ومشاعرى . بل إنه كان يدرك بعضها ، إلا أنه لم يكن يدرى على أى ضوء سيبدو لى الأمر . والواقع أن العمل كان متواضعاً ، ولكنه كان يكفل لى المأوى .. وكنت بحاجة إلى مثل هذا المأوى الأمن ! .. كان عملا شاقاً ، ولكنه إذا قورن بعمل المربية فى منزل من منازل الأثرياء ، امتاز عنه بالاستقلال . ثم إن الخوف من ربقة الأغراب كان يثقل على نفسى ، فى حين أن هذا المقترح لم يكن ينطوى على هوان أو ضعة أو أى امتهان أدبى . ومن ثم حزمت أمرى وقلت : « أشكر لك اقتراحك يامستر ريفرز ، وأقبله راضية ! » .

— يجب أن تفهمى أنها ستكون مدرسة قروية ، وأن تلميذاتك سيكن من البنات الفقيرات .. وبنات الفلاحين والمزارعين على أقصى تقدير . وسيكون التطريز والخياطة والقراءة والكتابة والحساب هو كل ما تعلمينه لهن ، فماذا تصنعين بثقافتك وبعقلك الكبير وإحساساتك وذوقك ؟

— سأدخرها إلى وقت الحاجة ، ولن تتبدد !

فسألنى : « إذن فهل عرفت مهمتك ! » . وكان جوابى : « عرفتها ! » وإذ ذاك ابتسم .. ولم تكن ابتسامة مريرة أو حزينة ، وإنما كانت ابتسامة الارتياح والشكر العميق . ثم قال : « ومتى تبدئين عملك ؟ » . فقلت : « لسوف أذهب إلى مسكنى هناك فى غد ، ثم أفتح المدرسة فى الأسبوع القادم إذا شئت » . فقال : « حسناً .. ليكن ذلك ! » .. ثم نهض وراح يذرع الغرفة وما لبث أن توقف عن السير ليتأملنى ، وهز رأسه . فسألته : « ترى ما الذى لا يروقك يا مستر ريفرز ؟ » .

— لن تمكثى طويلا فى (مورتون) .. كلا ، كلا !

— لماذا ، وماذا يحملك على هذا القول ؟

— قرأته فى عينيك .. إن وميضهما لا يوحى بالتشبث بحياة تسير على وتيرة واحدة .

— أنا لست طموحة .

فأجفل إذ سمع كلمة « طموحة » وعاد يقول : « لا ! .. وما الذى دعاك إلى التفكير فى الطموح ؟ من هو الطموح ؟ أعرف أننى كذلك ، ولكن كيف اهتديت إلى ذلك ؟ » . فقلت : « إنما كنت أتحدث عن نفسى » . فقال : « حسناً .. إذا لم تكونى طموحة فأنت .. » . وأمسك فقلت أستحثه : « ماذا ؟ » .

— كنت أهم بأن أقول « عاطفية » ، ولكنى خشيت ألا تفهمى الكلمة فتمتعضى . أعنى أن الحب الإنسانى والوجدانيات تستبد بك . وأنا واثق من أنك لن تقنعى طويلا بقضاء وقت الفراغ فى عزلة وانفراد ، وبتكريس ساعات العمل لجهد رتيب خال تماماً من المثيرات . وأنا لست أكثر منك قناعة بأن أعيش مدفوناً فى هذه البطاح التى تكتنفها الجبال من كل ناحية . إن مواهبى التى منحنى إياها السماء قد شلت . وها قد سمعتنى الآن أناقض نفسى . لأن هذه هى طبيعتى التى وهبنى الله إياها .. أنا الذى يوصى الناس بالقناعة .. أنا الذى يبرر للناس — حتى الخاطئين منهم والسقاطين — مهنهم الوضيعة .. أنا قسيس الله ، أعرف متململا فى نوبات القلق ، مع أن النزعات يجب أن تتمشى مع المبادئ بطريقة ما !!

• وغادر الحجرة .. وهكذا عرفت عنه خلال هذه الساعة الوجيزة مالم أعرفه خلال شهر كامل مضى ، ومع ذلك فقد ظللت فى حيرة من أمره .. وكان وجوم ديانا ومارى وحزنهما يزدادان كلما اقترب يوم فراقهما لأخيهما ومنزلهما . وحاولت الاثنتان أن تبدوا عاديتين ولكن الأسى الذى كان عليهما أن تناضلاه ، كان أقوى من أن تستطيعا مغالبته أو إخفائه . وقد أشارت ديانا إلى أنه سيكون فراقاً مختلفاً كل الاختلاف عما عهدتاه ، بل إنه كان من المحتمل – بالنسبة لسانت جون – أن يكون فراقاً لسنوات ، أو ربما كان فراقاً إلى الأبد . وقالت : « لسوف يضحى أخى بكل شىء على مذبح أغراضه البعيدة ، وهى : الحب الطبيعى والمشاعر الطبيعية التى ما تزال تزداد قوة فى نفسه . إن سانت جون يبدو هادئاً يا جين . ولكنه يخفى فى حنايا صدره حمى . ولقد تحسبيه رقيقاً ولكنه فى بعض الأمور كالموت ، لا يرحم ولا يلين !.. وأسوأ ما فى الأمر أن ضميرى لا يطاوعنى على رده عن قراره القاسى . والواقع أننى لا أستطيع أن ألومه عليه بحال من الأحوال ، لأنه قرار سليم نبيل دينى ولكنه يحطم قلبى ! » .

واغرورقت عيناها بالدموع ، بينما حنت مارى رأسها متظاهرة بالانكباب على عملها وغمغمت قائلة : « إننا الآن بلا أب ولن نلبث أن نغدو – عما قريب – بلا دار أو أخ ! » .

ووقع فى تلك اللحظة حادث كأنما بعثت به الأقدار عمداً لتؤيد المثل القائل بأن المصائب لا تأتى فرادى ، ولتضيف إلى كروبهم وتكسبهم هماً جديداً ؛ فقد مر (سانت جون) بالنافذة وهو يتلو خطاباً ، ثم

دخل يقول : « لقد توفى خالنا جون » . فبدا الذهول على كلتا الشقيقتين ، وإن لم تروعهما المفاجأة أو تفزعهما ، إذ خيل إليهما أن النبأ خطير أكثر منه محزناً . وكررت ديانا : « توفى ؟ » . فقال أخوها : « نعم » . وإذ ذاك رمقته بنظرة متسلة ، وقالت بصوت خافت : « وماذا بعد؟ » . فأجابها وقد اتخذت أساريره صورة جامدة أشبه بالرخام : « وماذا بعد ؟.. لاشىء .. اقرئى ! » .

وألقى بالخطاب فى حجرها ، فألقت عليه نظرة ، ثم سلمته إلى مارى التى راحت تطالعه فى صمت ، ثم أعادته إلى أخيها . وراح الثلاثة يتبادلون النظرات ويبتسمون ابتسامة موحشة كئيبة !.. وأخيراً قالت ديانا : « الأمر لله .. فى وسعنا مع ذلك أن نعيش ! » . فقالت مارى : « إن حالنا – على أية حال – لم تزدد سوءاً على ما كانت عليه » . وقال مستر ريفرز : « كل ما هنالك أنها تضطرنا إلى أن نقارن ما نحن فيه بما كان فى الإمكان أن نكون عليه ، بصورة واضحة » . ثم طوى الخطاب وأغلق عليه درجه ، وخرج مرة أخرى .

وانقضت دقائق لم تنبس واحدة منا ببنت شفة فى أثنائها .. وأخيراً التفتت ديانا إلىّ وقالت تحدثنى : « إنك متعجبين يا جين من أمرنا ومن أسرارنا ، وقد تعتبريننا مخلوقات غليظة القلب ، لا تتأثر لموت أقرب الناس إلينا ، كخالنا ، ولكننا لم نره ولم نعرفه !.. لقد كان شقيق أمى ولكنه تنازع مع أبى منذ زمن بعيد ، لأن أبى جازف بمعظم ممتلكاته فى المضاربات عملا بنصيحة خالى هذا ، فأفلس .. وتبادل الاثنان السباب وافترقا متخاصمين ، دون أن يصطلحا بعد ذلك . ثم اشتغل

خال فى مشروعات ناجحة أصاب من ورائها — فيما أعتقد — عشرين ألف جنيه . ولكنه لم يتزوج قط ولم يكن له أقارب أقرب منا ، سوى شخص آخر لا يربنا فى القرب . وقد ظل أبى يعتقد أن خال سيكفر عن غلطه بأن يترك لنا ممتلكاته ، ولكن هذا الخطاب يخبرنا بأنه وهب كل أمواله لقريبه الآخر . فيما عدا ثلاثين جنيها تقسم بين سانت جون وديانا ومارى ريفرز ليشتروا بها ثلاثة خواتم يلبسونها حداداً عليه !..

وليس من شك فى أن له الحق فى عمل ما يروق له ، ولكنا مع ذلك تلقينا خبر موته ببرود عابر ، لقد كنت ومارى نعتبر أننا سنصبح من الأغنياء إذا ظفرت كل منا بألف جنيه . كما أن هذا المبلغ قيمته عند أخى سانت جون . إذ يمكنه من الخير الذى يسعى لعمله !!.

وبانتهاء هذا الشرح . أسقط الموضوع ، ولم يشر إليه أحد بعد ذلك ، سواء فى ذلك مستر ريفرز أو أختاه . وفى اليوم التالى غادرت (مارش اند) إلى (مورتون) . وفى اليوم الذى يليه غادرته ديانا ومارى إلى مكان بعيد . وبعد أسبوع ، توجه مستر ريفرز وحنة إلى بيته .. وأصبحت الدار القديمة مهجورة !

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

● كان منزلى — عندما وجدت فى النهاية منزلا — عبارة عن كوخ مؤلف من غرفة صغيرة طليت جدرانها بالجير الأبيض وغطيت أرضها بالرمال . واحتوت على أربعة مقاعد ومنضدة وساعة وصوان به طبقان أو ثلاثة وطاقم شاى خزفى . وفوق هذه الغرفة حجرة مماثلة فى

المساحة للمطبخ ، وبها فراش من خشب الموسكى وصوان ذو أدراج ، كان صغيراً ولكنه كان يتسع لملابسى القليلة ، التى زادت بعطف أصدقائى اللطاف الكرام بعض أشياء متواضعة ولكنها ضرورية .

وجاء المساء فصرفت اليتيمة الصغيرة التى تتولى خدمتى ، بعد أن منحتها برتقالة كأجر لها ، ثم جلست وحدى عند حافة المدفأة . وكانت مدرسة القرية قد فتحت فى هذا الصباح ، فجاءتنى عشرون فتاة لم تكن تعرف القراءة منهن سوى ثلاث ، ولا يعرفن جميعاً الكتابة أو الحساب . بينما كان أكثرهن على إلمام بأشغال الإبرة . وقليلات جداً من عرفن الحياكة !.. وكن جميعاً يتحدثن بلهجة المقاطعة على أوسع صورة ، فوجدت عناء فى فهم لغتهن . وكانت بعضهن بلا أخلاق وخشنات جموحات جاهلات . ولكن الأخريات كن دمثات سلسات القياد ، بهن رغبة فى التعلم ولديهن ميل لإرضائى .. ولا يفوتنى أن أذكر أن هؤلاء الفلاحات الصغيرات الخشنات الثياب كن من لحم ودم كبنات أنبل الأسرات !.. وإن بذور التفوق والرقة والذكاء والرحمة يمكن أن تكمن فى قلوبهن بمثل ما تكمن فى قلوب خير الفتيات تنشئة وتربية .. ومن ثم فقد كان واجبى أن أتعهد هذه البذور ، ولم أشك فى أننى سألقى سعادة فى القيام بهذه المهمة ، وأن أتوقع متعة كبيرة فى الحياة المتفتحة أمامى ، وما كان هذا ليتحقق بلا ريب ، إلا إذا نظمت خواطرى وعملت ما وسعنى على أن أقنع بالحياة من يوم إلى آخر .

ترى هل كنت غاية فى الابتهاج والاستقرار والرضى فى أثناء الساعات التى قضيتها فى حجرة الدراسة العارية المتواضعة أثناء الصباح

وبعد الظهر ؟.. ولكى لا أخدع نفسى ، رأيت أن أجيب بصراحة : كلا .. كنت أشعر بالاكتئاب إلى حد ما ، وكنت أحس — لغباتى — أننى قد انحدرت ، وأننى خطوت خطوة هبطت بى ، بدل أن ترتفع بى إلى مستوى الوجود الاجتماعى . كما استاءت نفسى للجهل والفقر وخشونة ما سمعته ورأيته حولى . ولكنى لا أريد أن أحتقر نفسى كثيراً من أجل هذه الإحساسات ، فإنى أدرك أنها خاطئة ، وأننى إنما خطوت خطوة عظيمة وسأحاول التغلب على هذه الإحساسات ، وأنا واثقة من أننى سأتمكن فى الغد من تغليب خير ما فيها على أسوئها . عسى أن أستطيع بعد بضعة أسابيع أن أقضى عليها .. ومن المحتمل أن أرى فى تقدم بعض تلميذاتى — بعد شهور قلائل — ما يحيل تقززى سروراً وهناء!

وفى الوقت نفسه ، دعنى ألقى على نفسى سؤالا واحداً : أيهما أفضل ؟.. أن أخضع للإغراء وأصغى للهوى ، فلا أبذل أى مجهود مضن ، ألا أناضل وأكافح ، وإنما أتردى فى الشرك الحريرى ، وأغرق فى النوم فوق الزهور التى تغطيه ، لأستيقظ فى طقس الجنوب الجميل بين ترف إحدى الفيلات ، وأن أعيش فى فرنسا خليلة لمستر روشستر منتشية بحبه نصف عمرى .. فما كنت لأشك فى أنه سيحبنى زمناً .. بل إنه أحبنى فعلا ، ولن يوليني غيره كل هذا الحب مرة أخرى ، بل إننى لن أعرف — ثانية — الإكرام الذى يمنح للجمال والشباب والبهاء ، لأن سواه لن يرى فىّ هذه المفاتن !.. لقد كان مغرماً وفخوراً بى إلى حد لا يشبهه فيه أحد ، ولكن .. أين سرح بى الخاطر ، وما هذا الذى أقول .. بل ما هذا الذى أشعر به ؟.. لقد

كنت أتساءل : أيهما أفضل : أن أكون جارية وأمة فى جنة محمومة ، أعيش فى مرسيليا سكرانة بالوهم ساعة ، ثم أختنق بدموع الندم والخزى فى الساعة التالية ، أو أن أكون معلمة حرة شريفة ، بمدرسة فى ركن جبلى صحى هفهاف بقلب انجلترا ؟

نعم .. لقد بدأت أشعر بأننى أصبت فى تمسكى بالمبادئ والقوانين ، وفى احتقارى وسحقى للفورات المتاثلة التى انبعثت فى لحظة هوس وجنون . لقد هدانى الله إلى الصواب . فحمداً للعناية الإلهية على أن هدتنى !

وعندما بلغت بى تأملات المساء هذا الحد ، قمت فمضيت إلى باب كوخى ورحت أتطلع إلى غروب الشمس فى ذلك اليوم من أيام الحصاد وإلى الحقول الممتدة أمام كوخى الذى كان يبعد — والمدرسة — عن القرية بنصف ميل . وكانت الأطيار تغرد ألحانها الأخيرة .. وكما قال الشاعر : « كان الهواء عليلا والندى بلسماً » !

* * *

● وفيما كنت أسرح البصر وأحسبنى سعيدة ، فوجئت بأن وجدتنى بعد قليل أبكى ، فلماذا ؟.. للمصير الذى قضيت به على سيدى — الذى لن يقدر لى أن أراه — إذ انتزعت نفسى بعيداً عنه .. للأحزان والحنق القاتل اللذين سيعصفان بنفسه — نتيجة رحيلى — وربما حادا به عن جادة الحق وطريق الرشاد ، إذا ما استبد به القنوط بحيث لا يدع سبيلا لأمل يعاوده !

وعند هذه الفكرة ، حولت وجهى عن السماء الجميلة فى المساء وعن وادى (مورتون) المنعزل .. وأقول المنعزل لأن الجزء الذى

كان يبدو لعيني ، لم تظهر فيه من المباني سوى الكنيسة وبيت الراعي ، يكادان يغيبان وسط الأشجار .. وفي المؤخرة تماماً بدا سقف قصر (فيل هول) حيث كان يقيم مستر (أوليفر) الغني وابنته . فأغمضت عيني واعتمدت رأسي على حافة الباب الحجرية ، ولكن سرعان ما انبعث بالقرب من الباب الذي يفصل بين حديقتي الصغيرة والمرعى صوت جعلني أرفع رأسي وأرى على التو (الشيخ كارلو) — كلب مستر ريفرز — وهو يدفع البوابة بأنفه ، بينما استند على حافتها سانت جون ، وقد عقد ذراعيه وتطلع إلى بجبين عابس ونظرة توحي بالامتعاض . فطلبت إليه أن يدخل ، ولكنه قال : « كلا . لا أستطيع البقاء . فقط جئتك بطرد صغير تركته لك شقيقتاي . وأظنه يحوى علبة ألوان وأقلاماً وورقاً » .

واقتربت لأتناول الطرد — الهدية السارة — فتأمل وجهي متفحصاً بنظرات بدت لي كالحة عندما دنوت . وكانت آثار الدموع بلا شك جد ظاهرة على محياي ، فسألني : « هل وجدت عملك في اليوم الأول أشق مما توقعت ؟ » . فأجبته : « آه ، لا .. على العكس ، سأسير مع تلميذاتي على ما يرام مع مرور الوقت » .

— ولكن ربما وجدت في لوازم العيش والكوخ والأثاث ما خيب آمالك ؟ إنها في الواقع قليلة ضئيلة ولكن ...

فقاطعته قائلة : « إن كوخي نظيف لا يؤثر فيه الطقس ، وأثاثي كاف ومريح ، وكل ما أراه يحملني على الشكر ، لا على الاستياء . ولست من الحماقة وحب الراحة الجسدية بحيث آسف لعدم وجود



صوت جعلني ارفع رأسي وارى على التو (الشيخ كارلو) — كلب مستر ريفرز — وهو يدفع البوابة بأنفه ، بينما استند على حافتها سانت جون

بساط أو أريكة أو طبق من الفضة . هذا إلى أنني منذ خمسة أسابيع لم أكن أملك شيئاً ، بل كنت منبوذة متسولة شاردة . أما الآن فلى معارف ومنزل وعمل ، حتى أنني لأعجب لفضل الله وكرم أصدقائى ووفرة نصيبى . إننى لا أتبرم ولا أتذمر » .

— ولكنك تجدين فى العزلة ما يضايقك . إن المنزل الصغير القائم خلفك مظلم وخاو .

— إننى لم أقض بعد زمناً يكفى لأن أنعم بالهدوء ، حتى ينفد صبرى بسبب العزلة .

— حسن جداً .. أرجو أن تحسى بالرضى الذى تعربين عنه . وعلى أية حال ، فسوف يحذرك رأيك السديد بأنه لم يحن الوقت بعد للإذعان لمخاوف امرأة لوط ، حين عز عليها أن تتبعه وتخلف وراءها ما كانت تعيش فيه .. إننى لا أعرف شيئاً عما خلفته وراءك قبل أن تقع عليك عيناى ، ولكنى أنصحك بأن تستبسلى فى مقاومة كل ما يغريك بالنظر إلى الوراء ، بل سيرى فى طريقك الراهن بقدم ثابتة لبضعة شهور على الأقل !

قلت : « هذا ما استقر عليه عزمى » . فعاد يقول : « إن السيطرة على إغراء النزوات ، وكبح اندفاع الطبيعة ، مهمة شاقة .. ولكنها ممكنة ، على ما عرفت من تجاربى . فلقد منحنا الله القوة — إلى حد ما — على صنع مصائرنا والتحكم فى أقدارنا ، وعندما تتطلب طاقتنا المحدودة عوناً تعجز عن الحصول عليه ، وعندما تحاول الإرادة جاهدة أن تخط طريقاً ثم لا تملك السير فيه ، فلا حاجة بنا إلى أن نعانى جوع العقل

أو يستبد بنا اليأس ، بل علينا أن نبحث للعقل عن غذاء آخر ، لا يقل قوة عن الثمرة المحرمة التى طالما اشتهى تذوقها ، إن لم يكن أطهر منها وأنقى .. كما يجب أن نشق لقدم الجموح طريقاً فى استقامة واتساع تلك التى حجبها عنها الحظ ، إن لم تكن أشق وأوعر !.. إننى شخصياً كنت غاية فى التعس والشقاء — منذ عام — لأننى ظننت أننى أخطأت بانخراطى فى سلك الكهنوت . وكانت التبعات الرسمية ترهقنى كل الإرهاق فتحرقت نفسى إلى الحياة الدنيوية الأكثر حركة ونشاطاً ، وإلى الأعمال الأدبية المثيرة ، وإلى أن أكون فناناً أو مؤلفاً أو خطيباً أو أى شىء غير أن أكون قسيساً .. نعم كان قلب السياسى ، والجندى وطالب المجد ، ومحب الشهرة ، والمتحرق إلى القوة .. هذا القلب كان ينبض تحت الزى الكهنوتى الذى أرتديه . واعتبرت حياتى شقية يجب تغييرها وإلا وجب أن أموت . ولكن موسم الظلام والنضال انتهى ، فأشرق الضياء وحان الخلاص واتسع أفق وجودى الضيق إلى غير ما حدود ، وسمعت روحى نداء من السماء أن انهضى واستجمعى قوتك وانشرى جناحيك واصعدى إلى ما فوق مدى البصر ، فقد اختارك الله لمهمة يحتاج أداؤها إلى مهارة وقوة وشجاعة وفصاحة وسائر خير الخصال والمواهب لدى الجندى والسياسى والخطيب .. فإن كل هذه المواهب يجب أن تتركز فى المبشر الصالح . إذ عولت على أن أكون مبشراً ، فتغيرت حالتى العقلية منذ تلك اللحظة ، وتحطمت القيود عن مواهبى فلم يبق سوى آثار مريرة لا يشفيها غير الزمن . والواقع أن أبى عارض فيما عولت عليه . أما وهو قد مات ، فلم يعد فى طريقى شىء من

العقبات التى يستدعى التغلب عليها نضالا . فقد سويت بعض المشكلات وعثرت على من يخلفنى فى (موزتون) ، وقطعت خيطاً أو خيطين تبقيا من نسيج المشاعر .. وبقى الصراع الأخير مع الضعف الإنسانى ، وإنى لواثق من أن الغلبة ستكون لى ، لأنى أقسمت أن أنتصر .. ثم أغادر أوربا إلى الشرق » .

قال ذلك بصوت بادى الإعياء ، ولكنه كان حازماً حاسماً ، ثم أخلد إلى الصمت ، وتطلع — لا إلىّ — ولكن إلى الشمس الغاربة التى كنت أرنو إليها بدورى . وكان كلانا يولى ظهره شطر الطريق المفضى إلى كوة الباب ، فلم نسمع صوتاً غير خرير المياه الجارية فى الوادى ، ولذلك أجفلنا عندما فوجئنا بصوت مرح عذب كرنين جرس فضى يهتف : « سعدت مساء يا مستر ريفرز ، وطاب مساؤك يا كارلو (العجوز) . إن كلبك أسرع منك فى التعرف على الأصدقاء يا سيدى فقد رفع أذنيه وبصبص بذيله عندما توسطت الحقل ، أما أنت فما زلت توليني ظهرك إلى الآن ! » .

● ● ●

● وكان ذلك صحيحاً .. وعلى الرغم من أن مستر ريفرز قد أجفل لدى سماع هذه الكلمات الموسيقية وكأنما هبطت على رأسه صاعقة ، إلا أنه ظل واقفاً حتى نهاية الحديث فى نفس الوضع معتمداً بذراعيه على البوابة ومتجهاً نحو الغرب ، ثم استدار أخيراً — بعد أن قدح فكره بمعيار وقدر — وإذا بى أرى إلى جانبه شكل إنسان تصغر قامته عن مستر ريفرز بثلاثة أقدام ، وقد اتشح بثوب ناصع البياض .. وكانت

شابة بديعة القد ، مليئة فى رشاقة . وبعد أن انحنت تداعب (كارلو) ، رفعت رأسها فأزاحت خماراً طويلا كشف عن وجه كامل .. و (الجمال الكامل) تعبير قوى ، ولكنى لن أتراجع عنه ولن أحاول وصفه ، لأن حلاوة الأسارير وفتنة القوام كانتا تبرران هذا التعبير . أجل ، لم يكن ينقص الفتاة سحر ، ولم يكن بها أى عيب أو نقص على الإطلاق ، بل كانت قسماتها منتظمة رقيقة ، وكانت عيناها نجلاوين أشبه بالعيون التى تشاهدها فى الصور : واسعتين سوداوين داكنتين تحيط بهما أهداب طويلة وارفة ، وحاجبان كقوسين رسما بالقلم ليضفيا الصفاء على تلكما العينين . وكان جبينها ناعماً ، ووجنتاها بيضاوين بضتين . وشفتاها جميلتين تفيضان بالصحة والحيوية .. حتى أسنانها كانت متساوية ناصعة خالية من كل هناة ، وكان ذقنها صغيراً تتوسطه نقطة غائرة (نونة) فاتنة ، وجدائل شعرها غزيرة .. وقصارى القول ، كان ذلك كله مجتمعاً ، يمثل المثل الأعلى لجمال .. الجمال الكامل !.. ولقد عجبت عندما رأيت هذه المخلوقة الحسناء ، وأعجبت بها من كل قلبى ، ولا شك فى أن الطبيعة قد حابتها عندما خلقتها فأغدقت الحسن عليها بهذا البذخ والإسراف .

ترى ماذا كان رأى سانت جون ريفرز فى هذا الملاك الدنيوى ؟ كان من الطبيعى أن أطرح على نفسى هذا السؤال ، فتوقعت أن أقرأ الجواب على أسارير الشاب عندما التفت ونظر إلى الملاك ، ولكنه سرعان ما حول عنها بصره وتطلع إلى مجموعة من الأقحوان المتواضع ، كانت تنمو على مقربة من البوابة . وقال وهو يسحق بقدمه رءوس

الأزهار الشتوية غير المتفتحة : « أمسية بديعة . ولكن الوقت متأخر فما كان لك أن تخرجى وحدك ! » . فهتفت الفتاة : « أوه !.. إنما وصلت من (...) – وذكرت اسم مدينة كبيرة تبعد عشرين ميلا – بعد ظهر اليوم . فأخبرنى (بابا) بأنك فتحت مدرستك وأن الناظرة الجديدة قد حضرت . لذلك ما أن انتهيت من تناول الشاى حتى وضعت قلنسوتى على رأسى ، وجريت إلى الوادى لأراها . أليست هى هذه ؟ »

وأشارت إلىّ فقال سانت جون : « أجل ، هى » . فسألتنى فى سذاجة وبصوت طروب : « أتعتقدين أنك سوف تحبين موروتون ! » قلت : « هذا ما أرجوه ، فما أكثر المغريات التى تدعو إلى ذلك ! » . فعادت تسألنى : « وهل أحببت منزلك ؟ » . فأجبت : « كثيراً جداً ! » .. فتساءلت فى لطف : « هل ترينى أحسنت تأثيثه ؟ » » وكان جوابى : « جداً ! » .. ولكنها سألتنى مرة أخرى : « وهل أحسنت اختيار تابعتك إليس وود ؟ » . فأجبتها قائلة : « فعلا ، فهى قابلة للتعلم ، طيعة » .

وأدركت عندئذ أن الزائرة هى مس أوليفر الوارثة التى وهبت من الثراء قدر ما وهبت من الجمال فتساءلت فى نفسى : أى نجمين سعيدين اجتمعا يوم مولدها ؟. واسترسلت الفتاة تقول : « سوف آتى وأساعدك فى التعليم أحياناً . وسأجد متعة فى زيارتك من حين إلى آخر . لقد قضيت وقتاً طيباً فى زيارتى الأخيرة لمدينة (س) وقضيت ليلة الأمس فى الرقص حتى الثانية صباحاً ، إذ التقيت بضباط الكتيبة (...) ، وهم أظرف رجال فى العالم » .

وخيل إلىّ أن مستر سانت جون لوى شفته السفلى وزوى العليا لحظة ، فبدا فمه مضغوطاً متجهماً إلى حد كبير . وظهر الجزء الأسفل من وجهه عابساً على غير عادته ، عندما نطقت تلك الفتاة الضاحكة بذلك الحديث . ثم رفع عينيه عن زهرات الأقحوان ، واستدار إليها وعلى أساريره نظرة جامدة متفحصة ذات معنى . فأجابت الفتاة بضحكة ثانية تلائم شبابها وتورد خديها وغمازتيها وعينيها المؤتلقتين .

وفيما كان فى وقفته مخلداً إلى الصمت والوقار ، عادت هى تداعب كارلو قائلة : « مسكين كارلو ، لكم يحبنى !.. إنه ليس فظاً ينفر من أصدقائه ولو استطاع أن يتكلم ما التزم الصمت » .. وأخذت تربت على رأس الكلب وهى منحنية بجانبه الطبيعى أمام السيد الشاب الصارم وإذ ذاك رأيت وجه السيد يتوهج كاللهب ، وشاهدت عينيه الهادئتين تتحولان فجأة إلى نار وتخفقان بانفعال جارف . فكان بهذا الخباء والاشتعال لا يقل جمالا بين الرجال عن الفتاة بين النساء . وارتفع صدره مرة كأنما ضاق قلبه الكبير بقيود الاستبداد ، فتضخم برحمه ووثب وثبة قوية لتمتع بالحرية والانطلاق . ولكنه كبح جماحه كما يكبح الراكب جماح جواده ، ولم يرد على كلمات الفتاة وهى تحاول استدراجه .

فرفعت الفتاة رأسها واستطردت تقول : « إن بابا يقول : إنك لم تعد تأتى لزيارتنا الآن . إنك غريب عن (فيل هول) وأبى الليلة وحيد ، متوعك .. فهل تعود معى وتزوره ؟ » . فأجاب سانت جون : « إن الساعة ليست ملائمة للتطفل على مستر أوليفر » .

– ليست ساعة ملائمة ! إنها كذلك لأنها الساعة التى يكون فيها

(بابا) أشد حاجة إلى من يسليه بعد فراغه من عمله . تعال الآن يا مستر ريفرز . لماذا كل هذا الحياء وكل هذا الاكتئاب ؟

وصمت فملأت الفجوة التي خلفها صمته ، بأن صاحت وهي تهز رأسها : « آه ، لقد نسيت ! كم أنا حمقاء ! .. معذرة إذا كنت قد نسيت أن لك الحق في عدم الميل إلى زيارتي بعد أن غادرتك ديانا وماري ، وأغلق (مورهاوس) ، وبقيت هكذا وحيداً . إنني أرثي لك فتعال وزر بابا ! » . ولكنه قال في إصرار : « ليس الليلة يا مس روزاموند . ليس الليلة » .

كان سانت جون يتكلم كما لو كان آلة . فلم يكن في وسع أحد غيري أن يدرك مدى ما يكلفه ذلك الرفض من ثمن غال . وقالت الفتاة : « خليق بي أن أغادرك الآن ما دمت عنيداً بهذا الشكل ، فلست أجرؤ على البقاء أكثر من هذا ، إذ بدأ الندى يتساقط . طاب مساؤك ! »

— طاب مساؤك .

وتحولت الفتاة ولكنها عادت بعد لحظة لتسأله : « أتراك بخير ؟ » . وكانت محقة في سؤالها لأن وجهه كان في شحوب ردائها الناصع ولكنه أجاب : « إنني في خير حال » . ثم حنى رأسه وانصرف خلفها ، فسارت في سبيلها وسار هو في سبيل آخر .

والتفتت الفتاة مرتين لتلقي عليه نظرة ، وهي تخطر في الحقل ، كأنها حورية جميلة . أما هو ، فسار في طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت خلفه على الإطلاق .

كان منظراً آخر للعذاب والتضحية شغل أفكاري وأقصاها عن

التأمل في حالتي .. وأيقنت بأن ديانا ريفرز لم تبالغ حين لقبت أخاها بأنه كالموت لا تلين له قناة !

* * *

الفصل الثاني والثلاثون

● مضيت في أعمالي في مدرسة القرية بكل ما وسعني من نشاط وأمانة . وكانت مهمتي شاقة في البداية ، فقد انقضت فترة طويلة — مع كل ما كنت أبذله من جهود — قبل أن أستطيع فهم تلميذاتي وطبائعهن .. كن غاية في الجهل ، هامدات المواهب ، غبيات لايرجى منهن أمل . وكن يظهرن — لأول وهلة — متساويات في الغباء ، ولكني سرعان ما أدركت غلطتي ، إذ لمست بينهن فروقاً كتلك التي بين المتعلمات . وما أن فهمتهن وفهمنني حتى تبددت تلك الفروق . وما أن هدأت دهشتهن مني ومن لغتي ونظامي وطريقتي ، حتى وجدت بعض الخاملات الباديات الغباء قد تحولن إلى فتيات متقدات الذكاء ، وأبدت الكثيرات شكراً وامتناناً .. وظرفاً كذلك ! واكتشفت بينهن نماذج غير قليلة للأدب الطبيعي والاعتزاز الأصيل بالنفس ، كما اكتشفت بينهن مقدرة فائقة نالت تقديري وإعجابي . وسرعان ما شعرن بلذة في أداء واجباتهن على الوجه الأكمل ، وفي الاحتفاظ بنظافتهن الشخصية ، وفي استذكار دروسهن بانتظام ، وفي التحلي بالعادات الهادئة المنظمة . وكثيراً ما دهشت لهذه السرعة في تقدمهن ، واستشعرت لذلك زهواً صادقاً سعيداً ، كما بدأت بدوري أحب بعض المتفوقات ويحببنني . وكان بين تلميذاتي

عدد كبير من بنات الفلاحين الناضجات — اللاتى بلغن سن الرشد تقريباً — فاستطعن القراءة والكتابة ، وتعلمن الخياطة وشغل الإبرة ، ووجدت فيهن أخلاقاً تستحق التقدير ، ورغبة قوية فى التعلم والترقى . وكثيراً ما كنت أقضى ساعات طيبة فى المساء ببيوت هؤلاء التلميذات ، أحظى خلالها من أهلهن — الآباء المزارعين والأمهات الفلاحات — بالرعاية . وكنت أجد متعة فى تقبل هذا العطف الساذج ، وأقدم لهم فى مقابله تقديراً كان يفتن الفتيات ويفيدهن ، لأنه كان يرفعهن فى أنظار أنفسهن ، ويحملهن على الجهد ليصبحن أهلا للمعاملة الكريمة التى كن يلقينها منى !

وشعرت بأنى غدوت محبوبة فى تلك المنطقة . فأينما ذهبت كنت أسمع تحيات قلبية من كل ناحية ، وألقى ابتسامات المودة والإخلاص . إن الحياة بين الاعتبار العام — ولو كان هذا الاعتبار من الطبقة العاملة — أشبه بالجلوس فى ضياء الشمس : يقدم بالهدوء والصفاء . وكثيراً ما كان قلبى — فى تلك الفترة من حياتى — يفيض بالشكر ، وقل أن أثقله الاكتئاب . ومع ذلك فلست أكتمك أيها القارئ أنى فى غمرة هذه الحياة الوادعة النافعة ، كنت — بعد أن أقضى سحابة النهار فى الجهد والعناء مع تلميذاتى ، وأقضى الأمسيات فى الرسم أو القراءة وحيدة ، راضية النفس — لا ألبث بالليل أن أندفع فى أحلام عجيبة .. أحلام متعددة الألوان ، مضطربة ، مليئة بالمثل الأعلى والمثيرات العاصفة .. أحلام كانت تتجول وسط مناظر غير عادية مشحونة بالمغامرات والمخاطرات والمصادفات الخيالية ، فإذا بى أتصورنى أقابل مستر

روشستر — بين وقت وآخر — فأراه دائماً فى ضيق شديد ، فتتجدد ذكرى وجودى بين أحضانه ، وسماع صوته ، ولقاء نظرته ، ولمس يده ووجنته ، وحبى له وحبه لى . وأملى فى قضاء الحياة إلى جانبه ... كل هذه كانت تتجدد بكل قوتها وحرارتها الأولى ! .. وكنت أستيقظ بعد ذلك فأتذكر أين أنا وحقيقة مركزى ، فأجلس فى فراشى — الخالى من الستائر — وأنا أهتز وأرتجف . وعند ذاك ، كان الليل الداجى يشهد انتفاض يأسى ، ويسمع انفجار وجدى . ومع ذلك ، فما كانت تحين الساعة التاسعة من الصباح التالى ، حتى أبادر إلى فتح أبواب المدرسة وقد استعدت هدوئى ورزانتى ، وتأهبت لأعبائى المدرسية اليومية !

وحافظت (روزاموند) على وعدها أن تأتى لزيارتى ، فكانت تجىء عادة أثناء ركوبها فى الصباح ، فتركض بفرسها الصغيرة إلى الباب ، ومن خلفها خادم يمتطى جواداً ويرتدى بزة خاصة .. كانت الفتاة تبدو رائعة المظهر فى زى الركوب القرمزى وقبعتها المخملية السوداء التى كانت تستوى برشاقة فوق جدائل طويلة تلثم خديها وتتدلى على كتفيها بصورة فاتنة تجل عن الوصف .. وهكذا كانت تدخل البناء الريفى وتسير وسط التلميذات القرويات المبهورات بمنظرها ! .. وكان مقدمها يصادف عادة الساعة التى يلقى فيها مستر ريفرز درسه الدينى اليومى . ولاحظت أن عين الزائرة كانت تخترق قلب الكاهن الشاب . ويبدو أنه كان يشعر بقوة غريزية تنذره بدخولها غرفة الدرس ، وإن لم يرها . فإذا ما ظهرت فى مدخل الباب ، تألقت عيناه وتوردت وجنتاه

وتبدلت أساريره الجامدة كالرخام ، والتى كانت برغم جمودها تعبر إذ ذاك – بسكونها وثباتها – عن عاطفته المكبوتة بأقوى مما تعبر العضلات النافرة والنظرات المارقة .

وكانت – بطبيعة الحال – تعرف مبلغ قوتها . أما هو فلم يكن يدرى ، وإلا لما أخفى عنها معرفته . وعلى الرغم من « رواقيته » الدينية – أى عدم مبالاته بالمؤثرات الجسدية – فإنه لم يكن يتمالك نفسه إذا ما تقدمت إليه وخاطبته مبتسمة فى وجهه مشجعة فى مرح – يكاد يكون تغزلا – فكانت يداه تضطربان ، وعيناه تتقدان ، ويلوح وكأن نظرته الساجية المتورعة تقول دون أن تتحرك شفتاه : « أحبك ، وأعرف أنك تؤثرينى . وليس اليأس من التوفيق هو الذى يعقد لسانى ، لأننى أعتقد أنك ستقبلين قلبى لو أننى قدمته لك . ولكن هذا القلب قد وضع على مذبح مقدس ، وأعدت حوله النار ، ولن يلبث أن يصبح مجرد قربان فان ! » :

وكانت إذ ذاك تتجهم كطفلة خاب رجاؤها ، وتتعقد فى سماء مرحها غمامة ، فيبادر بسحب يدها من يده بسرعة ، وتتحول عن وجهه غاضبة على الفور فى بطولة الشهداء . ولاشك فى أن مستر سانت جون ما كان ليحجم عن تضحية كل شىء فى العالم ليتبعها ويناديها ويستبقيها معه – عندما كانت تتركه هكذا – لولا أنه لم يكن يقوى على أن يتنزل – فى سبيل فردوس حبها – عن مجرد أمل واحد فى جنة الخلد . أضف إلى ذلك أنه ما كان فى وسعه أن يربط كل مافطر عليه من حب للتجوال والطموح والشعر والكهنوت ، إلى عاطفة

واحدة محدودة .. أجل ، لم يكن يستطيع – ولا كان راغباً – فى التخلى عن ميدان رسالته الواسع مقابل ما كان يرجوه من رغد وسلام فى (فيل هـول) ، فقد عرفت منه الكثير عن نفسه برغم تحفظه ، وذلك فى أثناء (غارة) تجرأت ذات مرة على القيام بها لاقتحام سره .

• * •

● ولقد شرفتنى مس أوليفر بزيارات عديدة لكوخى ، فاستطعت أن أقف على كل أخلاقها سافرة فى غير تحفظ أو تنكر : كانت مغرورة ولكنها لم تكن بلا قلب ، دقيقة فى غير أنانية ، مدللة منذ مولدها ولكنها لم تكن فاسدة بمعنى الكلمة ، متهورة ولكنها كانت طيبة القلب ، معتزة مزهوة – دون أن تكون لها حيلة فى ذلك وهى ترى فى كل نظرة تلقيها على المرآة مبلغ ملاحتها – ولكنها لم تكن متعجرفة . وكانت مبسوطة الكف فى غير غرور ، صريحة ، ذكية ، مرحة ، طروباً ، لاتطيل التفكير فى شىء . وقصارى القول : كانت فاتنة حتى فى عين فتاة من جنسها باردة الطبع مثلى ، ولكنها لم تبلغ الكمال من حيث التأثير فى النفس أو كانت – على سبيل المثال – تختلف فى عقليتها عن شقيقتى سانت جون .. على أننى – مع ذلك – أحببتها كما أحببت تلميذتى (أديل) ، فيما عدا أننا نكن فى العادة للطفلة التى ربيناها وعلمناها حباً يفوق بالطبع ما يمكن أن نكنه لواحدة من المعارف بالغة الرشد ، وإن تساوت معها فى الجاذبية .. ولقد مالت هى الأخرى إلىَّ ، وقالت إننى أشبه مستر ريفرز فيما عدا أننى لا أبلغ عشر جماله . فمع أننى كنت ظريفة نقية الروح ، إلا أنه كان ملكاً كريماً .. ومع ذلك فإننى كنت – فى رأيها – طيبة

ماهرة هادئة النفس رزينة .. مثله ! وكانت تقول إن تاريخ حياتى السابقة – إذا ما تكشف لها – فإنه سيكون ولابد قصة رائعة ممتعة !

وحدث ذات مساء أن كانت بنزقها وخفتها تنقب – دون فضول مستهجن – فى أرجاء الصوان ودرج المائدة فى مطبخى الصغير ، عندما اكتشفت وجود كتابين فرنسيين ومجلد عن شيللر وكتاب فى النحو الألمانى وقاموس . كما عثرت على أدوات الرسم وبعض الصور التخطيطية ، بينها صورة فتاة صغيرة – هى إحدى تلميذاتى – وبعض المناظر الطبيعية المتنوعة التى التقطتها فى وادى (مورتون) والآجام المحيطة به ، فجمدت فى أول الأمر دهشة وعجباً ، ثم جنت سروراً وابتهاجاً ، وقالت تسائلى هل أنا التى رسمت هذه الصور ؟ وهل أعرف الفرنسية والألمانية ؟ ما أجملنى وما أروعنى ! إننى أرسم خيراً من أستاذها فى المدرسة الأولى فى (س) ، فهل لها أن تطمع أن أرسم لها صورة تريها لأبيها ؟ فأجبتها : « بكل سرور » .

وتملكتنى رجفة الفنان المغتبط لفكرة رسم مثل هذا النموذج الكامل المشرق ، وكانت ترتدى إذ ذاك ثوباً كحلياً من الحرير يكشف عن ذراعيها ونحرها ، ولا تتزين بغير جدائل شعرها الكستنائى وقد تموجت على كتفيها بكل روعة الجدائل الطبيعية ، فتناولت قطعة من الورق المقوى ورسمت صورة تخطيطية لها بعناية واهتمام ، إلى أن أخذت الظلمة ترين ، فطلبت إليها أن تأتى وتجلس أمامى فى يوم آخر .. وكان أن حدثت أباها عن ذلك ، فاصطحبها مستر أوليفر بنفسه فى المساء التالى . ووجدته طويل القامة ، ضخم التقاطيع ، متوسط العمر ، أشيب الرأس ، وقد بدت

ابنته الحسناء بجانبه أشبه بزهرة مشرقة إلى جوار برج مغبر عتيق .. وكان – فيما لاح لى – رجلا محباً للصمت متعجرفاً ولكنه عاملنى برفق ، وسر سروراً عظيماً بالرسم التخطيطى لروزاموند فطلب منى أن أتم اللوحة كما أصر أن أذهب إلى (فيل هول) فى اليوم التالى لأقضى معهما المساء .

فلما ذهبت ، وجدته قصراً كبيراً جميلا يدل على ما ينعم به صاحبه من ثراء . وكانت (روزاموند) شديدة الفرح والابتهاج طوال مكثى هنالك . ولما خاض والدها معى فى الحديث بعد تناولنا الشاى ، أعرب لى عن تقدير لأعمالى والتقدم الذى نالته المدرسة على يدى ، ثم قال إنه أصبح لا يخشى – بعد الذى سمعه ورآه – إلا أن أغادر المدرسة إلى أخرى أليق بى . وصاحت روزاموند : « الواقع أنها من الخلق بحيث يصح أن تكون مربية فى أسرة كبيرة يابابا » . بيد أننى كنت أوثر البقاء حيث كنت ، على العمل لدى أية أسرة من الطبقة الراقية . وتحدث مستر أوليفر عن مستر ريفرز وعائلة ريفرز باحترام بالغ ، قائلا إنها أسرة عريقة فى تلك الأصقاع ، وإن أجداده كانوا أثرياء يمتلكون قرية (مورتون) كلها وأنه يعتقد أن سليل الأسرة يملك إذا شاء أن يصاهر أحسن عائلة ، ولكنه أعرب عن أسفه على أن يكون هذا الشاب الجميل واعظاً ، وأن يبدد فى ذلك حياته الغالية . ويخيل من ذلك أن والد (روزاموند) لم يكن يقيم أية عقبة فى سبيل اقتران بنته بمستر سانت جون ، وأن الرجل يعتبر عراقة الكاهن الشاب واسم أسرته ومهنته المقدسة تعويضاً كافياً لحاجته إلى المال ..

● وكان اليوم الخامس من نوفمبر عطلة مدرسية ، فبعد أن عاونتني خادمتي الصغيرة في تنظيف منزلي ، انصرفت وهي راضية النفس بالبنس الذي أعطيتها إياه أجر معاونتها لي . وكان كل ما حولي نظيفاً لامعاً : من أرضية دلكت ، ومدفأة صقلت ، ومقاعد جليت جيداً . وكنت قد نظفت نفسي كذلك ، فوجدت أمامي طوال بعد الظهر أقضيه كيف أشاء .. فشغلت بترجمة بضع صفحات من الألمانية ساعة ، ثم جئت بلوحة الرسم والأقلام وشرعت أتم صورة روزاموند أوليفر . وكنت قد فرغت من رسم الرأس ، ولم يبق إلا أن ألون الأرضية ، وأظلل الثياب ، وأضفي لمسة من اللون الأرجواني على الشفتين الناضجتين ، وأسبغ بعض تموجات على خصلات الشعر ، وأزيد في ظلال الأهداب تحت الجفون اللازوردية !.. وفيما كنت منهمكة في هذه التفاصيل البديعة سمعت طرقاً سريعاً على الباب غير المغلق ، ثم شاهدت سانت جون ريفرز يدخل قائلا .

— لقد جئت لأرى كيف تقضين يوم عطلتك ، فأرجو ألا تكوني قد قضيته في التفكير . كلا هذا حسن ، فإنك لن تشعري بالوحدة مادمت ترسمين . هأنتذى ترين أنني مازلت غير مطمئن ، برغم أنك أظهرت جلداً وصبراً يدعو إلى الإعجاب ، لقد جئتك بكتاب تتسلين به في المساء !

ووضع على المنضدة كتاباً جديداً في الشعر ، من تلك المطبوعات الدسمة القيمة التي كان الجمهور يحظى بها في ذلك العهد .. العهد الذهبي للأدب الحديث . ومن أسف أن قراء زماننا لاينعمون بهذه الميزة ولكن

صبراً ! لست أتوقف لأتهم أو أتذمر ، فإنني أعرف أن الشعر لم يمت ، وأن العبقرية لم تضع ، وأن حب المال يسيطر على كليهما ، بل إنهما سوف يؤكدان وجودهما وحريتهما وقوتهما مرة أخرى في يوم من الأيام؛ أيتها الملائكة الجبارة الآمنة في السماء ! إنك لتبتسمين عندما تظفر الأرواح الشريرة بالغلبة ، وتبكي الأرواح الضعيفة على أطلالها . فهل دمر الشعر تدميراً ونفيت العبقرية نفياً ؟ كلا .. فهل هما إذن في ركود ؟.. كلا ، إنهما لايعيشان فحسب ، بل هما يحكمان ويسيطران ، ولو لم ينتشر نفوذهما الروحي في كل مكان لأصبحت في جحيم .. جحيم ضعفك ومهانتك !

● ● ●

● وفيما كنت أتأمل في طفة صحائف من ديوان (مارميون) — فقد كان الكتاب يضم أشعار مارميون — انحنى سانت جون وجعل يتأمل الصورة التي رسمتها . ولكنه سرعان ما نصب قامته الطويلة مرة أخرى دون أن ينبس بحرف ، فرفعت عيني إليه ولكنه تجنب نظرتي . ولكنني عرفت أفكاره جيداً — برغم ذلك — واستطعت أن أسبر غوره ، لأنني كنت أفوقه رزانة وهدوءاً وشعرت برغبة في نفعه إذا استطعت إلى ذلك سبيلا ، فقلت في نفسي : إنه يذهب بنفسه بعيداً بما يبديه من الحزم وضبط النفس ، فهو يكظم عواطفه في صدره فلا يبوح ولا يعترف بشيء . ولا ريب عندي في أن من مصلحته أن أحدثه قليلا عن (روزاموند) الفاتنة ، التي يعتقد أنه لايجدر به أن يتزوجها . ولكن لأحمله على الكلام !



فظل يتفرس فى الصورة ، وكان كلما أطال النظر اليها تشبث بها واشتهاها

فقلت أولا : « ألا اجلس يامستر ريفرز » . ولكنه أجاب كعادته أنه لايستطيع المكث ، فأجبته :

— حسناً جداً . قف لو شئت ، ولكنك لن تذهب ، فقد حزمت رأيي ! إن العزلة تشقيك كما تشقيني على الأقل . ولن أتركك حتى أجد منفذاً إلى صدرك المغلق لأصب فيه نقطة من بلسم عطفي .

وسألته فى برود : « هل هذه الصورة تشبه ؟ » .

— تشبه : تشبه من ؟ إنني لم أنعم فيها النظر .

— بل إنك فعلت يامستر ريفرز .

وروع باقتضابي العجيب ، ونظر مشدوها إليّ ، فقلت لنفسي : « آه ، إنك لم تسمع شيئاً بعد ! .. لن تخدعني صلابتك ، لأنني مستعدة للمضى معك إلى أبعد الحدود ؟ » .. ثم استرسلت قائلة : « إنك أمعنت النظر فيها وعن كثب ، ولكنى لا أعارض فى أن تتطلع إليها مرة أخرى » . ونهضت فوضعتها فى يده . وإذ ذاك قال : « إنها صورة بديعة الصنع ! هادئة واضحة الألوان . جميلة ، ومتقنة الرسم ! » .

— نعم . نعم . أعرف كل هذا . ولكن الشبه ؟ .. من تشبه هذه الصورة ؟ فسيطر على تردده وقال : « مس أوليفر .. على ما أظن ! » .

— بالطبع .. والآن ياسيدى ، لكى أكافئك على حدسك الدقيق أعدك بأن أرسم لك نسخة أخرى دقيقة أمينة من هذا الرسم ، على شريطة أن تعترف بأنك ستقبل الهدية ، ولأننى لا أحب أن أبعثر وقتى وجهدى فى هبة لاتقدرها !

فظل يتفرس فى الصورة . وكان كلما أطال إليها النظر ، تشبث بها

واشباها ، ثم غمغم قائلا : « إنها تشبهها !.. إن العين مرسومة جيداً .. والألوان والضياء والتعبير .. كلها متقنة . إنها تبتسم ! » .

— هل يرضيك أو يؤلمك أن تكون لديك صورة مماثلة لها . قل لى ! هل تجد عزاء فى هذا التذكار إذا كان بحوزتك فى مدغشقر أو رأس الرجاء الصالح أو الهند . أو أن رؤيته تثير أشجانك وأحزانك ؟

فرفع عينيه خلسة ليرمقنى فى قلق ، ثم عاد يتأمل الصورة وقال : « أما أننى أود الحصول على نسخة منها فهذا ما لا ريب فيه . وأما أن حصولى عليها من العدل أو الحكمة فهذا موضوع آخر ! » .. ولما كنت واثقة من أن روزاموند تفضله حقيقة ، وأن والدها لن يعترض فى الأرجح على قرانهما ، فقد شعرت فى سويدائى بميل شديد إلى أن أعمل على تحقيق هذه الرابطة . وخيل إلىّ أنه لو غدا المالك لثروة مستر أوليفر الضخمة لاستغلها خير استغلال بدل أن يترك عبقريته تذوى وقواه تتبدد تحت الشمس الاستوائية المحرقة . وبهذا الإغراء أجبت : « أرى من العدالة والحكمة أن تأخذ لنفسك الصورة الأصلية فى الحال ! » .

* * *

● وكان فى تلك الأثناء جالساً ، وقد وضع الصورة أمامه على المنضدة ، واعتمد بجبينه على كلتا يديه ، وراح يتأملها فى وجد وإعزاز ، فلم أر على أساريره أنه غاضب أو مذهول لجرأتى ، بل إننى رأيت أنه بدأ يشعر بارتياح جديد وراحة — فوق ما كان يرجو — إذ وجد من يصارحه بموضوع كان يشق عليه أن يمسه ، وأن يعالجه بهذا الإسراف . فالواقع أن الكتومين المتحفظين كثيراً ما يكونون أشد من سواهم حاجة إلى

حديث صريح يتناول متاعبهم وشجونهم . ومهما يكن فإن الذين يبدون تزمتاً فى الكتمان بشر رغم كل شىء ، فإذا نحن اقتحمنا عليهم عقر أرواحهم الساكنة — فى جرأة مستمدة من حسن النية — أسدينا إليهم معروفاً . لذلك قلت وأنا أقف خلف الصورة : « إننى واثقة من أنها تميل إليك وأن والدها يحترمك ، وهى فوق ذلك حلوة مع شىء من الخفة والنزق ، ولكن لديك ما يكفيها ويكفيك من الإدراك والتعقل ، فيجب أن تتزوجها » .

فسألنى : « وهل هى تميل إلىّ ؟ » .. وإذ ذاك قلت : « بكل تأكيد ، وأكثر مما تميل إلى أى شخص آخر ، فهى تتحدث عنك دائماً وباستمرار ، والحديث عنك من قريب أو بعيد هو أشهى الموضوعات لديها » .

— يسرنى أن أسمع ذلك . استمرى فى حديثك ربع ساعة آخر !

وفعلا أخرج ساعته ووضعها على المنضدة ليحصى الزمن . فسألته : « ولكن ما الفائدة من الاسترسال فى الحديث إذا كنت تعد مطرقة حديدية من الاعتراض ، وتسبك سلسلة جديدة تقيد بها قلبك ؟ » .

— لا تتوهمى مثل هذه الأشياء القاسية . تصورينى خاضعاً مستسلماً : إن الحب البشرى أشبه بنافورة أو ينبوع تفجر فى رأسى وأخذت سيوله تفيض على الحقل الذى أعددته بعناية وبذلت فيه مجهوداً كبيراً وزرعته ببذور النيات الطيبة والمشروعات المنطوية على إنكار الذات ، فإذا به الآن — وأخيراً — يغرق فى فيض من الرحيق .. ذلك السم اللذيذ !.. الآن أتصورنى مضطجعاً على متكأ فى غرفة الاستقبال فى (فيل هول) عند قدمى عروسى (روزاموند أوليفر) وهى تحدثنى بصوتها العذب

وتتطلع إلىّ بهاتين العينين اللتين أبدعت فى تصويرهما ، وتبتسم إلىّ بشفتين كالعقيق . إنها لى وأنا لها ، ولأقنع بحياتى الدنيوية .. الحياة الفانية !.. صه ! لاتفوهي بشىء ، فإن قلبي زاخر بالفرح والسرور وحواسى مسلوبة .. دعى الوقت الذى حددته يمر فى سلام !

وأطعته ، تمشياً معه .. وراحت الساعة تدق .. وكان يلهث بينما وقفت صامتة إلى أن انقضى ربع الساعة بسرعة وسط ذلك الصمت . فأعاد ساعته إلى جيبه ووضع الصورة فى موضعها ، ثم نهض من مكانه ووقف بجانب المدفأة ، وما لبث أن قال : « لقد خصصت هذه الفترة الوجيزة للترهات والأوهام ، فاعتمدت برأسى على وسادة الإغراء ، ووضعت عنق مختاراً تحت نير من الزهور ، وذقت كأس الإغراء فوجدت الوسادة تحترق ، وألفيت فى الإكليل حية سامة ، وفى النبيذ مرارة .. كما وجدت وعود الأوهام جوفاء كاذبة ، وعطاياها زائلة . لقد رأيت وعرفت كل هذا ! » .

وتفرست فيه مشدوهة ، بينما استرسل يقول : « من عجب أن أحب روزاموند أوليفر حباً طاغياً بكل مافى الحب الأول من حرارة وقوة ، وأن أجد فيها جمالا رائعاً وفتنة صارخة ، ومع ذلك فأنا أحس فى الوقت نفسه أنها لن تكون الزوجة الصالحة أو الشريكة التى تلائمنى ، وأننى لن ألبث أن أكتشف هذه الحقيقة قبل انقضاء عام على زواجنا . فأجدنى بعد اثنى عشر شهراً من الهناء والسرور ، مسوقاً إلى أن أقضى العمر فى ندم ! » .. فلم أتمالك أن هتفت : « إن هذا لعجيب فى الواقع ! » .

— بينما يفتتن شىء فى كيانى بسحرها ، يوجد شىء آخر فى دخيلتى

يقتنع بعيوبها التى لايمكن أن تلائم شيئاً من آمالى ، أو تعاوننى على شىء مما آخذه على عاتقى . هل تصلح روزاموند لأن تقاسى وتحمل وتكون زوجة مبشر ؟.. كلا !

— ولكن لاحاجة تدعوك إلى أن تكون مبشراً .. فى وسعك أن تتخلى عن المشروع .

— أتخلى عنه ! عن رسالتى ؟ عن عملى العظيم ؟ عن الأساس الذى أرسيه على الأرض ليكفل لى قصراً فى السماء ؟.. عن آمالى فى أن أكون فى عداد من انغمسوا واندمجوا فى أمل واحد هو السمو بجنسهم وحمل مشعل العلم إلى دنيا الجهل وإحلال السلام محل الحرب ، والحرية محل العبودية ، والدين محل الخرافة ، والأمل فى الجنة محل الخوف من الجحيم !.. أتريدين أن أتخلى عن ذلك ؟ إنه أغلى لدى من الدم الذى يجرى فى عروقى .. إنه عمل الذى أتطلع إليه وأرجو أن أعيش من أجله !

* * *

● وقلت بعد فترة طويلة من السكوت : « ومس أوليفر ؟.. ألا تهمك خيبة رجائها وأحزانها ؟ » .

— إن مس أوليفر محاطة على الدوام بالخطاب والمغازلين ، فلن ينقضى شهر واحد حتى تمحى صورتى من رأسها فتنسانى ، وربما تتزوج برجل آخر يجعلها أسعد مما أستطيع أنا .

— إنك تتكلم ببرود عجيب ، ولكنك تتعذب بهذا النضال ... إنك تذبل وتذوى ...

— كلا . إذا كان قد أصابنى شىء من الهزال فبسبب انشغال البال

على مشروعاتى التى لم تستقر بعد، وأسفارى التى أسوف فيها وأماطل.. وفى هذا الصباح فقط، تلقيت من خلفى — الذى كنت أتلهف على مقدمه وأنتظره بفارغ الصبر — أنه لن يكون متأهباً لشغل مكانى قبل ثلاثة أشهر أخرى، وقد تمتد هذه الأشهر إلى ستة.

— ولكنك ترتجف وتتورد وجنتاك كلما دخلت مس أوليفر غرفة التدريس.

ومرة أخرى تجلت على أساريره آيات الدهشة لأنه لم يكن يتصور أن تتجرأ امرأة على أن تتحدث إلى رجل بهذه اللهجة!.. أما أنا، فإننى لم أشعر بأية كلفة فى هذا النوع من الحديث، لأننى لم أكن أستطيع أن أستريح مع أصحاب العقول القوية الفطنة المثقفة — من الجنسين — مالم أتحرر من استحكامات التحفظ التقليدى، واجتز أعتاب الثقة، وأظفر بمكان ثابت الأركان فى القلوب. وأخيراً قال: «إنك تتحدثين بفطرتك دون أن تتهيبى، لأن فى روحك ضرباً من الشجاعة وفى عينيك قوة نافذة، ولكن اسمحى لى أن أؤكد لك أنك أسأت إلى حد ما فهم عواطفى وأنك تتوهمينها أعمق وأقوى مما هى فى حقيقتها، وتخلعين علىّ قدراً من الوجدانيات أكثر مما أدعى!.. إننى لا أرثى لنفسى عندما تتورد وجنتاى أو أرتجف أمام مس أوليفر، ولكننى أحتقر هذا الضعف، وأراه شيئاً لا يشرف ومجرد حمى تصيب الجسد، وليست وليدة توقد الروح الثابتة كالصخرة وسط بحر عجاج!.. فاعرفينى على حقيقتى: رجلا بارداً صلباً!».

فابتسمت غير مصدقة، ولذلك استطرد يقول: «لقد انتزعت

لنفى عنوة وهى الآن طوع خدمتك.. إننى فى حقيقتى — وبكل بساطة — مجرد من الثوب القانى الذى تغطى به المسيحية العيوب البشرية.. إننى رجل بارد قاس طموح، لا يسيطر علىّ دائماً سوى الحب الطبيعى — من دون العواطف الأخرى جميعاً — ويقودنى العقل لا الشعور. أما طموحى فلا حدود له، وأما رغبتى فى أن أسمو على الآخرين فهى جشعة لا تقنع. وإننى أمجد الاحتمال والمثابرة والجد والمواهب لأنها وسيلة الإنسان إلى تحقيق الغايات الكبرى والارتفاع إلى الذروة الشامخة.. ومن ثم فأنا أرقب عملك بلذة واهتمام لأننى أعتبرك أنموذجاً للمرأة الكدود، المنظمة، النشيطة، لا لأننى أشفق على ما أصابك وما زلت تقاسينه!».

قلت: كأنى بك تصف نفسك بأنك مجرد فيلسوف وثنى!

— كلا. هنالك هذا الفارق بينى وبين الفلاسفة الذين ينكرون الوحى.. إننى أؤمن.. وأومن بالإنجيل! ولقد خانك التعبير فأنا لست وثنياً وإنما أنا فيلسوف مسيحى من أتباع شريعة المسيح. وأنا كواحد من تلامذته، أعتنق عقائده الصافية الرحيمة الحميدة وأدافع عنها وأقسم أن أروج لها. ولما كنت قد كرست حياتى الشابة للدين، فقد تثقفت وهذبت مناقبى كما يلى: من البذرة الدقيقة لحب الطبيعى، نمت شجرة حب الإنسانية الوارفة الظلال. ومن جذور الاستقامة البشرية الليفية الكثيفة، ترعرع الإحساس بالعدالة الإلهية. ومن الطموح إلى اكتساب القوة والشهرة لنفسى الشقية البائسة، تكون الطموح إلى بسط مملكة إلهى وإحراز الانتصارات للواء المسيحية... لقد فعل بى الدين الكثير: إذ سما بعناصرى الأصلية وشذب طبيعتى. ولكنه لم يقو على محو الطبيعة نفسها

– ولن يقوى – لأن الطبيعة ستظل وتبقى إلى أن يقدر للإنسان الفانى أن يكتسب الخلود !

وما أن قال ذلك حتى تناول قبعته – التى كانت على المنضدة بجانب لوحة الألوان – ثم ألقى نظرة أخرى على الصورة وهمهم قائلا : « إنها جميلة جديرة فعلا بأن تسمى روزاموند .. أى وردة العالم ! » .

– أتريد أن أرسم لك صورة مثلها ؟

– وما الفائدة ؟.. كلا !

ثم غطى الصورة بغلاف من الورق الخفيف اعتدت أن أضع عليه يدى أثناء الرسم لأحول دون تلوث الورق المقوى . ولكن شيئاً فى هذه الورقة البيضاء – لم أعرفه – لفت بصره فجأة ، فشدها بقوة وتأمل طرفها ، ثم رمقنى بنظرة سريعة ، غريبة ، لم أدرك معناها ، ولكن خيل إلىّ أنها قد هبطت على كل جزء من جسمى ووجهى وثوبى ، واخترقتها جميعاً فى سرعة الوميض ، ثم فغر فاه وكأنه يهم بالكلام ، ولكنه حبس العبارة التى أوشك أن ينطق بها . فسألته : « ما الذى جرى ؟ » . فقال : « لاشئ » . ثم أعاد الورقة ورأيته يمزق شريطاً ضيقاً فى طرفها بمهارة وعناية ثم أخفاها فى قفازه ، وحنى لى رأسه على عجل قائلا : « طاب مساؤك » .. واختفى !

فصحت بلغة المقاطعة : « إن هذا يفوق كل شئ ! » .

ورحت بدورى أتفرس فى تلك الورقة دون أن أرى شيئاً غير آثار الألوان التى كنت أجربها بقلمى . ومضيت أفكر فى السر لبضع دقائق ،

فلما استعصى علىّ ولم أجد له حلا وأيقنت أنه ليس بالغ الأهمية ، أقصيته عن خاطرى ، وسرعان ما نسيته !

* * *

الفصل الثالث والثلاثون

● وعندما خرج مستر سانت جون ، كانت الثلوج قد بدأت تتساقط . وظلت الزوبعة الهوجاء تعصف طوال الليل . وفى اليوم التالى هبت رياح قارسة تحمل أمطاراً جديدة غزيرة . وفى الغسق كست الثلوج الوادى وسدت منافذه ، فأغلقت نافذتى ، ووضعت حصيرة عند الباب لمنع الثلوج من التسرب إلى الداخل ، ثم سويت النار فى موقدى . وبعد أن قضيت ما يقرب من الساعة أصغى إلى غضب العاصفة المكتومة الأنفاس ، أضأت شمعة وتناولت ديوان (مارميون) ..

وسرعان ما نسيت العاصفة .. على أننى ما لبثت أن سمعت جلبة ، فظننت أن الرياح تهز الباب . ولكن ، كلا .. كان ذلك سانت جون ريفرز الذى رفع مزلاج الباب ثم دخل هارباً من العاصفة الثلجية والظلام العاوى . ووقف أمامى وقد بدت العباءة التى تغطى قوامه الطويل أشبه فى بياضها بصفحة من الزجاج . وكاد الذعر أن يتولانى لأننى لم أكن أتوقع أى زائر – فى تلك الليلة – من الوادى الذى سدت الثلوج منافذه . فسألته : « هل هناك أنباء سيئة ؟ هل حدث شئ ؟ » .

فأجاب وهو يخلع عباءته ويعلقها بالباب : « كلا .. ما أسهل أن ترتاعى ! » .. ثم أعاد الحصير إلى مكانه عند الباب ، وضرب الأرض

بقدميه ليزيل الثلوج عن حذائه وقال : « أخشى أن ألطخ أرض حجرتك ، ولكنى أطمع فى صفحك على الفور ! » .

واقترب بعد ذلك من الموقد وقال : « لقد عانيت مشقة كبيرة فى الوصول » .

وراح يدفئ يديه على اللهب . ثم قال : « لقد أغرقتنى لفحة من العاصفة إلى وسطى فى الجليد ، ولكن الجليد كان بعد طرياً لحسن الحظ ! » .. ولم أملك سوى أن أسأله : « ولكن لماذا أتيت ؟ » .

— هذا سؤال لايتفق مع كرم وفادة الزائر ، ولكن مادمت قد وجهته إلىَّ فإنى أجيبك ببساطة بأنى أردت أن أتحدث معك قليلا ، فقد مللت كتبى الصامتة ومسكنى الخاوى .. هذا إلى أنى — منذ الأمس — تملكنى قلق الشخص الذى سمع من القصة نصفها ، فهو يتلهف على سماع البقية المكملة ! » .

ثم جلس .. وتذكرت سلوكه الشاذ فى اليوم السابق ، فخلت أن به مساً من الجنون ، وأنه — إذا صح أنه ملتاث العقل حقيقة — فإن خبله هادئ رزين . والواقع أنى لم أر ذلك الوجه المليح القسمات أكثر شبهاً بالرخام المنحوت مما رأيته إذ ذاك ، حين رفع شعره المبلل بالثلوج جانباً وترك ضياء المدفأة يملأ جبينه المتقع ووجنتيه الشاحبتين حيث اكتشف للأسف والأسى آثار العناء والحزن غائرة فى وضوح . وترقبت فى انتظار أن يقول شيئاً أستطيع على الأقل أن أفهمه ، ولكن يده كانت مرفوعة إلى ذقنه ، وإصبعه على شفته ، وهو غارق فى التفكير !.. وأذهلنى أن أرى يده معضنة كوجهه ، ولعل موجة من الرثاء طغت آنذاك على قلبى

فقلت : « ليت ديانا ومارى تأتيان وتعيشان معك ، فليس أسوأ من أن تعيش وحدك ولا تبالى صحتك ! » .

— كلا مطلقاً .. إنى أعنى بنفسى عند اللزوم . وأنا الآن بخير . أى نقص ترينه فىَّ ؟

وعاد يحدق بعينيه فى الموقد . وإذ رأيت ضرورة التعجيل بقول شىء ما ، سألته فجأة عما إذا كان يشعر ببرد ينبعث من ناحية الباب القائم خلفه ، ولكنه أجابنى فى اقتضاب وعناد : « كلا .. كلا ! » .. فقلت فى نفسى : « حسناً !. ما دمت تأبى أن تتكلم فلأتركك لصمتك ووحدتك وأعود إلى ديوانى ! » .

* * *

● وتظفت فتيلة الشمعة ، ثم عدت أتصفح ديوان (مارميون) . وسرعان ما تحرك فانجذبت عيناى إلى حركته ، فوجدته يخرج حافظة من الجلد الرقيق ، وأخذ منها خطاباً جعل يقرؤه فى صمت وسكون ، ثم طواه وأعاده ، ليغرق فى بحور التفكير من جديد .. ورأيت من العبث أن أقرأ أمام هذا المتسمر فى مكانه هكذا ، ولم أقو على أن أظل خرساء وقد نفد صبرى لطول ذلك الصمت ، فلم أبال بغضائه وقلت : « هل تلقيت أنباء من ديانا ومارى أخيراً ؟ » .

— لا شىء بعد الخطاب الذى أطلعتك عليه منذ أسبوع .

— هل حدث أى تغيير فى مشروعاتك ؟ هل ستدعى إلى مغادرة انجلترا بأسرع مما كنت تتوقع ؟

— لا أظن ذلك فى الحقيقة ، فإن مثل هذا الحظ لا يواتينى !

وحرت فى أمره فرأيت أن أغير مجرى الحديث ، وفكرت فى أن أحدثه عن المدرسة والتلميذات فقلت : « لقد تحسنت صحة أم مارى جاريت عن ذى قبل ، ومن ثم عادت مارى إلى المدرسة فى هذا الصباح . ولسوف تفد إلينا أربع تلميذات جديدات من مسبك (كلوز) ولولا الثلج لحضرن اليوم » .

– صحيح ؟

– ويتولى مستر أوليفر الإنفاق على اثنين منهما .

– كذا ؟

– إنه يعتزم إقامة وليمة للمدرسة كلها فى عيد رأس السنة .

– أعرف ذلك .

– أكان هذا اقتراحك ؟

– كلا .

– اقتراح من إذن ؟

– اقتراح ابنته فيما أعتقد .

– ليس هذا بمستغرب منها ، فهى طيبة القلب جداً .

ثم ران الصمت مرة أخرى ودقت الساعة الثامنة ، فصحا من تأملاته واعتدل فى جلسته ليقول : « دعى كتابك لحظة واقتربى من المدفأة قليلا ! » . فعجبت ، ولكن عجبى لم يجد ما يقع عليه فرضخت . واسترسل يقول :

– حدثتك منذ نصف ساعة عن شوقى لسماع تكملة القصة ، ولكنى وجدت بعد التأمل والتفكير أنه من الأفضل الآن أن أقوم بدور القصاص

وأن تتحولى أنت إلى دور المستمعة . ويحسن أن أنبئك – قبل أن أبدأ – إلى أن القصة ستقع فى أذنيك موقع الابتذال ، لكن التفاصيل المبتذلة تستعيد فى الغالب شيئاً من الجدة إذا نطقت بها شفاه جديدة : فمنذ عشرين عاماً ، وقع قسيس صغير – لاأبالى اسمه الآن – فى غرام ابنة ثرى ، ووقعت هى الأخرى فى غرامه ، فتزوجا برغم نصيحة جميع أهل الفتاة الذين تبرأوا منها على أثر زفافهما .. ولم ينقض عامان ، حتى توفى العاشقان ودفنا فى سكون جنباً إلى جنب ، وقد رأيت قبرهما ؛ فهو يؤلف جزءاً من حافة الساحة الهائلة المحيطة بكاتدرائية عتيقة ، سود الدخان جدرانها ، فى مدينة صناعية مترامية الأطراف ، فى مقاطعة (...) ، ولقد خلفا ابنة تلقفها الإحسان فى حجره البارد ؛ الذى يشبه اللفحة الجليدية التى دهمتنى الليلة . وحمل الإحسان الطفلة العديمة النصير إلى بيت خالها الغنى ، حيث ربتها زوجة الخال ، وكانت تدعى – وهنا أذكر الأسماء – مسز ريد من (جيتسهيد) .. لماذا ارتعت ؟ .. هل سمعت جلبة ؟! .. إنما هى قطة تزحف بين ألواح سقف المدرسة المجاورة ، فقد كان المبنى يوماً مخزناً للغلال ، وهذه المخازن ترتادها الفئران عادة .. وأعود لقصتى فأقول إن مسز ريد تولت تربية اليتيمة عشر سنوات . أما هل كانت الفتاة سعيدة أو كانت شقية ، فلا أستطيع الجزم ، ولم يخبرنى أحد ، ولكنها نقلت فى نهاية تلك السنوات إلى مكان تعرفينه أنت ، وهو مدرسة (لو وود) حيث قضيت فترة طويلة . ويبدو أن سيرتها هنالك كانت ناصعة ، لأنها لم تلبث أن أصبحت معلمة ثلك . حقاً ، يدهشنى أن ثمة تشابهاً بين تاريخها وتاريخك ! .. ثم غادرت

الفتاة المدرسة واشتغلت مربية — مثلك — لفتاة قاصرة تحت وصاية رجل يدعى مستر روشستر .

وهنا قاطعته هاتفة : (مستر ريفرز !) .. فقال : « بوسعى أن أحدس مشاعرك ، ولكن عليك أن تكبحيها قليلا ، إذ كدت أنتهى ، فاسمعينى إلى النهاية . إننى لا أعرف شيئاً عن أخلاق مستر روشستر اللهم إلا أنه أراد الزواج بتلك الفتاة الشابة ، فاكتشفت وهى أمام المذبح تماماً أنه متزوج بأخرى على قيد الحياة — وإن كانت مجنونة — ولا أدرى ماذا عرض عليها بعد ذلك . ولكن عندما وقع حادث استوجب البحث عن الفتاة بعد ذلك ، تبين أنها فرت — دون أن يدرى أحد متى وأين وكيف فرت — وأنها غادرت (ثورنفيلد هول) ليلا . وذهب سدى كل بحث عنها . ومع ذلك كان لزاماً أن يستأنفوا البحث ، فنقبوا فى طول الريف وعرضه دون الاهتداء إلى أثر لها ، ونشرت الإعلانات فى جميع الصحف . وأنا شخصياً تلقيت خطاباً من محام يدعى مستر بريجز ذكر فيه البيانات التى رويتها لك الآن . أليست قصة عجيبة ؟ » .

قلت : « مادمت تعرف كل هذا ، فلابد أنك تستطيع أن تنبئنى بشىء عن مستر روشستر . كيف وأين هو الآن ؟ » .

— إننى أجهل كل شىء عن مستر روشستر ، فإن الخطاب لم يذكر عنه إلا المحاولة غير الشرعية التى ألمعت إليها ، ولكن يحسن أن تسألى عن اسم المربية وعن ماهية الحادث الذى يتطلب ظهورها !

— ألم يذهب أحد إذن إلى ثورنفيلد هول ؟ .. ألم ير أحد مستر روشستر ؟

— لا أظن .

— ولكنهم كتبوا إليه ؟

— يشير مستر بريجز فى خطابه إلى أن الجواب الذى تلقاه لم يكن من مستر روشستر وإنما من سيدة تدعى أليس فيرفاكس »

فشعرت ببرودة قارسة وباكتئاب ، وخشيت أن تكون مخاوفى قد تحققت ، إذ يحتمل جداً أن يكون مستر روشستر قد غادر إنجلترا ، ودفعه تهوره إلى أن يهيم على وجهه فى أوربا . أى مسكن لآلامه المضنية وأية غاية لعواطفه المشبوبة يلتمس هنالك ؟ .. ولكننى لم أجرؤ على الرد عن هذا السؤال .. أواه ياسيدى المسكين ، الذى كاد أن يصبح زوجى يوماً ، والذى طالما ناديته « عزيزى إدوارد » !

وقال مستر ريفرز : « لابد أنه كان شريراً » ، فهتفت بحرارة : «إنك لاتعرفه فلا تبد رأياً فيه!» . ولكنه أجابنى فى هدوء : «حسناً جداً . الواقع أن رأسى مشغول بأمور أخرى غيره . ولدى قصتى أريد الانتهاء منها . وما دمت لا تريدين سؤالى عن اسم المربية فيجب أن أذكره من تلقاء نفسى .. انتظرى ! إننى أحتفظ به هنا .. فمن دواعى الارتياح أن يدون الإنسان النقط الهامة بالمداد » . ثم أخرج مرة أخرى حافظته فى أناة ، وفتحها وفتشها ثم أخرج من بعض عيونها قصاصة متسخة قطعت على عجل . فأدركت من نسيجها ومن الألوان التى كانت تلطخها أنها القصاصة التى قطعها بالأمس من غلاف الصورة ! .. ثم قام ووضع الورقة أمام عينى ، فقرأت كلمتى (جين إير) مكتوبتين بالحبر الهندى ، وبخط يدى ، ولابد أننى كتبتهما فى لحظة شرود .

● وقال القس الشاب : « لقد كتب إلى مستر بريجز عن جين إير ، وطلبت الإعلانات البحث عن (جين إير) ، وإذ كنت أعرف من تسمى جين اليوت ، فقد ساورنى الشك الذى لم يتأكد ويتحقق إلا عصر أمس ، فهل تعترفين باسمك الحقيقى ؟ » .

— نعم . نعم . ولكن أين مستر بريجز ؟ إنه قد يكون أكثر منك معرفة بأنباء مستر روشستر !

— إن بريجز فى لندن ، وأشك فى أنه يعرف شيئاً عن مستر روشستر . لأن اهتمامه ليس موجهاً إليه . ولكنك تنسين النقط الهامة ولا تبتغين سوى الأمور التافهة ! لماذا لا تسألينى عن السبب الذى يبحث مستر بريجز عنك من أجله وفيم يريدك ؟

— حسناً . ماذا يريد ؟

— لا يريد سوى أن يخبرك بأن عمك مستر إير من (ماديرا) قد توفى ، وأنه ترك لك كل ثروته ، وأنك الآن غنية !.. هذا كل شىء ، ولا أكثر من ذلك !

— أنا .. غنية ؟

— نعم . أنت غنية .. ووارثة !

وساد السكون إلى أن قطعه سانت جون فجأة بقوله : « إن عليك بطبيعة الحال أن تثبتى شخصيتك ، وهى خطوة لن تجدى فيها صعوبات ، وتستطيعين بعدها أن تستولى على إرثك فى الحال . إن ثروتك مودعة فى المصارف الإنجليزية ، ولدى بريجز الوصية والمستندات اللازمة ! » .

وهكذا قلبت صفحة جديدة فى سفر حياتى . إنه شىء جميل — أيها

القارئ — أن ترتفع فى لحظة من الفقر المدقع إلى الثراء .. شىء جميل ، ولكنه أمر لا يمكن أن نفهمه ونستوعبه مباشرة وعلى الفور !.. ثم إن فى الحياة مصادفات أكثر إثارة وأبهج من هذه التى بدت جامدة .. مجرد حدث من أحداث الدنيا ، ليس فيه — أو حوله — شىء من المثل العليا . كما أن كل ملابساته جامدة وقورة ، وكذلك كانت مظاهره . فليس فيه مفاجأة تجعل الإنسان يثب أو يقفز أو يتهلل من الفرح ! بل إنه ما يكاد يظفر بالثروة حتى يبدأ التفكير فى المسئوليات والتبعات والعمل . وما أن يستتب الشعور بالرضى حتى تنشأ — على أساسه — الشواغل والهموم ، فننطوى على أنفسنا ونطيل التفكير فى النعمة التى حلت بنا ، بجبين مكفهر !

هذا إلى أن كلمتى « ميراث ووصية » تسيران جنباً إلى جنب مع كلمتى « موت وجنازة » . لقد كان عمى الذى سمعت بموته هو قريبى الوحيد ، وقد عشت — منذ فطنت إلى وجوده — بأمل أن أراه فى يوم من الأيام ، أما الآن فقد انقطع هذا الأمل ، ثم جاءتنى أمواله بدلا منه ، لا لى — وأنا ربة أسرة تنعم بالمفاجأة — وإنما لى ؛ وأنا وحيدة ، منعزلة !.. ومع ذلك فقد كانت المفاجأة نعمة عظيمة .. ولسوف يكون تحررى من الفاقة أمراً عجيباً .. أجل ، لقد شعرت بذلك .. ولقد امتلأ قلبى سعادة .

وقال مستر ريفرز ، إذ بلغت هذا الحد من تفكيرى : « ها قد رفعت جبينك أخيراً ، وكنت أحسبك قد تحولت إلى حجر !.. ولعلك تسألينى الآن كم تساوين ؟ » .

— نعم كم أساوى الآن ؟

– أوه .. شيئاً تافهاً ! شيئاً لا يستحق الذكر ! أظنهم يقولون عشرين ألف جنيه !

– عشرين ألف جنيه ؟

وكانت هذه مفاجأة جديدة ، إذ كنت أتوقع ألا تعدو الثروة أربعة أو خمسة آلاف ، فاحتبست أنفاسي لحظة ؛ مما جعل سانت جون – الذي لم أسمعه يضحك من قبل – يقهقه ويقول : « عجباً !.. لو أنك اقترفت جريمة قتل ثم أخبرتك بأن جريمتك قد اكتشفت ما أبديت كل هذه الدهشة ! ».

– إنه مبلغ كبير . ألا تعتقد أن هناك غلطة ما ؟.

– لا غلطة هناك على الإطلاق .

– لعلك أخطأت في قراءة الأرقام .. ربما كانت ألفي جنيه !

– إنها مكتوبة بالحروف لا بالأرقام .. عشرون ألفاً !

ومرة أخرى ، شعرت كأنني مخلوقة ذات شهية معتدلة للأكل ، جلست وحيدة إلى مائدة حفلت بما يكفي مائة شخص ! .. وهنا ، نهض مستر ريفرز ، فالتف بعباءته قائلاً : « لو لم تكن الليلة عاصفة لأرسلت حنة لتبقى في رفقتك ، لأنك أتعس نفساً من أن تظلي وحدك ، ولكن حنة المسكينة لا تستطيع أن تخوض مثل الثلوج ، ولذلك يجب أن أتركك ».

وفيما كان يرفع المزلاج خطرت برأسي فكرة مفاجئة ، فصحت :

– إن ما يحيرني هو : لماذا كتب لك مستر بريجز عني ، وكيف عرفك أو خطر بباله أنك – وأنت تعيش في مكان لا علاقة له بأمري – تستطيع أن تعاونه في العثور عليّ ؟ !

– آه ! .. إنني قسيس ، والقساوسة يلجأ إليهم في الملمات .

* * *

● ومرة أخرى جلجل المزلاج فصحت : « لا .. هذا جواب لا يقنعني ! » .. والواقع أن شيئاً في رده العاجل ، المبهم ، أذكى فضولي بدلا من أن يهدئ جأشي ، فاسترسلت أقول : « إنه لأمر عجيب ، ولابد لي من أن أعرف المزيد عنه » . فهتف : « كلا .. ليس الليلة ! ».. وإذ استدار إلى الباب ، وقفت بينهما ، فتجلى عليه الارتباك ولكني قلت :

– لن تذهب من هنا حتى تخبرني بكل شيء .

– أوثر ألا أفعل ذلك الآن .

– بل لسوف تخبرني !.. يجب !

– من الخير أن تخبرك ديانا أو ماري .

وأثارت هذه الاعتراضات – بطبيعة الحال – لهفتي ، وبلغت بها الذروة ، فكان لابد من أن أشبعها دون إبطاء . وأخبرته بذلك فقال :

– ولكني قلت لك إنني رجل قاس يصعب إغراؤه .

– وأنا امرأة قاسية صلبة يصعب إرجاؤها .

– أنا رجل بارد لا تؤثر فيه حرارة أو حماسة .

– وأنا حارة .. نار تذيب الثلج ، كهذا الوهج الذي أذاب الجليد عن عباءتك فانهمر على أرض حجرتي وجعلها كشارع تطرقه الأقدام .. إنك تريد أن أعفيك ، فهلا أخبرتني بما أريد ؟

– حسناً إذن ، لقد استسلمت .. إن لم يكن لضراعتك ، فلمثابرتك ●

فإن الحجر يبليه توالى سقوط القطرات . هذا إلى أنك ستعلمين بالأمر يوماً ما ، عاجلا أو آجلا .. هل اسمك جين إير ؟

— بالطبع . لقد فرغنا من هذا الأمر من قبل .

— لعلك لا تعلمين أنى أحمل لقبك ، وأن اسمى سانت جون آير ريفرز ؟

— كلا فى الحقيقة . لقد رأيت حرف (آ) على كل كتاب استعرته منك ، ولكنى لم أسألك قط عن بقية الاسم . وماذا بعد ذلك ؟.. لاشك أن ...

ثم توقفت لأننى لم أجد من نفسى قدرة على التسليم بالفكرة التى خامرتنى فجأة ، ولا على التعبير عنها بعد أن تجسمت وبدت لى فى الحال قريبة الاحتمال .. لقد تعقدت الأمور ثم انتظمت ، ثم تحولت السلسلة المكدسة إلى عقد منظوم تتصل كل حبة فيه بالأخرى . ولقد عرفت بغريزتى ماهية الأمر قبل أن ينطق سانت جون بكلمة واحدة ، ولكنى لايمكن أن أتوقع للقارئ نفس هذه البصيرة البديهية ، ولذلك يجب أن أعيد عليه ما أوضحه سانت جون ، إذ قال :

— كان (آير) اسم والدى . وكان له شقيقان .. أحدهما قسيس تزوج مس جين ريد من (جيتسهيد) ، والثانى جون آير التاجر بجزيرة ماديرا . ولما كان مستر بريجز محامى مستر جون آير ، فقد كتب إلينا فى أغسطس يخبرنا بوفاة خالنا ، ويقول إنه ترك ثروته لابنة القسيس اليتيمة ، وأنه لم يوص لنا بشىء لأنه لم يستطع أن ينسى الضغائن القديمة التى خلفها ما قام بينه وبين أبى من نزاع . ثم كتب مرة أخرى منذ

أسابيع يقول إن الوارثة مفقودة ، ويسألنى عما إذا كنت أعرف عنها شيئاً . وقد وقعت عيناى مصادفة على اسم مكتوب على ورقة ، فإذا بى أهتدى إليها .. وأنت تعرفين الباقى !

وهمّ بالذهاب مرة أخرى ، ولكننى دفعت الباب بظهرى وقلت : « أرجو أن تدعنى أتكلم . اترك لى دقيقة أسترد فيها أنفاسى وأفكر » .. وتوقفت ، فوقف أمامى وقبعته فى يده . وكان بادى الارتباك ، فاستطردت أقول :

— هل كانت والدتك شقيقة أبى ؟

— نعم .

— إذن ، فهى كانت عمتى !

فحنى رأسه موافقاً .

— وإذن فقد كان خالك جون هو عمى جون . وأنت وديانا ومارى أبناء شقيقته كما أننى ابنة أخيه ؟

— بلا مراء !

— إذن فأنتم الثلاثة أبناء عمتى ، ويتدفق نصف دمنا من معين واحد ؟

ونظرت إليه ، فخيل لى أننى وجدت شقيقاً أستطيع أن أفخر به وأحبه ، وشقيقتين سحرتنى أخلاقهما — عندما عرفتهما وكانتا مجرد غريبتين عنى — بحيث أثارتا فى نفسى الحب والإعجاب . وإذن فالفتاتان اللتان ركعت على الأرض المبللة لأنظر إليهما خلال النافذة المغطاة بالدانتلا ، بمطبخ (مورهاوس) نظرات تفيض بالاهتمام واليأس كانتا من أقرب أهلى ، وإذن فالسيد الشاب الذى وجدنى مشرفة على



وهم باللحاق مرة أخرى ، ولكنني دفعت الباب بظهرى وقلت :
« أرجو أن تدعنى أتكلم . اترك لى دقيقة أسترد فيها أنفاسى وأفكر »

الموت على عتبة داره ، كان من ذوى رحمى !.. ياله من اكتشاف رائع لبائسة وحيدة !.. لقد كانت هذه ثروة فى الحقيقة ، وأى ثروة !.. ثروة للقلب ، ومنجماً للحب الصافى الأصيل ، ونعمة مشرقة زاهية مبهجة ، ليست كهبة الذهب الثقيل !.. وصفقت بيدى فى فرحة مفاجئة ، وقد وثب قلبى فى صدرى ، وثارت عروقى وصحت :

— أواه .. إننى مسرورة !.. إننى مسرورة !

فابتسم سانت جون وسألنى : « ألم أقل إنك أهملت النقط الهامة لتتعقبى التوافه ؟.. لقد كنت رزينة عندما أخبرتك بأنك أصبحت ثروة ، وهأنتذى الآن منفعلة أشد الانفعال ! » .

— ماذا تعنى ؟ قد لا يهمك الأمر ، لأن لك شقيقتين . أما أنا فلم يكن لى أحد . فوجدت الآن ثلاثة أقرباء أو اثنين إذا كنت لا ترضى أن أعدك معهما . إننى أكرر أننى مسرورة !

* * *

● ورحت أخطر فى الغرفة بخطوات مسرعة ، ثم وقفت وقد أوشكت أن أختنق بالأفكار التى تدافعت إلى رأسى متزاحمة حتى عز على إدراكها أو تنسيقها .. وكانت أفكاراً تدور حول ما قد يكون ، وما يمكن أن يكون ، وما يجب أن يكون !.. وتطلعت إلى الجدار الأملس الأبيض ، فخيل إلىّ أنه سماء تتألق بالنجوم . وفاضت نفسى بالفرح إذ أدركت أنه قد أصبح فى وسعى أن أنفع أولئك الذين أنقذوا حياتى ، والذين أحببتهم حتى هذه الساعة حباً خالصاً ، منزهاً عن الغرض .. لقد كانوا يرسفون تحت نير الحياة القاسية ، وفى وسعى أن أحررهم .. لقد كانوا متفرقين ،

مشتتين ، فأصبح فى مقدورى أن أجمع شملهم .. لماذا لا ينعمون هم الآخرون بما أنعم به من استقلال ؟.. ألم تكن أربعة ؟. إذن فلو قسمت الجنيهات العشرون ألفاً بالتساوى بيننا ، لأصاب الواحد منا خمسة آلاف تكفيه ، بل تزيد عن حاجته !.. إذن فلابد للعدالة من أن تأخذ مجراها ، فتشملنا السعادة جميعاً !.. وإذ ذاك لم أعد أشعر بالثروة عبئاً يثقل كاهلى ، لأنها لم تعد فى نظرى مجرد ميراث نقدى ، وإنما غدت وثيقة الحياة والأمل والنعيم !

ولست أدرى ما الذى ارتسم على وجهى إذ طافت هذه الخواطر برأسى وثار تحمسى لها ، ولكنى أبصرت بمستر ريفرز يحمل مقعداً فيضعه خلفى ، ويروح يغرينى بالجلوس ، وينصحنى بضبط عواطفى. غير أنى سخرت مما خاله خوراً أصابنى ، فدفعت يده ، وجعلت أذرع الحجرة من جديد ، ثم قلت له : « اكتب إلى ديانا ومارى غداً لتعودا فى الحال . لقد سمعت ديانا تقول إنها تعد نفسها غنية إذا هى ظفرت بألف جنيه ، فما بالك بهما لو أن كلا منهما ظفرت بخمسة آلاف ؟ » . فقال سانت جون : « تثبتى ، من أين آتيك بكوب ماء ؟ .. » .

— هراء !.. ترى كيف كان يحتمل أن يكون تأثير الوصية عليك ، لو أنها كتبت لصالحك ؟.. أفكانت تستبقيك فى انجلترا ، وتغريك بالزواج من مس أوليفر ، وبالاستقرار كغيرك من بنى البشر ؟

— إنك تهذين .. لقد اختبلت !.. لقد كنت متدفعاً فى إزجاء النبأ إليك ، فقد أثار انفعالك أكثر مما تحتمل قواك !

— إنك تفقدنى صبرى يامستر ريفرز !.. إننى مكتملة العقل ، ولكنك أنت الذى تسىء الفهم ، أو تتعمد إساءة الفهم !

— قد أغدو أكثر إدراكاً ، لو أنك زدتنى إيضاحاً بعض الشىء.

— إيضاح !.. ما الذى هناك للإيضاح ؟..ما أظنه يعييك أن ترى أن العشرين ألف جنيه — وهو المبلغ الذى نحن بصدده — إذا قسمت بالتساوى على أبناء الخؤولة الأربعة ، فإنها تتيح لكل منهم خمسة آلاف !.. والذى أبغيه هو أن تكتب لشقيقتيك وتنبئهما بالثروة التى أصابتهما .

— تعنين .. أصابتك .

— لقد انتهيت إلى رأى فى الأمر ، وليس بوسعى أن آخذ رأياً سواه . إننى لا أتصف بأنانية هوجاء ، ولا بظلم أعمى ، ولا بجحود مزر. ثم إننى عقدت العزم على أن يكون لى بيت وأقارب . ولما كنت أحب (مورهاوس) ، لذلك فسوف أعيش فى (مورهاوس) .. وبما أننى أحب ديانا ومارى ، لذلك فسأربط حياتى بحياة ديانا ومارى .. ولسوف يرضينى ويفيدنى أن أمتلك خمسة آلاف من الجنيهات ، ولكن .. سيعذبنى ويرهقنى أن أمتلك عشرين ألفاً ، هى — فوق ذلك — ليست من حقى شرعاً ، وإن أمكن أن تكون حقاً لى بحكم القانون . ومن ثم فسأتنزل لكم عما هو أكثر مما أستحق فعلا .. فدع كل معارضة وكل مناقشة فى ذلك ، ولنتفق فيما بيننا !

— هذا تصرف من وحى انفعالاتك الأولى ، فلابد من أن تتريثى أياماً لتدرسى مثل هذا الأمر ، حتى تكون كلمتك صائبة !

— آه !.. إذا كان صدق عزمى هو كل ما ترتاب فيه ، فاطمئن .. ألا تؤمن بعدالة المسألة ؟

— الحق أننى أرى فيها قسطاً من العدل ، ولكنها مخالفة لكل عرف . ثم إن الثروة بأكملها من حقك ، وقد اكتسبها خالى بجهوده ، ومن ثم كانت له الحرية فى أن يتركها لمن يشاء ، وقد تركها لك .. والعدالة تبيح لك — برغم كل شىء — أن تستأثرى بها ، فلك أن تعتبريها ملكك المطلق ، وأنت مرتاحة الضمير !

— إن المسألة لدى مسألة مشاعر كما هى مسألة ضمير ، إذ لابد لى من أن أفهم مشاعرى هنا ، فنادراً ما سنحت لى الفرصة لهذا .. ولو أنك حاججتنى ، وعارضتنى ، وضايقتنى عاماً بأكمله ، لما أثنيتنى عن المتعة العذبة التى لاح لى قبس منها .. متعة رد جميل هائل بعرفان بسيط ، واكتساب أصدقاء يحيطون بى مدى الحياة !

قال : « إنك إنما ترين الآن ذلك ، لأنك لم تعرفى بعد متعة التملك ، ولا لذة الثراء .. ليس بوسعك أن تكونى فكرة عن قيمة العشرين ألف جنيه لديك ، ولا عن المكانة التى تستطيع أن ترفعك إليها فى المجتمع ، ولا عن الفرص التى ستفتحها أمامك .. ليس بوسعك .. » . فقاطعته قائلة : « وليس بوسعك أنت أن تتصور الحنين الذى يتملكنى نحو حب الأخ وحب الأخت .. إننى لم أحظ يوماً ببيت ، ولا كان لى إخوة ولا أخوات ، فلابد لى الآن من كل ماحرمت منه .. أتحجم عن أن تتقبلنى أختاً ؟ » .

— بل سأكون أخاك ياجين ، وستكون شقيقتاى شقيقتيك ، دون ما داع لأن تضحى بحقوقك .

— أخ ؟ .. أجل ، على آلاف الفراسخ منى .. وشقيقتان ؟ .. نعم ، تشقيان فى خدمة الأغراب .. أفأكون غنية ، متخمة بذهب لم أكتسبه ولا أستحقه ، وأنتم معدمون ؟ .. يالها من مساواة ومن إخاء ! .. ألا قرب البعيد ، ووثق الرابطة !

— ولكن آمالك فى الروابط العائلية والسعادة المنزلية يمكن أن تتحقق ياجين بطريقة غير التى تفكرين فيها .. بوسعك أن تتزوجى .

— هراء !.. أأعود مرة أخرى إلى فكرة الزواج ؟!.. لست أريد زواجاً ، ولن أتزوج .

— هذا إسراف فى القول ، وما هذه التأكيدات الملقاة جزافاً ، إلا دليل على الانفعال الذى تعانينه .

— ليس هذا إسرافاً فى القول ، فإننى أدرك ما يختلج فى صدرى ، وأعرف مدى نفور نفسى من مجرد التفكير فى الزواج . إن أحداً لن يقبلنى زوجة من أجل الحب وحده ، بل سأكون مجرد صفقة مالية . ثم إننى لا أريد معاشرة غريب ، أجنبى عنى ، لا تربطه بى عاطفة ، وإنما أنا أنشد الأقارب الذين أشعر بأننى منهم وهم منى . قل مرة أخرى إنك ستكون أخى .. لشد ما شعرت باغتباط وسعادة حين نطقت بهذه الكلمات .. كررها ، إذا استطعت أن ترددها صادقاً !

— أعتقد أن هذا بوسعى .. إننى لأوقن من أننى كنت دائماً أحب شقيقتى ، وأدرك الأساس الذى قام عليه حبى لهما : احترامهما ،

والإعجاب بمواهبهما .. وأنت الأخرى لك مبدأ وعقل راجح ، كما أن أذواقك وعاداتك تشبه أذواق وعادات ديانا ومارى ، ولقد ارتحت دوماً إلى وجودك ، ووجدت فى حديثك سلوى وتسرية ، ومن ثم فإننى أشعر أن من السهل علىّ أن أفسح لك مكاناً فى قلبى ، دون ما تكلف، فتصبحى أختاً ثالثة .

ــ شكراً .. إن هذا يسعدنى فى أعماقى . والآن ، يحسن بك أن تنصرف لأنك تهيج شجونى ببعض الهنات التى تنم عن تردد ، إذا أنت أطلت المقام .

فابتسم فى تقدير ، وتصافحنا . ثم انصرف .. ولست بحاجة إلى أن أروى ألوان الصراع التى دارت ولا الجدال الذى جرى بعد ذلك ، حتى استطعت أن أنفذ ما شئت بصدد الميراث .. كانت مهمتى شاقة ، ولكنى كنت قد عقدت العزم ، وقد لمس أبناء عمى مدى تشبثى بتقسيم الميراث بيننا ، كما أحسوا فى قرارات قلوبهم بصدى لما كان يعتلج فى سويدائى .. ولا بد أنهم شعروا بأنهم ما كانوا يفعلون غير مافعلت لو أنهم كانوا فى مكانى ، ومن ثم فقد انتهوا ــ فى آخر الأمر ــ إلى أن يقيموا بينى وبينهم من يحكم فى المسألة .. واختير مستر أوليفر ، أحد المحامين الأكفاء للفصل ، فأقرا رأيى ، ومن ثم انتصرت رغبتى . وسرعان ما اتخذت الإجراءات الرسمية للقسمة ، وأصبح كل من سانت جون ، وديانا ، ومارى ، وأنا يملك نصيباً مساوياً لنصيب كل من الآخرين !

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

● كان عيد الميلاد قد اقترب ، عندما تمت التسوية ، وأشرف موسم العطلات فأغلقت مدرسة (مورتون) ، وقد حرصت على ألا يكون فراق لها جافاً ، مجدباً ، فإن الحظ الطيب يفتح اليد كما يفتح القلب بمهارة عجيبة ، والمرء حين يمنح قسطاً ما من العواطف ، فى مقابل الكثير الذى تلقاه ، إنما يخفف من جيشان الأحاسيس المضطرمة فى فؤاده . فلقد طالما شعرت باغتباط أن كثيراً من تلميذاتى الريفيات كن يحببننى ، وقد تأكد هذا الشعور حين آن لنا أن نفترق . وما كان أعمق تقديرى وعرفانى حين تبينت أن لى مكانة صادقة فى قلوبهن الساذجة غير المرائية . وقد وعدتهن بأننى لن أدع أسبوعاً يمر فى المستقبل دون أن أزورهن ، وأن ألقى عليهن درساً فى المدرسة !

وأقبل مستر ريفرز فى اللحظة التى صرفت فيها الفتيات الستين ، وأغلقت الباب ، ووقفت ممسكة بالمفتاح فى يدى ، أتبادل كلمات الوداع مع نفر من خيرة التلميذات ، كنت أراهن من أكثر شابات الريف البريطانى حشمة ، واحتراماً ، وتواضعاً ، ومعرفة ! .. وقال لى مستر ريفرز بعد انصرافهن : « أترين أنك نلت جزاء طيباً عن الموسم الذى قضيته فى التعليم ؟ ألا تجدين متعة حقاً فى الشعور بأنك قد فعلت خيراً حقيقياً ليومك وجيلك ؟ » .. فهتفت : « بلا ريب » . قال : « ومع ذلك ، فأنت لم تجاهدى فى هذا السبيل سوى بضعة أشهر .. أفلا ترين أن حياة تكرس للنهوض بالجنس البشرى هى خير أنواع الحياة ؟ » :

فقلت : « بلى ، ولكنى لا أستطيع أن أمضى أبد الدهر على هذا المنوال ، بل أحب أن أستمتع بما لدى من ميزات وخصال ، بمثل ما أنمى فى الغير خير الميزات والخصال !.. لابد لى من أن أستمتع بما أوتيت ، فلا تذكرنى بالمدرسة ، فأنا الآن خارج جدرانها ، وأصر على أن أحظى بأجازة كاملة ! » .. فتفرسنى فى قلق وقال : « ماذا هناك ؟.. ماهذا التلهف المفاجئ الذى يتولاك ؟.. ماذا تنوين أن تفعلى ؟ » .

— أن أنشط .. وأنشط بقدر ما فى طاقتى . على أننى أرجو أولا أن تسرح حنة ، وأن تبحث عن سواها لتقوم بخدمتك .

— هل تريدينها ؟

— أجل .. أود أن آخذها معى إلى (مورهاوس) ، فلن ينقضى أسبوع حتى تكون ديانا ومارى قد وصلتا ، وأحب أن يكون كل شىء معداً فى انتظارهما .

— فهمت .. إنما خيل إلىّ أنك تريدين أن تغرى فى رحلة خلال العطلة ، الخير فيما اخترت .. فلتذهب حنة معك !

قلت : « إذن فأنبئها بأن تتأهب فى غد ، وهاك مفتاح المدرسة ، وسأعطيك مفتاح كوخى فى الصباح » . فتناول المفتاح وقال : « إنك تسلمينه فى بساطة وانبساط .. الحق أننى لا أفهم سر ابتهاجك ، لأننى لا أدرى أى عمل تعتزمين أن تشغلى به نفسك عوضاً عن هذا العمل الذى تنفضين منه يديك . أى هدف ، وأى غرض ، وأى مطمح لحياتك الآن ؟ » .

— إن هدفى الأول هو « التنظيف التام » .. هل تعى المعنى الذى أحشده فى هذا التعبير .. سأنظف (مورهاوس) من أعلى حجراته إلى أسفلها . وهدفى الثانى أن أدلك أرضه بالشمع والزيت وعدد لا حصر له من الخلق البالية ، حتى تستعيد لمعانها .. أما هدفى الثالث ، فهو أن أنظم كل شىء من مقاعد ، ومناضد ، وأسرة ، وأبسطة ، فأنسقها فى دقة هندسية . وسأعمد بعد ذلك إلى استنفاد كل مالديكم من فحم ووقود ، لأشعل فى مداقئ الحجرات جميعاً ناراً طيبة . وأخيراً ، سأكرس وحنة اليومين السابقين على وصول شقيقتيك فى خفق البيض ، وفرز الزبيب ، وطحن التوابل ، وإعداد كعك عيد الميلاد وتهيئة المواد اللازمة للفطائر وأداء الطقوس المطبخية ، وإن أثار أمثالك هذا التعبير .. أما غرضى فوجيز : هو أن أرى كل شىء فى أكمل حال ، استعداداً لاستقبال ديانا ومارى فى يوم الخميس المقبل .. وأما مطمحى فهو أن أهيىء لهما استقبالا مثالياً .

وارتسمت على شفتى سانت جون ابتسامة خفيفة ولكنه لم يقنع بما قلت فقال : « لا بأس بهذا للفترة الراهنة ولكنى أعتقد جاداً أنك — إذا ما تقضت نوبة المرح العارمة هذه — ستتطلعين إلى شىء يسمو على مافى الأعمال العائلية والتدبير المنزلى من مباهج » . فقاطعته قائلة : « إن هذه هى خير الأعمال فى الدنيا » . ولكنه استأنف الحديث قائلا : « لا ياجين ، لا .. إن هذه الدنيا ليست مسرح راحة ونعيم مقيم ، فلا تحاولى أن تجعليها كذلك ! » .. فقلت : « إنما أعتزم العكس .. أن أعمل جاهدة » .

— إنى ألتمس لك العذر ياجين فى الوقت الحاضر ، وسأسمح لك

بشهرين كاملين تستمرئين فيهما الاستمتاع الكامل بمركزك الجديد ، وتبهجين نفسك بعفاف القربى التى لم تحظى بها إلا أخيراً . ولكننى آمل – بعد ذلك – أن تشرعى فى أن تتجاوزى بصرك نطاق (مورهاوس) و (مورتون) وعشرة الشقيقتين ، والطمأنينة الأنانية ، والراحة القائمة على إرضاء شهوات النفس ..

فتطلعت إليه مأخوذة ، وهتفت : « سانت جون .. أعتقد أنك خبيث إذ تتكلم بهذا الشكل . إننى أحاول أن أقنع نفسى بأن تكون مغتبطة ، فإذا بك تزحزحنى إلى القلق وعدم الاستقرار .. فما الغاية ؟ » ..

فقال : « أن تتجهى إلى النهاية التى تستغلين عندها المواهب التى أضفاها الله على كيانك ، والتى سيسألك عنها يوماً ما حساباً عسيراً ولا ريب : لسوف أراقبك ياجين عن كثب ، وبعين واعية ، فاحذرى !.. حاولى أن تكبحى جماح الاندفاع إلى المتع المنزلية والاقتصار عليها .. ولاتتشبثى بالروابط الدنيوية بهذه القوة . ادخرى حماسك ودأبك لقضية صالحة .. أتسمعيننى ياجين ؟ » ..

* * *

● وما كان أسعدنى فى (مورهاوس) ! .. وكم كان إقبالى على العمل !.. وكذلك كانت حنة . فقد فتنت بما رأته من جدى وابتهاجى وسط الصخب الذى ساد بيتنا الذى قلبناه رأساً على عقب ، وأخذت ترقبنى لترى كيف أدلك الأرض بالفرجون ، وكيف أنفض الغبار ، وكيف أنظف ، وكيف أطهو !.. والحق أننا شعرنا بهناءة إذ استطعنا بعد يومين من حكم الفوضى والهرج ، أن ننتزع أولى معالم النظام . وكنت قد

قمت قبل ذلك برحلة إلى المدينة (س) ، فابتعت بعض الأثاث الجديد ، إذ أطلق أبناء عمى يدى فى استحداث ماراق لى من تبديلات ، وقررنا معاً تخصيص مبلغ معين لهذا الغرض . ولقد تركت قاعة الجلوس العادية وغرف النوم كما كانت تقريباً ، إذ كنت أدرك أن دياناوماري ستستشعران غبطة لمرأى المناضد والمقاعد والأسرة العتيقة ، تفوق تلك التى تداخلهما عند رؤية أكثر المستحدثات أناقة !.. على أنه كان لابد من تجديدات تشيع لوناً من التبديل والحياة فى المناظر القديمة : فمن أبسطة وستائر قاتمة جديدة جميلة المنظر ، إلى نخبة من التحف البرونزية والخزفية الطريفة انتقيت بعناية للزينة ، إلى مفارش ومرايا ، وصوانات ومناضد للزينة جديدة .. وصح ما توقعت ، فأضفت هذه الأشياء قبساً من الجدة وإن لم تشع فى المكان بهرجة الجديد !.. وأعدت تأثيث قاعة للاستقبال ومخدع بأكملهما ، مختارة لها أثاثاً من الخشب الموجنى القديم ، وأقمشة قرمزية ، وكسوت أرض الردهة بالمشمع ، كما فرشت الدرج بالأبسطة . فلما تم كل هذا ، بدا لى (مورهاوس) مثالاً للتألق المحتشم !

وأخيراً جاء يوم الخميس المرتقب ، وكان من المتوقع أن تصل الفتاتان حوالى الغروب ، ومن ثم أوقدت النيران فى مدافئ الطابقين منذ الأصيل ، وكان المطبخ فى أكمل مظهر ، وأنا وحنة فى أبهى ثيابنا ، وكل شىء فى أتم عدة .. وكان سانت جون أول الوافدين . وكنت قد رجوته أن يبقى بعيداً عن البيت حتى يتم تجهيز كل شىء . والواقع أن مجرد فكرة قلب نظام البيت ، على بساطته واعتداله ، كانت كافية لأن تزعجه ؛ وألفانى فى المطبخ عند وصوله ، أرقب إعداد بعض الكعك للشاى ،

ثم خبزه . فتساءل وهو يقترب من المدفأة عما إذا كنت راضية عن ممارسة التدبير المنزلى . وكان جوابى أن دعوته إلى أن يرافقنى فى جولة يتفقد فيها أعمالى .

وحملته بعد عناء على أن يجوس خلال البيت ، فكان يكتفى بإلقاء نظرة خلال الأبواب التى كنت أفتحها ، وبعد أن طاف بأرجاء البيت فى الطابق العلوى والطابق الأسفل ، قال إننى ولابد تجشمت قدراً كبيراً من العناء والتعب فى تحقيق كل هذه التغييرات الكبيرة فى مثل تلك الفترة القصيرة . ولكنه لم ينطق بحرف واحد ينم عن اغتباط لما أصاب غرفته بالذات من تحسين ، فهبطت حدة تحمسى ، إذ خطر لى أن التعديلات ربما كانت قد أصابت بعض معالم يعتز بها . وسألته فى ذلك . ولابد أن لهجتى كانت موجسة ، مضطربة ، إذ بادر قائلا إن الأمر على النقيض ، وأنه لاحظ أننى راعيت كل المعالم فى حرص ، بل إنه خشى أن أكون قد أوليت المسألة أكثر مما كان ينبغى من اهتمامى . وكنا قد بلغنا قاعة الجلوس ، فاستطرد قائلا : « فكم من دقيقة — مثلا — قضيتها فى دراسة نظام هذه الغرفة بالذات ؟.. وبهذه المناسبة ، هل لك أن تخبرينى أين الكتاب الذى كان هنا ؟ » .. وأريته الكتاب على رف فى الحجرة ، فتناوله من مكانه ، وحمله إلى مجلسه المعهود عند حافة النافذة ، وشرع يتصفحه !

والواقع أننى لم أكن أحب هذا ، أيها القارئ! .. لقد كان سانت جون رجلا طيباً ، ولكننى بدأت أشعر بأنه كان صادقاً يوم قال عن نفسه إنه جاف بارد . لم يكن لمجاملات الحياة وملابساتها الإنسانية أى تأثير

عليه ، ولا كان للمتع الهادئة أى سحر لديه . والحق أنه لم يكن يعيش إلا للطموح .. وصحيح أن طموحه كان ينشد كل طيب وعظيم ، إلا أنه مع ذلك جعله لايستقر ولا يرضى عن استقرار من كانوا يعيشون حوله !.. وبينما كنت أتأمل جبهته العالية — وقد بدت كحجر أبيض بجمودها وشحوبها — وإلى قسماته البديعة ، التى تركزت على الكتاب الذى كان بيده ، أدركت فجأة أنه لايكاد يصلح لأن يكون زوجاً طيباً ، وإن معاشرته ستكون مهمة مضنية على من تغدو زوجة له .. وكنت أفهم بغريزتى كنه حبه لمس أوليفر . وأقره على أنه كان حباً سامياً .. حب حواس وليس حب جسد . ولكننى إذ ذاك أدركت أنه خليق بأن يحتقر نفسه لما يفرضه هذا الحب عليه من انفعال محموم . وحدست مدى الرغبة الخليقة بأن تساوره للقضاء على هذا الحب ، ومدى عدم اطمئنانه إلى ما يستطيع هذا الحب أن يحققه من سعادة له أو للفتاة !

ورأيت أنه إنما خلق من المعدن الذى اعتادت الطبيعة أن تصنع منه أبطالها — مسيحيين كانوا أو وثنيين — ومشرعيها ، وساستها ، وقادتها المظفرين .. مخلوقات كالكتل المتينة تعد لكى ترتكز عليها المهام الجسام . ولكن الرجل من هذا الصنف يكون فى الحياة المنزلية مجرد مخلوق عابس ، كئيب ، لايتناسق مع الجو المحيط به !.. وجال بخاطرى : « أن قاعة الجلوس هذه ليست مجاله ، بل إن جبال الهيملايا ، أو أدغال (كافر) ، أو حتى ساحل غينيا الملىء بالمستنقعات والأوبئة ، قد يكون أكثر ملاءمة له من هذا المكان » .

ودفعت حنة إذ ذاك باب حجرة الجلوس صائحة : « ها هما ذانك

آتيتان !.. لقد أقبلتا ! » .. ونبح « كارلو العجوز » إذ ذاك في ابتهاج ، فهرعت إلى الخارج . وكان الظلام قد هبط ، ولكني سمعت جلبة عجلات . وسرعان ما أوقدت حنة مصباحاً ، بينما أقبلت عربة وقفت لدى الباب الخارجي ، وبرز منها شكل جد مألوف ، ثم تبعه شكل آخر مثله .. وإن هي إلا لحظة حتى كان وجهي تحت حواف قبعتيهما ، وقد اتصل بخد ماري الناعم أولا ، ثم بجدائل ديانا المنسابة .. وأخذتا تضحكان وتقبلانني .. ثم احتضنتا حنة ، وربتتا كارلو الذي كاد يجن فرحاً ، وسألتا في لهفة عما إذا كنت بخير ، فلما اطمأنتا ، أسرعتا إلى داخل الدار .

وكانت أطرافهما قد تيبست لطول جلوسهما وارتجاجات العربة التي أقلتهما من (هويتكروس) ، كما اخترقت برودة الليل الجليدية عظامهما ، ولكن أساريرهما اللطيفة سرعان ما انبسطت إذ حف بها الدفء المنبعث من المدفأة . وسألتا عن سانت جون بينما كانت حنة والحوذي يقلان متاعهما . وأقبل القس الشاب من قاعة الجلوس في تلك اللحظة ، فألقتا بنفسيهما على صدره في آن واحد . وجاد على كل منهما بقبلة هادئة ، وغمغم ببضع كلمات ترحيب بصوت خفيض ، ووقف هنيهة يتحدث إليهما ، ثم قال إنه يرجو أن تلحقا به في قاعة الجلوس ، وانسحب عائداً إلى مجلسه ، وكأنه يلوذ بمأوى يعتصم به !.. وكنت قد أوقدت شموعاً ، تأهباً للصعود إلى الطابق العلوي . فسرعان ما صعدتا وقد اغتبطتا للتجديدات والزينة التي أدخلت على غرفتيهما ، إذ اكتستا بستائر وأبسطة جديدة ، وأوعية للزهور من الخزف الحافل بالنقوش والألوان . وأعربتا عن شكرهما في إخلاص : وسرني أن تدبيراتي

صادفت هوى من نفسيهما ، وأن ما فعلته ضاعف من تألق ابتهاجهما بالعودة إلى دارهما :

* * *

• وما كان أحلاها من ليلة !.. فإن ابنتي عمتي أفاضتا في الحديث والتعليق وقد استخفهما الطرب ، حتى أن ثرثرتهما العذبة طغت على جمود سانت جون .. وكان صادق الابتهاج برؤية شقيقتيه ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجاريهما في تألق روحيهما ، وتدفق فرحهما !.. ولقد سره حادث اليوم ، وأعني عودة ديانا وماري ، ولكنه كان يضيق بملحقات هذا الحادث ، أعني الصخب والمرح ، والثرثرة الطروب .. وتبينت أنه كان يتوق إلى الغد ، لأن الغد ولابد أهدأ من اليوم .. وفي غمرة استمتاعنا بالمساء ــ بعد تناول الشاي بساعة ــ إذا بطرقات على الباب ، ثم أقبلت حنة تقول إن « صبياً مسكيناً جاء ، في هذه الساعة غير الملائمة ، ينشد مستر ريفرز لأن أمه كانت تحتضر » . فسألها القس : « وأين تسكن ياحنة ؟ » ، فقالت : « على مقربة من هضبة هويتكروس ، على أربعة أميال تقريباً ، في طريق مليئة بالمستنقعات والطحالب ! » .

ـــ أخبريه أنني قادم .

ـــ بل أعتقد ياسيدي أن من الخير ألا تذهب ، فهذه أسوأ طريق تسير فيها بعد الغروب ، إذ أنك لايمكن أن تهتدي إلى اتجاه خلال المستنقعات . ثم إن الليل قر ، والريح زمهرير . فيحسن بك أن تقول له إنك ستذهب في الصباح .

ولكنه كان قد بلغ الردهة ، وهو يتدثر بعباءته .. ثم رحل دون

ما اعتراض أو كلمة . وكانت الساعة قد بلغت التاسعة إذ ذاك ، فلم يعد إلا حين انتصف الليل ، وقد أقبل جائعاً ، متعباً ، ولكنه بدا أسعد مما كان قبل خروجه ! .. لقد أدى عملا من واجباته ، وقام بخدمة دينية ، وأحس بقدرته على العمل وعلى إنكار الذات ، فرضى عن نفسه !

ويخيل إلىّ أن الأسبوع الذى تلا ذلك كان بأسره عبئاً استنفد صبره ! .. كان أسبوع عيد الميلاد ، ولم تكن أمامنا مهمة معينة ، بل قضيناه فى لهو منزلى مرح .. وكان لهواء الآجام ، وللتحرر ، ولتفجر الثراء أثر على نفسى ديانا ومارى كأثر الإكسير المجدد للحياة ، فكان الطرب يتملكهما من الصباح إلى الظهر ، ومن الظهر حتى المساء . وكانتا لاتكفان عن الكلام ، فكان لمناقشاتهما ، وحضور بديهتهما ، وذكائهما فعل السحر فى نفسى ، حتى أننى كنت أوثر الإنصات إليهما ومشاطرتهما الحديث على أى شىء آخر ! .. ولم يكن سانت جون يزجرنا لهذا الصخب ، ولكنه كان يفر بنفسه منه ، فنادراً ما كان يمكث بالدار ، إذ كانت أبرشيته واسعة ، وأهلها متناثرين ، فكان يجد فى زيارة المرضى والفقراء فى مختلف المناطق ما يشغله يومياً !

وفى ذات صباح ، استغرقت ديانا فى التفكير بضع دقائق — أثناء الإفطار — ثم سألته عما إذا كان قد بدل مشروعاته ، فإذا جوابه : « لم تتبدل ، وليست قابلة للتبديل ! » . ثم أنبأنا بأنه قد تقرر — بصفة نهائية — أن يرحل عن إنجلترا خلال العام التالى . فتساءلت مارى : « وروزا موند أوليفر ؟ » . والظاهر أن الكلمات أفلتت من شفتيها على الرغم منها ، إذ لم تكد تنطق بها ، حتى بدرت منها إشارة ، وكأنها تهم

بأن تستردها . وكان سانت جون ممسكاً بكتاب — إذ كان من عاداته المستهجنة أن يقرأ أثناء الطعام — فأغلق كتابه ، وتطلع إلينا ، قائلا : « إن روزا موند أوليفر توشك أن تتزوج من مستر جرانبى ، وهو من أحسن أبناء (س) وسطاً ومكانة ، كما أنه حفيد ووريث سير فردريك جرانبى .. لقد سمعت النبأ من أبيها أمس » .

ونظرت كل من أختيه إلى الأخرى ، ثم إلىّ ، ثم نظرنا ثلاثتنا إليه ، فإذا به جامد الأسارير كالزجاج ! ..

ووجدتنى مسوقة — فى أول مرة وجدت فيها سانت جون وحيداً بعد هذا النبأ — إلى أن أسأل عما إذا كان الحديث قد أكربه ، ولكنه بدا أقل ما يكون حاجة إلى العطف ، حتى أننى شعرت بشىء من الخجل لما أبديت من إشفاق ، لاسيما وأننى لم أعتد الحديث معه فى الفترة الأخيرة ، إذ عاد تحفظه وكتمانه يحيطانه بغلاف جليدى ، طمر صراحتى تحت طبقاته .. ولم يف بوعده أن يعاملنى كما يعامل شقيقتيه ، بل كان يقيم باستمرار فوارق بسيطة بيننا تشيع البرودة فى علاقتنا ولا تساعد على نمو المودة . وقصارى القول أننى وقد تكشفت قرابتنا وأصبحنا نعيش تحت سقف واحد ، بدأت أشعر بالتباعد يتسع بيننا أكثر مما كان عندما كنت مجرد معلمة القرية ! .. وكنت كلما تذكرت المدى الذى أباح لى مرة أن أتمادى إليه فى مصارحته ، أعجز عن إدراك سر جموده البارد الراهن . ومن ثم لم تكن دهشتى بالبسيطة عندما رفع رأسه وقال : « أترين ياجين ؟ .. لقد خضت المعركة ، وفزت بالنصر ! » .

وأجفلت لهذه المبادرة ، فلم أجب لفورى ، بل ترددت لحظة قبل

أن أقول : «ولكن ، هل تراك متأكداً من أنك لست كأولئك المظفرين الذين تكبدهم انتصاراتهم ثمناً غالياً ؟ .. ألا يقتضى عليك انتصار آخر من هذا القبيل ؟» . فقال : «ما أظن .. وحتى لو كان الأمر كذلك ، فهو لايعنيني فى كثير ، لأننى لن أضطر إلى أن أكافح من أجل انتصار آخر من هذا القبيل . لقد كانت معركتى حاسمة ، وأصبحت الطريق أمامى ممهدة خالية من العقبات .. وأحمد الله على ذلك !» . وما أن قال هذا ، حتى عاد إلى أوراقه وصمته !.

وإذ بدأت السعادة المشتركة — التى كانت تسودنى وديانا ومارى — تستقر وتتخذ طابعاً أكثر هدوءاً ، وعدنا إلى مألوف عاداتنا ودراساتنا المنتظمة ، أخذ سانت جون يطيل مكثه فى البيت ، ويجلس معنا فى غرفة واحدة لعدة ساعات أحياناً .. وبينما كانت مارى تنهمك فى الرسم ، وديانا تنصرف إلى القراءة فى دائرة المعارف — فى انتظام ومثابرة أدهشانى وأثارا إعجابى — وأنا أشق طريقى فى ميدان اللغة الألمانية ، كان سانت جون يعكف على درس خاص لإحدى اللغات الشرقية التى كان يرى تحصيلها ضرورياً لمشروعاته .. وكان يبدو مستغرقاً ، وهو فى مجلسه المنعزل الهادئ . بيد أن عينيه الزرقاوين اعتادتا أن تبارحا كتاب قواعد هذه اللغة الأجنبية ، لتحوما فى فضاء الغرفة ، أو تستقرا أحياناً علينا — — معشر زميلاته فى الدراسة — فى انتباه غريب : فإذا فوجئ فى هذه الحال، ارتدت نظراته فى الحال ، ولكنها كانت لاتلبث دائماً أن تعود إلينا متفحصة !.. وكنت أتساءل فى نفسى عن معنى هذه النظرات ، كما أخذت أعجب لحرصه ومثابرته على إبداء ارتياحه لمناسبة كانت

تبدو لى قليلة الأهمية .. تلك هى زيارتى الأسبوعية لمدرسة (مورتون). وكان عجبى يستحيل إلى نوع من الدهشة الحائرة عندما تهيب بى شقيقتاه فى الأيام غير المناسبة — حين تنهمر الثلوج ، أو يهطل المطر ، أو تشتد الرياح — ألا أذهب ، فإذا به فى كل مرة يستخف منهما هذا القلق ، ويشجعنى على أن أؤدى مهمتى دون أن أحفل بعوامل الطبيعة . فكان يقول : «إن جين ليست بضعيفة الإرادة إلى الدرجة التى تظهر أنها عليها . فى طاقتها أن تحتمل ريح الجبال ، أو رذاذ المطر ، أو بضع الكسف المتساقطة من الجليد كأى واحد منا .. إن بنيانها متين ومرن ، أعد بحيث يحتمل تقلبات الطقس إلى درجة تفوق احتمال كثير ممن يفوقونها بدانة» .

* * *

● ولم أكن أجرؤ على الشكوى ، إذا ماعدت مكدودة ، وقد أرهقنى الطقس ، لأننى كنت أعرف أن أتفه تذمر كفيل بأن يكدره .. فقد كانت قوة الاحتمال تسره فى كل الأحوال ، وكان الضعف يسوؤه بوجه خاص . على أننى — فى أصيل ذات يوم — سمحت لنفسى بالبقاء فى المنزل ، لأننى كنت مصابة ببرد شديد ، ومن ثم ذهبت شقيقتاه إلى (مورتون) بدلا عنى . فجلست أقرأ أشعار شيلر ، بينما كان منهمكاً فى حل طلاسم لغته الشرقية . وإذ تحولت إلى الترجمة ، كوسيلة للترويح ، بدرت منى نظرة فى اتجاهه . فإذا بى أجد نفسى تحت سيطرة العينين الزرقاوين اللتين لم تكونا تكفان عن التمعن !.. وليس بوسعى أن أعرف كم ظلتا تتأملانى وتشملانى بنظراتهما ، ولكن الذى أعرفه هو أنهما

كانتا حادتين ، وباردتين فى آن واحد . وداخلنى وهم موجس لحظة .. وكأنى كنت أجلس فى غرفة واحدة مع خطر خفى !

وسألنى : « ماذا تفعلين ياجين ؟ » ، فقلت : « أدرس الألمانية » .

— أريد منك أن تتحولى عن الألمانية ، فتدرسى الهندوستانية .

— ما أظنك جاداً فى هذا الاقتراح ؟

— بل إنى جاد إلى درجة تجعلنى ألح فى ذلك ، وسأنبئك بالسبب .

ومضى يذكر لى أن الهندوستانية هى اللغة التى كان يدرسها إذ ذاك ، وأنه كان مضطراً إلى أن يظل مستذكراً المبادئ كلما أوغل فى اللغة . ومن ثم فقد كان من أكبر العون له ، أن يجد تلميذاً يسترجع معه المبادئ مراراً وتكراراً ، ومن ثم يتمكن من تثبيتها فى ذهنه . وقال إن ذهنه تأرجح زمناً بينى وبين أخته ، ثم استقر علىّ ، لأنه رأى أنى أقدر الثلاث على أن أجلس طويلا للدرس . وسألنى : أتسدى إليه هذا الصنيع ؟.. ثم طمأننى إلى أنى قد لا أضطر إلى المضى فى التضحية طويلا ، إذ لم يبق على رحيله أكثر من ثلاثة أشهر !

وألفيته صبوراً ، طويل الأناة ، ولكنه كان — فى الوقت ذاته — مدرساً حازماً ، فكان يطالبنى بجهد كبير ، فإذا وجدنى قد أديت ماطلب ، شهد — بطريقته الخاصة — بحسن اختياره — وبالتدريج ، اكتسب لنفسه نفوذاً علىّ ، حد من حرية فكرى ، فإذا إطراؤه واهتمامه لا يقلان تأثيراً على الأعصاب من عدم اكتراثه .. ولم أعد أتكلم أو أضحك متحررة أثناء وجوده ، لأن حاسة خفية ، ملحاحة ، كانت

لا تفتأ تذكرنى بأن خفة الروح — من ناحيتى على الأقل — كانت مكروهة لديه !.. كنت أذكر دائماً — وإلى درجة مزعجة — أنه لا يرضى إلا عن الطباع والأعمال الجادة الرزينة . وما لبثت إرادتى أن بدأت تتجمد وتبرد ، فأصبحت أذهب إذا قال : « اذهبى ! » ، وأجىء إذا قال : « تعالى ! » ، وأفعل الشىء إذا قال : « افعل هذا » .. على أنى لم أحب هذه العبودية .. وكم من مرة تمنيت لو أنه واصل إهماله شأنى !

وحدث ذات مساء ، عندما التففت وأخته حوله — فى موعد النوم — لتحييه وتتمنى له ليلة طيبة ، أن قبل أخته كعادته ، ثم بسط لى يده .. كعادته أيضاً !.. وكانت ديانا فى تلك الليلة فى عنفوان مرحها ، إذ كان من الشاق عليه أن يفرض عليها إرادته ، فقد كانت شخصيتها لا تقل عن شخصيته قوة .. فهتفت : « لقد اعتدت ياسانت جون أن تدعو جين شقيقتك الثالثة ، ولكنك لاتعاملها معاملة الشقيقة ، فلماذا لاتقبلها هى الأخرى ؟ » .. ودفعتنى نحوه فشعرت بأنها كانت غاية فى المضايقة ؛ وشعرت باستياء أمضنى .. وفيما كنت فى هذا الشعور ، حنى سانت جون رأسه ، وقرب وجهه ذا الجمال اليونانى من وجهى ، وأخذت عيناه تسائلان عينى بنظرة ثاقبة .. ثم قبلنى !.. وما أدرى بوجود قبلات رخامية ، أو قبلات جليدية ، وإلا لقلت إن قبلة ابن عمى القس كانت من هذا الطراز ، ولكن هناك قبلات تجريبية ، اختبارية .. وقد كانت قبلته من هذا الصنف !.. فقد تأملنى بعدها ليعرف النتيجة . ولكنها لم تكن رائعة ، وإنى لواثقة من أن وجهى لم يتضرج حياء ، ولكننى ربما امتقعت قليلا ؛ لأنى أحسست كأنما كانت هذه القبلة خاتماً يثبت

أغلالى . ولم يتخل بعد ذلك عن هذه العادة ، وكأنما كان الوقار والرزانة اللذان اعتدت أن ألتقى بهما القبلة مبعث فتنة خاصة له !

أما من ناحيتى ، فقد كنت أزداد رغبة – يوماً بعد يوم – فى أن أرضيه ، ولكننى كنت أزداد شعوراً – يوماً بعد يوم أيضاً – بأننى مضطرة فى سبيل ذلك إلى أن أتحلل من نصف طبيعتى ، وأن أخنق نصف خصالى ، وأن أناضل أذواق لأحولها عن اتجاهاتها الأصلية ، وأقسر نفسى على انتهاج أشياء لم يكن لدى ميل طبيعى نحوها ؟ .. كان يحاول أن يدربنى على أن أرق إلى مستوى لا أملك قط أن أبلغه ، وكان التطلع إلى المستوى الذى يريده يرهقنى . كان الأمر ضرباً من المستحيل .. تماماً كما لو أردت أن أصوغ قسمات وجهى غير المنتظمة وأصبها فى قالب الجمال اليونانى العريق كوجهه .. أو كما لو أردت أن أحوّل خضرة عينى ، إلى الزرقة المتلألئة ، العميقة ، التى كانت تصبغ عينيه !

على أن السمو إلى المستوى الذى كان يبغيه لم يكن الغل الوحيد الذى قيد حريتى إذ ذاك . فلقد أصبح من السهل علىّ فى الفترة الأخيرة ، أن أستسلم لحزن ، إذ جثم على قلبى شرّ نهم راح يمتص سعادتى من جذورها .. وكان ذلك الشر هو : الشك !.. فلعلك أيها القارئ قد ظننت أننى نسيت مستر روشستر وسط التطورات التى ألمت بمركزى وحظى ، ولكننى لم أنسه لحظة واحدة .. كانت ذكراه ما تزال تلازمنى ، لأنها لم تكن مجرد شعاع شمس لاتلبث أن تأفل ، ولا كانت أثراً على رمل لا تلبث العاصفة أن تذروه ، وإنما كانت اسماً حفر فى قلبى ليبقى

مابقى ذلك القلب !.. وكان الشوق لمعرفة ما صار إليه أمره يلاحقنى فى كل مكان ..

ولقد سألت مستر بريجز – أثناء مراسلتى إياه بصدد الوصية – عما إذا كان يعلم شيئاً عن مقر مستر روشستر أو صحته ، ولكنه – كما حدس سانت جون – كان يجهل كل شىء عنه .. فكتبت إلى مسز فيرفاكس أستجديها بيانات عن الموضوع ، وأنا موقنة من أننى سأتلقى منها جواباً فى أقرب فرصة . وكم دهشت حين انقضى أسبوعان دون أن أتلقى رداً .. فلما انصرم شهران والبريد يصل – يوماً بعد يوم – دون أن يحمل لى رداً ، وقعت فريسة لأقسى أنواع القلق .. فكتبت مرة أخرى ، معللة النفس باحتمال أن يكون خطابى الأول قد فقد .. وتجدد الأمل فى نفسى مرة بعد مرة ، وظل مشرقاً لبضعة أسابيع ، ثم أخذ يخبو .. إذ لم يصل إلى سطر ولا كلمة !.. وعندما انقضى نصف عام فى الانتظار دون طائل ، مات أملى ، فعدت أتخبط فى ظلام حقيقى !

وأقبل الربيع جميلا ، ولكننى لم أستمتع به .. واقترب الصيف .. وكانت ديانا تحاول أن تدخل السرور إلى قلبى ، فقالت إننى أبدو معتلة الصحة ورغبت فى أن تصطحبنى إلى شاطئ البحر . وعارض سانت جون قائلا إننى لم أكن فى حاجة إلى راحة وكسل وإنما كنت فى حاجة إلى ما يشغلنى ، لأن حياتى الراهنة كانت بلا غرض ، فأنا محتاجة إلى هدف . وأحسبه – لكى يقيم العراقيل – قد أطال أمد الدروس الهندوستانية التى كنت أتلقاها ، وزاد من الواجبات التى كان يتعجلنى أداءها ، وأنا كالبلهاء لا أفكر قط فى مقاومته .. بل ما كنت أملك أن أقاومه ! ..

إلى أن أقبلت على الدرس ذات يوم ، بنفس مثقلة أكثر من المعتاد ، إذ زاد من أساى استياء بالغ . فقد أنبأتني حنة في الصباح أن ثمة خطاباً وصل باسمى ؛ فلما هبطت لأتسلمه وكلى ثقة في أنه يحمل الأنباء التي طال ارتقابي إياها ، وجدت أنه مجرد مذكرة تافهة من مستر بريجز بشأن بعض الأعمال . وانتزعت الصدمة المريرة بعض دموع من عيني ؛ فلما جلست أحملق في الحروف الهندية — في وقت الدرس — عادت الدموع تنبثق !.. ودعاني سانت جون إلى جواره لأقرأ ، فلما حاولت القراءة عصاني صوتي ، واختنقت الكلمات في فيض من العبرات . ولم يكن في حجرة الجلوس سوانا ، إذ كانت ديانا تتدرب على الموسيقى ، بينما كانت مارى تفلح الحديقة ، فقد كان اليوم من أيام شهر مايو البديعة ، الصحوة ؛ ذات الشمس المشرقة والنسيم العليل .

ولم يبد زميلى دهشة لجيشان عواطفى ، ولا سألني سبباً ، وإنما قال : « سننتظر بضع دقائق ياجين ، ريثما تتمالكين جأشك ! » .. وبينما رحت أهدئ الانفعال في عجلة ، جلس هادئاً ، صابراً ، معتمداً على مكتبه ، كطبيب يرقب بعين العلم أزمة متوقعة في داء مريضه ومعرفة الدواعى . وإذ كتمت عبراتى ، وجففت عينى ، تمتمت ببضع كلمات متعللة بأنني لم أكن مكتملة الصحة في ذلك الصباح ، ثم استأنفت الدرس ، وأفلحت في إتمامه .

وما لبث سانت جون أن نحى كتبي وكتبه ، وأغلق درجه ، وقال :

— الآن ياجين ، ستخرجين للنزهة .. ومعى أنا !

— سأدعو ديانا ومارى لمرافقتنا .

— لا ، لست أريد سوى زميلة واحدة في هذا الصباح ، ولابد من أن تكونى أنت هذه الزميلة ، فارتدى ثياب الخروج ، وانصرفى من باب المطبخ ، واسلكى الطريق المتجهة إلى (مارش جلين) وسألحق بك فوراً .

ولم أعتد إلى مسلك وسط .. بل إننى في حياتي لم أعتد أن أجد مسلكاً وسطاً إزاء الشخصيات الإيجابية القوية التي تناقض شخصيتي .. أجل لست أعرف مسلكاً وسطاً بين الخضوع المطلق ، وبين التمرد العنيد . ولقد طالما ظللت أتبع باستمرار أحد المسلكين إلى غايته .. إلى أن يبلغ عنفوانه ثم ينفجر ويتحول إلى المسلك الثاني ، في قوة تشبه انفجار البركان أحياناً . ولما كانت ظروفى الراهنة لا تميل إلى الثورة ، ولا كان مزاجى الحالى يتجه إلى التمرد ، فقد ثابرت في عناية على الرضوخ لتوجيهات سانت جون . ومن ثم فلم تنقض عشر دقائق حتى كنت أسير في درب مهجور نحو واد صغير .. وسانت جون بجانبي !.

* * *

● وكان النسيم يهب من الغرب ماراً على التلال حيث يتردد بشذى الزهور البرية ، والسماء صافية الزرقة ، والجدول ينحدر على السفح مترعاً بمياه الربيع المنصرم ، فيفيض وفيراً وقد انعكست على مياهه الصافية أشعة الشمس الذهبية .. وإذ تحولنا في سيرنا عن الدرب ، رحنا نطأ أرضاً معشوشبة ، ذات خضرة زمردية ، توشيها زهور بيضاء دقيقة الأحجام ، وترصعها ورود صفراء كالنجوم .. وقد أحاطت بنا التلال — في الوقت ذاته — فحجبتنا عن العالم ، داخل الوادى الصغير .. وبلغنا

طلائع صخور قامت كحراس للذود عن خور صغير وسط الجبال ، فقال سانت جون : « لنسترح هنا ! » .

وجلسنا ، فكثنا نصف ساعة لا نتكلم ، حتى إذا انقضت هذه الفترة ، شرع يقول : « سأرحل بعد ستة أسابيع يا جين ، وقد حجزت مكاناً على الباخرة (ايست انديامان) التي تقلع في العشرين من يونيو » ؛ فقلت : « ليحمك الله مادمت قد آثرت أن تضطلع برسالته » .

قال : « أجل ، ففي هذا مجدي واغتباطي .. إنني في خدمة مولى منزه عن الخطأ ، فلست منطلقاً تحت قيادة إنسان ، ولن أكون عرضة للقوانين الناقصة ، ولا لسيطرة خاطئة من آدميين مثلي .. حشرات ضعاف !! إن مليكي ، ومشرعي ، وقائدي ، هو الكمال المطلق . ولكم يبدو غريباً لي أن كل من حولي لا يتحرقون شوقاً إلى أن ينضووا تحت نفس اللواء ، وأن يعملوا في نفس الميدان ! » .

— ليس لجميع ما أوتيت أنت من قوة . ومن الغباء أن يهفو الضعاف إلى السير مع الأقوياء .

— لست أتحدث إلى الضعاف أو أفكر فيهم ، وإنما أخاطب الشخص الذي أعرفه جديراً بالعمل ، وقادراً على أدائه .

— هؤلاء قلة في العدد ، حتى ليتعذر اكتشافهم .

— الحق ماقلت ، ولكن من الصواب إيقاظهم إذا ما وجدناهم .. من الصواب حثهم واستثارة جهودهم وإرشادهم إلى ما أوتوا من مواهب ونعم .. من الصواب أن نلقي على أسماعهم رسالة السماء ، وأن ندعوهم — باسم الله — لكي ينالوا مكاناً بين المقربين إليه .

— إذا كانوا أهلا للرسالة حقاً ، أفلا كانت قلوبهم تدعوهم قبل أن يدعوهم البشر ؟

وشعرت كأن سحراً رهيباً يتجمع حولي ، وينعقد فوق ، ورحت أرتجف متوقعة أن أسمع كلمات مخيفة تتضمن تعويذة السحر الغامض .. وسألني سانت جون : « وبماذا يحدثك قلبك ؟ » ، فأجبت وأنا مشدوهة مذهولة : « إن قلبي أخرس .. قلبي أخرس ! » .. ولكنه قال في لهجة عميقة ، ملحاحة : « إذن فلابد من أن أتكلم باسمه .. تعالي معي إلى الهند ياجين ، تعالي كزميلة ومساعدة » .. ودارت السماء والوادي في نظري ، واهتزت التلال .. وكأنما سمعت نداء من السماء ؛ وكأنما تمثل لي رسول كريم يهيب بي : « تعالي وساعدينا ! » .. ولكنني لم أكن من طبقة الرسل ، فلم أشأ أن أرى الرسول ولا أن أتلقى نداءه ، بل صحت : « أواه ياسانت جون ! .. ارحمني ! » .. ولكنني كنت أتوسل إلى شخص ما كان يعرف رحمة أو إشفاقاً في سبيل أداء ما كان يعتقده واجباً ، فاستأنف حديثه قائلا : « لقد أعدك الله والطبيعة لكي تكوني زوجة مبشر ، ومن ثم فهما لم يخلعا عليك ميزات جسدية ، وإنما آثراك بميزات عقلية .. فأنت إنما خلقت للعمل ، لا للحب .. ولابد لك من أن تكوني زوجة مبشر .. ستكونين زوجتي .. إنني أدعوك ، لا لمتعتي ، وإنما لخدمة المولى ! » .. فقلت : « لست أصلح لذلك » .

ولكنه كان قد حسب حساب هذه الاعتراضات الأولية ، فلم يضطرب لها ، وإنما أسند ظهره إلى صخرة خلفه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وخلع على أساريره جموداً ثابتاً .. ورأيت أنه قد أعد نفسه

لمعارضة قوية ، طويلة ، وتزوّد من الصبر بذخيرة ، ووطد العزم على
أن يكون النصر له فى النهاية ، وراح يقول : « إن التواضع ياجين هو
أساس كل الفضائل المسيحية ، وإنك لعلى حق إذ تقولين إنك لاتصلحين
للعمل ، ولكن .. مَن ذا الذى يصلح له ؟ .. أو مَن ذا الذى كان يؤمن
بجدارته للرسالة ، عندما دعى لأدائها ؟ فأنا — مثلا — لست سوى رماد
وهشيم ، وعندما قارنت نفسى بالقديس بولس ، اعترفت بأننى أكبر
مذنب ، بيد أننى لا أتغلب بهذا الشعور إلى الدرجة التى تقعد بى عن
العمل . إننى أعرف زعيمى وقائدى : فهو عادل كما هو جبار ، وإذا
كان قد اختار أداة ضعيفة — مثلى — لأداء مهمة جليلة ، فإنه ولاشك
سيسد نقص الأداة من خزائن حكمته التى لاحدود لها .. فكرى كما أفكر
ياجين ! » .

— إننى لا أفقه حياة العاملين فى التبشير ، وما درست يوماً مهامهم .

فقال : « ها أنذا — على ضآلة قدرى — أقدم لك ما تبغين من عون :
إننى أستطيع أن أبصرك بالمهمة من ساعة إلى أخرى ، وأن أقف إلى
جوارك دائماً ، فأساعدك فى كل لحظة .. أجل ، أستطيع أن أفعل هذا
فى البداية ، وسرعان ما ستصبحين مثلى قوة وكفاءة ، ولا تحتاجين إلى
معونة منى .. فأنا أعرف مدى مقدرتك ! » .

— مقدرتى ؟!.. أين هى لمثل هذه المهمة ؟.. إننى لا أحس بها .
لا شىء يهتف أو يتحرك فى أعماق عندما تتكلم أنت .. لست أحس بضوء
ينبثق فى نفسى .. ولا أشعر بالحياة تتدافع ، أو بهاتف يرشدنى ويسرى
عنى .. أواه !.. لكم أتمنى أن أوتى القدرة على أن أريك فى هذه اللحظة

أن فكرى أشبه بوهدة مظلمة ، لا يعمر جوفها سوى لون واحد من
الخوف ، يرقد مكبلا ، مرتعباً .. إنه الخوف من أن يؤثر فىَّ إغراؤك
فأحاول ما لا أملك تحقيقه !

— لدى جواب أرد به ، فاسمعيه .. لقد راقبتك منذ لقيتك أول
مرة ، وجعلتك موضوع دراستى لعشرة أشهر ، واستطعت أن أختبر
استعداداتك بعدة اختبارات ، فما الذى انتهيت إليه ؟.. لقد وجدت فى
مدرسة القرية أن بوسعك أن تؤدى — بمهارة واستقامة ودأب — عملا
لا يتلاءم مع عاداتك وميولك .. رأيت أن بوسعك أن تؤديه بمقدرة
وبراعة ، وأن تكسبى القلوب بينما تسيطرين على أصحابها وتحكمينهم
وتخضعينهم للنظام .. وفى الهدوء الذى تلقيت به نبأ الثروة التى آلت
إليك ، رأيت ذهناً بريئاً من رذيلة حب الذهب .. فليس لمتاع الدنيا
سلطان عليك .. وفى مبادرتك الحاسمة إلى تقسيم ثروتك إلى أربعة أقسام ،
لتحتفظى بواحد منها ، وتدفعى بالثلاثة إلى من رأيت أنهم أصحابها شرعاً ،
رأيت نفساً تنتعش وتحيا فى نيران التضحية .. وفى انصياعك لى وتحولك
عن دراسة كنت معنية بها ، إلى أخرى لمجرد أنها كانت تهمنى ، رأيت
ما أنشد من خصال .. إنك ياجين وادعة ، مثابرة ، لاتنساقين بمصلحة
دنيوية ، وإنك لمخلصة ، وفية ، شجاعة ، جد رقيقة ، وأهل للبطولة .
فكفى عن فقدان الثقة فى نفسك ، إذ أننى أثق بك على طول الخط ودون
تحفظ . ولسوف تكون معونتك لى — المرشدة فى المدارس الهندية ومساعدة
فى نشر رسالتى بين الهنديات — فوق كل تقدير !

* * *

● وانكشت معارضتى :: وأوغل الإغراء متغلغلا فى نفسى بخطى بطيئة ولكنها أكيدة ، فإذا كلماته الأخيرة هذه تشق طريقها — وأنا مغمضة العينين — وتقتحم ما كان هناك من سدود ومتاريس.. وراح يرتقب الجواب ، فاستمهلته ربع ساعة لأفكر . وقال : « عن طيب خاطر ! » ، ثم نهض فسار قليلا نحو الغور ، ثم ارتمى على الأرض المعشوشبة ، وظل راقداً هناك . بينا رحت أقول لنفسى : « بوسعى أن أقوم بما يبتغيه ، إذا أنا استغنيت عن الحياة . ولكنى لا أشعر بأن كيانى يحتمل العيش طويلا تحت شمس الهند . فماذا فى ذلك ؟.. إنه لا يحفل بالأمر كثيراً ، وإذا حانت منيتى فسوف يسلمنى فى هدوء ، ووقار إلى الله الذى ساقنى إليه .. إن الأمر واضح أمامى . فإننى إذا غادرت انجلترا ، فإنما أغادر بلداً أحبه ولكنه خاو من كل ما يشدنى إليه .. إذ أن مستر روشستر لا يقيم فيه ، بل ماقيمة وجوده لو أنه كان يقيم فيه ؟.. لقد أصبح حتماً علىّ أن أعيش بدونه . وليس هناك ماهو أحمق وأبدى للضعف من أن أجرر أذيال العمر يوماً بعد يوم ، فى انتظار تغير مستحيل فى ظروفى ، يضمنى ثانية إلى الرجل الذى أحببت .. إن علىّ فعلا أن أبحث عن شىء آخر فى الحياة أصب عليه اهتمامى ، بدلا من ذلك الذى فقدت .. أفليست المهمة التى يعرضها علىّ سانت جون . هى أجل ما يقوم به إنسان ، أو يفرضه إله ؟.. أفليست — بأعبائها النبيلة ونتائجها السامية — هى خير مهمة تملأ الفضاء الذى خلفه حب ممزق ، وآمال مقوضة ؟ .. أعتقد أن لابد لى من أن أجيب بالموافقة .. ولكننى مع ذلك أرتجف ! فواأسفاه !.. إننى إذا استجبت لسانت جون ، فسأتخلى عن نصف نفسى ، وإذا أنا ذهبت إلى

الهند ، فسأسعى إلى موت سابق الأوان .. ثم ، كيف أملأ الفترة بين مبارحة انجلترا إلى الهند ، ومبارحة الهند إلى القبر ؟.. ثم إننى أعرف سانت جون ، وأعرف ما يرضيه وما يتوقعه ، فبالذهاب معه لابد لى من أن أضحى بكل شىء ، فألقى على المذبح بقلبى ، ومشاعرى الحيوية ، وكل شىء !.. وهو لن يحبنى إطلاقاً ، ولكنه سيرضى عن عملى .. سأريه ألواناً من النشاط لم يرها أبداً وموارد للقوة لم يتوقعها قط .. إذن فلأقبل ما يعرضه .. بيد أن هناك نقطة واحدة مقيتة لدى .. تلك هى أن أغدو زوجته ، مع أنه لم يؤت قلباً يتحرك لى بأكثر مما تتحرك الصخرة القائمة الراسخة !.. إنه إنما يقدرنى كما لو كنت جندياً .. لا ، إن مثل هذا الاستشهاد أفظع من أن يحتمل .. إذا كان لابد من أن أصحبه ، فلأصحبه كأخت ، وليس كزوجة » .

وتطلعت إلى حيث كان مستلقياً ، فإذا عيناه ترقبانى فى اهتمام ودقة وإمعان . ونهض مستوياً على قدميه ، ثم اقترب منى . فقلت :

— إننى على استعداد لأن أذهب إلى الهند ، إذا جاز لى أن أبقى حرة .

— إن جوابك فى حاجة إلى إيضاح ، لأنه غير جلى .

— لقد كنت حتى الآن أخاً لى ، كما كنت أنا أختاً لك ، فلنستمر على هذا الوضع ، ومن الخير لنا ألا نتزوج .

فهز رأسه قائلا : « إن الأخوة التى بيننا لا تصلح فى هذه الحالة . ولو أنك كنت أختى الشقيقة حقاً ، لاختلف الوضع ، ولاصطحبتك دون أن أبحث عن زوجة . أما وهذا وضعنا فلابد لصلتنا من أن تكتسب



انه انما يقدرني كما لو كنت جنديا .. لا ، ان مثل هذا الاستشهاد افظع من ان يحتمل .. اذا كان لابد من ان اصحبه فلاصحبه كاخت وليس كزوجة

صبغة شرعية بالزواج ، وإلا فلن يكون لها وجود .. فكرى قليلا ياجين ، وسوف يرشدك إدراكك القوى إلى الوضع ! » .. ولكن إدراكى لم يرشدنى إلا إلى أننا لم نتحاب كما ينبغى لأى زوجين أن يتحابا ، ومن ثم فلا ينبغى لنا أن نتزوج . ومن ثم قلت : « إننى أعتبرك أخاً ياسانت جون .. وأنت تنزلنى من نفسك منزلة الأخت ، فلنبق كذلك » . فأجاب فى عبارات حاسمة ، قصيرة : « لا نستطيع .. لا نستطيع .. لقد قلت إنك ستذهبين معى إلى الهند ، فتذكرى هذا .. لقد قلته » .

— ولكننى ربطته بشرط .

— حسناً ، فلنتمسك بالنقطة الرئيسية .. الرحيل معى ، والتعاون فى جهودى المقبلة .. إنك لا تعارضين فى هذين . لقد وضعت يدك على المحراث ، فلم يعد أمامك إلا أن تتدبرى خير الطرق لأداء العمل .. حاولى أن تبسطى ماهو معقد من مصالحك ، وأفكارك ورغباتك وأهدافك ، وامزجى كل الاعتبارات فى غرض واحد .. هو أن تؤدى المهمة على خير وجه .. ولكى تفعلى ، لابد لك من قرين ، وليس أخاً .. إننى أنشد زوجة ، فهى الشريك والمعين الأوحد ، الذى أستطيع أن أوجهه فى الحياة ، وأن أظل محتفظاً به حتى الممات !

وأخذت أرتجف وهو يتكلم .. كنت أحس بسلطانه ينفذ إلى عظامى ، وبقبضته تشد على أطرافى . وهتفت : « ابحث عن سواى ياسانت جون .. ابحث عن واحدة تصلح لك » . فقال : « تعنين واحدة تصلح لمهمتى .. لغرضى ! .. أكرر لك أننى لا أنشد الشخص الذى

لاقيمة له .. لا أنشد إنساناً ، بما للإنسان من إدراك أنانى ، وإنما أنا أنشد رسولا مبشراً » :

— أواه ! .. سأهب الله قلبى .. ولكنك لست بحاجة إليه .

* * *

● ولن أقسم أيها القارئ على أن هذه العبارة ، والإحساس الذى صاحبها ، كانا خاليين من شىء من السخرية المكبوتة . كنت حتى تلك اللحظة أخاف سانت جون فى صمته ، لأننى لم أفهمه ، وما فرض على سلطانه إلا لأنه كان يستبقينى فى غمرة الشك . ولم يكن بوسعى — حتى ذاك الوقت — أن أدرك مدى ما كان فى شخصيته من تقوى ، ومدى ما كان فيها من مطامع دنيوية ، ولكن الحجب بدأت — إذ ذاك — تتكشف أمام عينى عن طبيعته .. فتبينت أنه غير معصوم من الخطأ ، ولمست عيوبه .. أدركت أننى أمام إنسان ، يخطئ كما أخطئ .. انجاب القناع عن جوده وصرامته .. وإذ ذاك ، شعرت ببعده عن الكمال ، فتشجعت إذ أدركت أننى أمام ند أستطيع أن أجادله وأحاججه .. وأقاومه !

وكان قد أخلد إلى الصمت ، فتجرأت على أن أتفرس ملامحه .. كانت عيناه تحدجانى بنظرة جمعت بين الدهشة العابسة ، والتساؤل المرتاب ، وكأنما كان يسائل نفسه : « أتراها تسخر .. وتسخر منى بالذات ؟ » .. وما لبث أن قال أخيراً : « لاينبغى أن تنسى أن هذه مسألة قدسية ، لايجب أن نفكر فيها أو نتحدث عنها باستخفاف وإلا زللنا وأذنبنا . إننى أعتقد ياجين أنك صادقة عندما تقولين إنك ستهبين الله قلبك ، وهذا غاية ما أبتغى . فما هو إلا أن تنتزعى قلبك من بشريتك ،

وأن توقفيه على خالقك ، حتى يقوم السلطان الروحى لله على الأرض غايتك ومبعث غبطتك .. ولسوف تصبحين على استعداد فى الفور لأن تقومى بكل ما يصل بك إلى هذه الغاية ، ولأن تدركى الحافز الذى سيدفع جهودك وجهودى قدماً ، باتحادك معى فكراً وجسداً . فهذا هو الاتحاد الوحيد الذى يضفى على أقدار ونوايا البشر صبغة الدوام المؤكد : فأنعمت النظر فى أساريره التى كانت جميلة فى تناسقها ، ولكنها غريبة فى صرامتها وقسوتها .. وتصورتنى زوجة له .. أواه ! .. إن هذا لن يكون !.

إن قلبى وفكرى يجب أن يبقيا حرين .. وأن تظل أحاسيسى غير مستعبدة .. إن فى ذهنى نواحى هى عالمى الخاص ، الذى يجب ألا ينفذ إليه أحد سواى ! .. وهتفت إذ بلغت هذا المدى من تأملاتى : « سانت جون ! » . فأجاب فى برود : « نعم ؟ » .

— أكرر استعدادى طائعة وبمحض إرادتى لأن أذهب معك كزميلة مبشرة ، ولكن .. ليس كزوجة ! .. ليس بوسعى أن أغدو زوجتك وجزءاً منك !

فأجاب فى إصرار : « بل لابد من أن تصبحى جزءاً منى ، وإلا فالصفقة بأسرها هباء ! .. كيف أصحب — وأنا رجل لم أبلغ الثلاثين — فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها إلى الهند ، دون أن تكون زوجة لى ؟ .. كيف يباح لنا أن نظل معاً إلى الأبد .. وأن تضمنا أحياناً خلوة ؟ .. ليس بوسعى أن أقول إنك أختى ، إذ من المعروف أنك لست شقيقتى .. ولو أننى فعلت لأثرت الشكوك حول كل منا .. ثم إنك أوتيت قلب امرأة ، وإن كان عقلك عقل رجل ! .. لا ، لن يجدى هذا » . فقلت

فى شىء من الاستهجان : « بل يجدى :: إن لى قلب امرأة ، ولكنه لن يبدو فى أتونه حيث أنت ، إذ أن علاقتنا لن تكون سوى زمالة .. أخوة ، إن شئت ! » . فقال ، وكأنه يحدث نفسه : « إنك لن تندمى إذا تزوجتنى ياجين .. ثق من هذا ! .. لابد لنا من الزواج ، فليس ثمة سبيل أخرى ، ولسوف يلى الزواج حب يكفى لأن يجعلك ترضين عن هذا الزواج ، بلا شك ! » . فلم أتمالك أن قلت وأنا أقف أمامه : « إننى أستهجن فكرة حبك .. وأزدرى العاطفة الزائفة التى تعرضها .. أجل يا سانت جون ، إننى أزدريك حين تعرضها ! » .

وحدجنى بنظرة ثابتة ، وهو يعض شفتيه البديعتى الشكل ، وليس بوسعى أن أقطع بما إذا كان قد استاء ، أو أنه ذهل .. ولكنه ما لبث أن قال : « إننى لم أتوقع قط أن أسمع هذا التعبير منك . وما أظننى فعلت أو قلت ما أستحق من أجله الازدراء » .

وتأثرت لرقة لهجته ، التى زادها جلالا ما شاع فى نبراته من ارتفاع هادئ ، فقلت : « ألا اغفر لى الكلمات التى قلتها ياسانت جون ، ولكن الذنب ذنبك ، إذ عرضت موضوعاً تتباين إزاءه طبيعتانا .. موضوعاً لايجب أن نناقشه مرة أخرى قط . إن مجرد كلمة (الحب) تخلق بيننا خلافاً .. ألا تنح يا ابن عمى عن مشروع الزواج ، وانسه ! » .. ولكنه قال : « لا .. إنه مشروع طالما راودنى ، وهو الوحيد الذى يحقق غايتى العظيمة ، ولكننى لن أستحثك فى الوقت الراهن ، وسأرحل غداً إلى (كمبردج) ، فإن لى بها كثيراً من الأصدقاء أريد أن أودعهم ، ولسوف أغيب لأسبوعين ، فانتهزى هذه الفترة وفكرى فيما عرضت عليك ،

ولا تنسى أنك إذا رفضت فلست تنكرين لى ، وإنما تنكرين لله ! .. فهو يفتح أمامك — عن طريقى — أبواب حياة نبيلة ، ولا سبيل لك إليها إلا بأن تصبحى زوجتى .

وبهذا فرغ من حديثه .. وفيما كنا فى طريقنا إلى البيت ، قرأت فى صمته الحديدى كل ما كان يساوره نحوى : شعور من الاستياء انبعث عن طبيعة صارمة مستبدة قوبلت بالمقاومة حيث كانت تتوقع الاستكانة . كان — كرجل — يتمنى لو قسرنى على الرضوخ عنوة ، وما احتمل رفضى بصبر إلا كرجل دين مخلص فى تقواه ! .. وعندما قبل شقيقتيه — إذ حان موعد النوم فى تلك الليلة — آثر أن ينسى تقبيلى ، بل ومصافحتى .. وغادر الغرفة فى صمت .. وتألمت لهذا الجفاء ، وأنا التى كنت أكن له وداً كبيراً ، وإن لم أكن له حباً .. وجاشت عواطفى إلى درجة بعثت الدموع فى عينى ! .. فقالت ديانا : « أرى أنك وسانت جون قد تشاجرتما أثناء نزهتكما فى الوادى ، ولكن يحسن بك أن تلحقى به ، فإنه يتلكأ فى الردهة .. ولسوف يصالحك ! » .

ومن عادة كبريائى ألا تستبد بى فى مثل هذه الظروف ، فإننى أسعد — بدلا من أن أتحيز لكرامتى — إذا سنحت فرصة الصلح ، لذلك هرعت فى إثر سانت جون ، فإذا به يقف عند بداية الدرج .. وقلت له : « عم مساء ياسانت جون » ، فأجاب فى هدوء : « عمى مساء ياجين » . قلت : « إذن فلنتصافح ! » .. وشد ما كانت قبضته باردة ، متراخية ! .. كان استياؤه مما حدث عميقاً بحيث لاتقوى حرارة الود على إذابته ، ولا الدموع على اجترافه ! .. لم يكن ثمة من سبيل إلى وئام هنىء :

فلا ابتسامة مجاملة ، ولا كلمة لطيفة . ومع ذلك فإن رجل الدين ظل صابراً ، بارد الأعصاب ، وعندما سألته عما إذا كان قد صفح عنى ، أجاب بأنه لم يعد أن يتشبث بذكرى ما يعرض له من استياء ، وأنه لا يرى ثمة ما يستدعى الصفح ، بل إنه لا يشعر بأنه قد تلقى إهانة ما !

وبهذا الجواب فارقنى .. ولكم كنت أوثر لو أنه ضربنى فصرعنى !

* * *

الفصل الخامس والثلاثون

● ولم يرحل سانت جون إلى كمبردج فى اليوم التالى كما قال ، وإنما أرجأ سفره أسبوعاً بأكمله . وفى هذه الفترة جعلنى أحس بأى عقاب قاس فى وسع رجل طيب وإن يكن جاف الطبع ، حى الضمير وإن يكن جائراً لا يرحم ، أن يوقعه بشخص أهانه !.. فقد حرص على أن يدخل فى روعى على الفور — ودون أن يأتى بأى تصرف عدائى صريح أو ينبس بكلمة تحمل معنى التقريع — بأننى لم أعد أحظى بعطفه !.. وليس معنى هذا أنه كان يضمر فى أعماقه روحاً خبيثة تتنافى مع المبادئ المسيحية ، أو أنه كان يود إيذاء شعرة واحدة فى رأسى . فقد كان — سواء بطبعه أو بحكم مبادئه — أسمى من أن ينساق للذة الانتقام الوضيعة .. كان قد غفر لى أننى ازدريته ونبذت حبه ، ولكنه لم ينس الكلمات التى قلتها ، وما كان لينساها طالما ظل وإياى على قيد الحياة . وكنت أرى فى نظرته — عندما كان يلتفت نحوى — أن تلك الكلمات كانت مسطورة بينى وبينه فى الهواء كما كان رنين صوتى يحملها إلى أذنه كلما تكلمت ، وصداها

يتردد فى صوته كلما أجابنى .. ولم يكف عن الحديث إلىّ ، بل إنه استمر يدعونى إلى مكتبه كل صباح كالمعتاد . وأكاد أسىء الظن فأقول إن الرجل الفاسد الذى كان كامناً فى أعماقه ، كان يجد متعة — لا يشاركه إياها أى متدين صادق التقوى — فى أن يبدى براعته فى تجريد كل عمل وكل قول مما كان يضفيه على أعماله وأقواله — من قبل — من سحر وود ، فى الوقت الذى يتظاهر فيه بأنه عادى فى تصرفاته وكلامه !..

والواقع أنه لم يعد فى نظرى إنساناً من لحم ، وإنما صار تمثالا من رخام .. كانت عينه باردة براقة كالماسة الزرقاء ، ولسانه مجرد آلة ترسل الكلام .. وحسب !.. وكان كل هذا يعذبنى عذاباً رفيع الأسلوب طويل المدى . كان يوقد ناراً بطيئة من الإباء والشمم ، ومن القلق الخافق بالأسى .. مما أضنانى وحصرنى حصراً . وشعرت كيف أن هذا الرجل الطيب ، الصافى صفاء النبع المعتم ، كان خليقاً بأن يقتلنى — لو أننى كنت زوجة — دون أن يريق من عروقى نقطة دم واحدة ، أو يتحرك ضميره الشفاف بأى شعور بالجرم !.. وكنت أزداد شعوراً بهذا ، حين أبذل أية محاولة للصلح معه ، فلم أكن أحظى بتودد فى مقابل ودى.. لم يكن يعانى أى ألم من جراء التباعد ، ولا كان يحس بأى حنين إلى الصلح ، ومع أن دموعى المنهمرة كانت تتساقط — فى أكثر من مرة — على الصفحة التى نعكف على قراءتها ، إلا أنها لم تكن تؤثر فيه ، وكان فؤاده قدّ حقاً من صوان أو معدن !.. وفى الوقت ذاته كان يبدو أكثر ترفقاً بشقيقتيه مما اعتاد ، وكأنما كان يخشى أن مجرد البرود غير كاف لإقناعى بأننى منبوذة مبعدة ، فأراد بإبراز الفارق فى المعاملة أن يزيد

من إيلامى :: ولكنى واثقة من أنه لم يكن يصدر فى هذا عن خبث ، وإنما وفقاً لمبدأ !.:

وتصادف أن رأيته — فى الليلة السابقة على رحيله — يتمشى عند الغروب فى الحديقة ، فلما نظرت إليه تذكرت أن هذا الرجل — الذى كان يجافينى على هذا النحو — قد أنقذ حياتى يوماً ، وأننا على صلة من القربى وثيقة ، فشعرت بأننى منساقة إلى أن أبذل محاولة أخيرة كى أسترد وده ، ومن ثم صعدت إليه وهو متكئ على بوابة الحديقة ، وبادرته قائلة :

« إننى شقية ياسانت جون لأنك ما تزال غاضباً منى . فدعنا نكن صديقين ! » . فكان الجواب الذى لم يكن يتزحزح عنه : « كنت أظن أننا صديقان » .. قالها فى فتور وهو منصرف إلى تأمل القمر الذى بدأ يبزغ . فقلت : « لا ياسانت جون ، لسنا صديقين كسابق عهدنا ، وأنت تدرك هذا » .

— ألسنا صديقين ؟.. هذا خطأ .. إننى من ناحيتى لا أرجو لك شراً ، بل أتمنى لك كل خير .

— إننى أصدقك يا سانت جون ، لأننى واثقة من أنك لاتقوى على أن تتمنى شراً لأى أحد ، على أننى — كقريبة لك — أجد من حقى أن أرجو منك وداً يفوق هذا اللون العام من العاطفة الإنسانية الذى تبسطه لمن هم مجرد أغراب .

— إن رغبتك معقولة بالطبع ، وأنا بعيد من أن أعتبرك غريبة ؟.

وكانت هذه العبارة التى نطق بها فى برود وسكينة ، كفيلة بأن تغيظنى وتحيرنى ، ولو أننى أصغيت إلى وسوسة الكبرياء والحنق ،

لتحولت عنه لفورى ، ولكن شيئاً أقوى من هذين الشعورين كان يعتمل فى نفسى ، فقد كنت أقدر مواهب ابن عمى ومبادئه ، تقديراً عميقاً ، وكانت صداقته ذات قيمة فى نظرى ، ومن ثم فقد كان فقدانها عناء قاسياً ، لايجعلنى أتخلى بسرعة عن محاولة استردادها . فقلت : « أنفترق على هذا الشكل ياسانت جون ؟.. وهل إذا رحلت إلى الهند خلفتنى هكذا ، دون كلمة أكثر تلطفاً مما قلت الآن ؟ » . فتحول إذ ذاك عن القمر وواجهنى قائلا : « عندما أذهب إلى الهند ياجين سأخلفك ؟! .. ماذا ؟.. ألست راحلة إلى الهند ؟ » .

— إنك قلت ألا رحيل لى إلا إذا تزوجت منك .

— وهل لن تتزوجى منى ؟! .. أما زلت متشبثة بهذا القرار ؟

أتعرف أيها القارئ — كما أعرف أنا — أى إرهاب يستطيع أولئك الذين أوتوا طباعاً باردة ، جامدة ، أن يبثوه أسئلتهم ؟.. ومدى الجليد الذى يدفنون تحت ركامه غضبهم ؟.. وما لاستيائهم من حدة قمينة بأن تحطم البحار المتجمدة ؟.. على أننى أجبت قائلة : « لا ياسانت جون ، لن أتزوجك .. إننى مصممة على قرارى » .. واهتز جبل الجليد ومال قليلا إلى الأمام ، ولكنه لم يمن بعد بالانهيار . وقال : « مرة أخرى أسائلك لماذا الرفض ؟ » .. فأجبت : « كان فى البداية لأنك لم تكن تحبنى ، أما الآن فلأنك تكرهنى تقريباً ! .. ولو أننى تزوجتك لقتلتنى .. بل إنك تقتلنى الآن ! » .

وشحبت شفتاه ووجنتاه ، حتى صارت ناصعة البياض ، ثم قال : « لقتلتك .. أنا الآن أقتلك ؟.. هذه كلمات ما كان يجب أن تستعمليها ،

فهى عنيفة ، وتنافى روح الأنوثة ، وغير صحيحة .. إنها تشى بحالة ذهنية أثيمة ، وجديرة بأن تجلب عليك التأنيب الشديد .. إنها ليست مما يمكن اغتفارها ، ولكن واجب الإنسان أن يغفر لأخيه سبعاً وسبعين غلطة ! » .

وكنت إذ ذاك قد فرغت من مهمتى ، فبينما كنت تواقة إلى أن أمحو من ذهنه إهانتى السابقة ، إذا بى أطبع على سطحه الصلب أثراً آخر أشد غوراً من سابقه .. طبعته بالكى المحرق ! وقلت : « لسوف تكرهنى الآن فعلا ، فلا جدوى من محاولة الصلح ، بل أرى أننى جعلت منك عدواً إلى الأبد ! » .. وأحدثت هذه الكلمات أذى جديداً ، أنكى من السابقين ، لأنها مست الحقيقة ، فإذا الشفة الممتقعة ترتجف فى تشنج عابر .. وتبينت مدى الحقد الحاد الذى شحذته ، فاعتصر الألم فؤادى : وقلت وقد أمسكت يده : « إنك تسىء تأويل كلامى ، فلست أنتوى حقاً أن أؤلمك أو أسىء إليك ، وما انتويت من قبل ! » .

وابتسم فى مرارة ضافية ، وسحب يده فى إصرار بالغ ، وقال بعد صمت طويل : « والآن ، أحسبك تسحبين وعدك ، ولن تذهبى إلى الهند إطلاقاً ؟ » .. فأجبت : « بل سأذهب ، كمساعدة لك » .. وتلا ذلك صمت جد طويل ، فأى صراع كان يدور فى نفسه — خلال تلك الفترة — بين الطبيعة والدين .. لست أدرى ، ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق عجيب ، كما غامت على وجهه ظلال غريبة ، وتكلم فى النهاية ، فقال : « لقد بينت لك من قبل الحرج الذى يحيط باعتزام امرأة بكر فى سنك أن ترافق إلى الخارج رجلا أعزب فى سنى .. بينته لك بعبارات كانت كافية — على ما ظننت — لأن تمنعك من التمادى فى هذا الرأى : أما وقد

تماديت ، فإنى أشعر بالأسف .. من أجلك ! » : وكان أى حديث يحمل معنى التأنيب ، كفيل بأن يثير جرأتى ، فقاطعته قائلة : « احرص على ألا تجانب الإدراك السليم ، فإنك على شفا الهذيان يامستر جون .. إننى أكرر لك القول بأننى سأكون مجرد مساعدة لك إن شئت ، ولكنى لن أكون أبداً زوجتك ! » .

واشتد شحوب وجهه مرة أخرى ، ولكنه تمالك جأشه تماماً ، وأجاب فى إصرار ، ولكن دون انفعال : « لن تناسبنى قط مساعدة لاتكون زوجة لى .. ومن ثم يبدو جلياً ألا رحيل لك معى . على أنك إذا كنت صادقة فى رغبتك فى الذهاب ، فسأتحدث — أثناء وجودى فى المدينة — إلى مبشر متزوج ، تحتاج زوجته إلى مساعدة ، وستمكنك ثروتك من ألا تعيشى عالة على معونة الجمعية ، وبهذا تتفادين عار النكث بوعدك ، والتخلف عن الركب الذى تعهدت بالانضمام إليه » ..

وكما يعلم القارئ ، لم أكن قد قطعت على نفسى وعداً رسمياً ، ولا ارتبطت بأى تعهد ، ومن ثم كان أسلوبه أقسى وأعتى مما ينبغى ، فقلت : « لا عار هناك ، ولا نكث بوعد ، ولا تخلف ، ولست مرتبطة بأتفه التزام بالذهاب إلى الهند ، لاسيما مع أغراب . لقد كنت مستعدة لأن أجازف بالسفر معك ، لأننى أعجب بك ، وأثق فيك ، وأحبك كأخت .. ولكنى موقنة من أننى إذا ذهبت إلى هناك — متى ومع من يقدر لى الذهاب — فلن أعيش طويلا فى ذاك الطقس » . فلوى شفته ازدراء ، وقال : « آه ! .. إنك تخافين على نفسك » . فأجبت : « أجل ، فإن الله لم يمنحنى الحياة لكى أرميها ، ولقد بدأت أرى أن إتيان ما تريد

منى فعله ، يكاد يعادل الانتحار . فضلا عن أننى لابد من أن أتأكد – قبل مبارحتى انجلترا – من أن بقائى هنا لن يكون أكثر نفعاً من رحيلى» .

فتساءل : « ما الذى تعنين ؟ » .

– من العبث أن أشرح لك ، ولكن هناك نقطة ظللت أعانى مرارة الشك فى أمرها طويلا ، وليس لى أن أذهب إلى أى مكان حتى يتبدد هذا الشك .

– إننى أعرف أين يهفو قلبك وإلام يتعلق .. وهذا الاهتمام ينافى القانون والشرع ، وكان خليقاً بك أن تسحقيه من أمد طويل ، كما يجدر بك الآن أن تخجل من الإشارة إليه .. أتفكرين فى مستر روشستر ؟

وكان هذا حقاً ، وكان صمتى اعترافاً به ، فعاد يسأل : « هل ستبحثين عن مستر روشستر ؟ » . فأجبت : « لابد من أن أعرف ما أصابه » . فقال : « لم يبق لى إذن سوى أن أذكرك فى صلواتى ، وأدعو الله من أجلك ! » .

* * *

● وإذ عدت إلى قاعة الجلوس ، وجدت ديانا واقفة لدى النافذة ، مستغرقة فى التفكير .. وكانت تفوقنى طولا بكثير ، فألقت يدها على كتفى ، ومالت فوق تتفرس وجهى ، ثم قالت : «جين ، لقد أصبحت دائمة الانفعال والشحوب ، وأعتقد أن فى الأمر شيئاً ، فأخبرينى بما بينك وبين سانت جون .. لقد ظللت أراقبكما من النافذة نصف ساعة ولتصفحى عن تجسسى ، ولكننى منذ زمن أوجس من أمر لا أدريه .. أن سانت جون مخلوق عجيب .. » ، وأمسكت عن الكلام ، فلم أنبس

ببنت شفة . وما لبثت أن استأنفت حديثها قائلة : « إننى واثقة من أن هذا الأخ الذى أوتيه يهيم وراء آراء عجيبة عنك ، وقد آثرك من أمد طويل بعناية واهتمام لم يولهما أحداً سواك .. فما غايته ؟.. ليته يحبك .. هل هو يحبك ياجين ؟ » .

فرفعت يدها الباردة إلى جبينى الملتهب ، وقلت : « لا ياديانا .. إنه لا يحبنى مثقال ذرة ! » . فتساءلت : « إذن فلماذا يتبعك هكذا بعينيه ، ويخلو إليك كثيراً ، ويستبقيك باستمرار إلى جواره ؟.. لقد استنتجت ومارى أنه يريد الزواج منك » . فقلت : « هو كذلك .. لقد سألنى أن أكون زوجته » . فصفقت ديانا وهتفت : « هذا ما تمنيناه وفكرنا فيه !.. ولسوف تتزوجينه ياجين .. ألست كذلك ؟.. إنه إذ ذاك سيمكث فى انجلترا » . وهنا قلت : « إن الأمر بعيد عن هذا ياديانا ، فإن فكرته الوحيدة فى عرض الزواج هى الحصول على زميل صالح يشاطره جهوده فى الهند » .

– ماذا ؟.. أيريد منك أن تذهبى إلى الهند ؟

وإذ أجبت نعم ، هتفت : «جنون !.. إنك لن تعيشى هناك أكثر من ثلاثة أشهر .. إننى واثقة من ذلك . لن تذهبى .. ما أظنك وافقت يا جين ؟ » . فقلت : « بل رفضت الزواج منه » . فعقبت قائلة : « وبهذا أغضبته ؟ » .

– إلى أعمق حد ، فلن يصفح عنى قط .. ومع ذلك ، فقد عرضت عليه أن أرافقه كأخت له .

– إنها الحماقة بالغة ياجين : فكرى فى المهمة التى ستضطلعين بها ..

إنها عناء متواصل ، في بلاد يقتل التعب فيها الأقوياء ، في حين أنك ضعيفة !.. ولكن ، كيف رفضت الزواج منه .. إذن ، فأنت لا تحبينه ياجين ؟

— لست أحبه كزوج .

— ومع ذلك فهو شاب مليح .

— وأنا خالية من الجمال كما ترين يا (دى) ، ومن ثم فلن يلائم أحدنا الآخر .

— أأنت خالية من الجمال ؟.. أبداً !.. إنك من الملاحة والطيبة بحيث لا ينبغي أن تشوى حية في كلكتا .

وعادت تهيب بي في إخلاص أن أطرح كل فكرة في الرحيل مع أخيها ، فقلت : « لابد لي من ذلك فعلا ، لأنني عندما كررت اقتراحي عليه بأن أخدمه كأخت ، بهت لقلة حيائي ، وبدا أنه يراني قد ارتكبت ذنباً إذ اقترحت عليه أن أرافقه دون زواج ، وكأنني لم أكن آمل من البداية أن أتخذه أخاً ، ولم أعتد أن أعتبره كذلك ! » .: فسألتني : « وما الذي يحملك على الظن بأنه لايحبك ياجين ؟ » . فأجبت : « يحسن بك أن تسمعيه إذ يتكلم في الموضوع .. لقد عبر مراراً وتكراراً عن أنه لايريد زوجة لشخصه ، وإنما من أجل مهمته . ولقد أخبرني بأنني خلقت للعمل وليس للحب ، وهذا حق بلا شك . ولكني أرى أنني إذا كنت لم أخلق للحب ، فأنا بالأحرى لم أخلق للزواج . أفلا يكون من العجيب بعد ذلك يا (دى) أن أقيد نفسي مدى الحياة برجل لايراني أكثر من أداة نافعة ؟ » .: فهتفت : « إنه أمر لا يطاق .. غير طبيعي ..

لا يستحق الاعتبار ! » . فاستطردت قائلة : « ثم إنني وإن كنت أكن له الآن حباً أخوياً ، إلا أنني أتصور — إذا ما اضطررت إلى الزواج منه — احتمال قيام نوع من الحب الغريب ، المضني ، الذي لامفر منه ، لأنه جم المواهب ، وفي منظره وأخلاقه وحديثه قدر من وقار الأبطال ، في كثير من الأحيان . وفي هذه الحالة ، سيصبح حظي تعساً إلى درجة تجل عن الوصف . إنه لن يريد مني أن أحبه ، فإذا أبديت عاطفتي فسيعمد إلى إشعاري بأن هذا نوع من التنعم الذي لايبغيه ، والذي لايليق بي ؛ إنني أوقن من أن هذا سيكون تصرفه » .

وقالت ديانا : « ومع ذلك فإن سانت جون رجل طيب » . فقلت : « إنه طيب وعظيم ، ولكنه ينسى — في غير إشفاق — مشاعر ومطالب الناس البسطاء ، في اندفاعه وراء نظرياته الجليلة .. لذلك يحسن بمن لا يضاهونه عظمة ، أن يبتعدوا عن طريقه ، وإلا داسهم في سيره ، هاهو ذا آت ، لذلك ، فسأتركك ياديانا » . وأسرعت أصعد إلى الطابق العلوي ، إذ رأيته يلج الحديقة .

ولكنني اضطررت إلى مقابلته مرة أخرى عند العشاء . وبدا — خلال تناول الطعام — هادئاً كعادته . وكنت أظنه لن يوجه إليّ حديثاً ؛ كما كنت موقنة من أنه قد تخلى نهائياً عن مشروع الزواج ؛ ولكنني أخطأت الحدس في الأمرين . فقد خاطبني بنفس طريقته المعهودة — أو التي أصبحت معهودة في المدة الأخيرة — وهي طريقة تتسم بأدب متزمت . ولا مراء في أنه استعان بالروح القدس ليكظم الغضب الذي أثرته في نفسه ، فخيل إليّ أنه قد صفح عني مرة أخرى . واختار للقراءة

المسائية — السابقة على الصلاة — الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الرؤيا
ولقد كان من الممتع دائماً أن أنصت بينا تنطق شفتاه الجميلتان بكلمات
الإنجيل . فما كان صوته الرقيق ليبدو أكثر عذوبة وامتلاء ، ولا كانت
لهجته تبدو فى بساطتها السامية أكثر تأثيراً فى النفس ، منها عندما يتلو
كلام الله ..أما فى هذه الليلة ، فقد اكتسب الصوت نغمة أكثر روعة ،
واكتسبت لهجته معنى أكثر تأثيراً فى النفس .. وكان يجلس وسط حلقة
من أهل بيته ، وقد بدا قمر شهر مايو متألقاً خلال النافذة التى انزاحت
عنها الستار ، فجعل ضوء الشمعة القائمة على المنضدة يبدو غير لازم : هكذا
كان يجلس عاكفاً على نسخة الإنجيل العتيقة الضخمة ، ينقل عن صفحتها
رؤيا السماء الجديدة ، والأرض الجديدة ، ويروى كيف سيهبط الرب
ليعيش بين الناس ، وكيف سيجفف الدموع عن أعينهم ، ويعد بأنه
لن يكون ثمة موت بعد ذلك ، ولا أسى ، ولا عويل ، ولا أى ألم ،
لأن الأشياء السالفة ستنقضى وتزول !..

وهزتنى الكلمات المتعاقبة بقوة عجيبة وهو ينطق بها ، لاسيا حين
شعرت — من التغير البسيط التافه الذى انتاب صوته — أن عينيه قد تحولتا
نحوى ، وهو يلفظ هذه الكلمات : «من يغلب يرث كل شىء وأكون
له إلهاً ، وهو يكون لى ابناً وأما» ، وهنا تباطأت لهجته وأخذ يضغط على
الكلمات «الخائفون ، وغير المؤمنين ... فنصيبهم فى البحيرة المتقدة
بنار وكبريت ، الذى هو الموت الثانى» .. ومن هنا أدركت أى مصير
كان سانت جون يخشى أن أناله !.. واتسمت قراءته للفقرات الأخيرة
من هذا الإصحاح ، بشعور من النصر الهادئ المكبوت الممتزج بحماس

مشبوب . وكأنما آمن هذا القارئ بأن اسمه قد كتب فعلا فى «سفر
الحياة» ، فتاقت نفسه إلى الساعة التى يؤذن له فيها بدخول المدينة التى
يحمل إليها ملوك الأرض أمجادهم ومفاخرهم ، حيث لاحاجة إلى شمس
أو قمر لإضاءتها ، لأن جلال الله ينيرها ..

وتجمعت كل طاقته ، واستيقظ كل إيمانه الورع فى الصلاة التى
أعقبت هذا الإصحاح ، فكأنما كان يجاهد من أجل الله بكل إخلاص ،
وقد عقد العزم على الغلبة ، وراح يطلب القوة لذوى القلوب الضعيفة ،
والهداية للضالين ، والتوبة — ولو فى الساعة الأخيرة — لأولئك الذين
كانت إغراءات الدنيا والجسد تحيد بهم عن الطريق الضيقة . وراح
يطلب ، ويلح فى السؤال ، يرجو نعمة النجاة من النار ، وللإخلاص
رهبة عميقة ، فوجدتنى أفكر فى إخلاصه .. أولا وأنا أصغى إلى الصلاة ،
ثم عندما بلغت ذروتها ، فإذا بى أتأثر بها ، ولا ألبث أن أخشع لرهبتها ..
كان يشعر مخلصاً بعظمة وصلاح غرضه ، ويشهد بذلك الآخرون
الذين استمعوا إليه ، لأنهم لم يملكوا سوى أن يشعروا بذلك .

وإذ انتهت الصلاة ودعناه ، إذ كان مزمعاً الرحيل فى ساعة جد
مبكرة من الصباح . فلما قبلته ديانا وماري ، غادرتا الحجرة ..
وإخالهما فعلتا ذلك عن قصد ، إثر همسة منه .. وبسطت له يدى متمنية
له رحلة بهيجة ، فقال : «شكراً لك ياجين . ولسوف أعود من كمبرج
بعد أسبوعين ، كما قلت لك ، وهذه الفترة مهلة تفكرين فيها . ولو أننى
أنصت للكبرياء البشرية ، لما كان لى أن أحدثك ثانية عن الزواج منى ،
ولكنى أنصت لواجبى ، وأضع نصب عينى دائماً هدفى الأول :» وهو

أن أفعل كل الأشياء ، فى سبيل مجد الرب . لقد عانى معلمى (المسيح) طويلا ، وكذلك سأعانى ، فلست أقوى على أن أتركك للهلاك ، كسفينة ضالة !.. ألا توبى ، وأنيبى ، قبل فوات الأوان !.. تذكرى أننا أمرنا بالعمل والوقت نهار ، وأنذرنا بأن « الليل لن يلبث أن يأتى ، فلا يتاح لإنسان أن يعمل » .. ويمنحك الله القدرة على أن تختارى النصيب الذى لاسبيل إلى انتزاعه منك ! » .

ووضع يده على رأسى وهو ينطق بهذه الكلمات . وكان يتكلم بحماسة ورقة .. ولم تكن نظرته فى الواقع نظرة محب يتطلع إلى محبوبته ، وإنما كانت نظرة راع يجمع حملانه الشاردة ، أو بالأحرى نظرة ملاك حارس يرقب الروح التى هو عنها مسئول .. إن لكل الموهوبين — سواء كانوا مرهفى الحس أو لم يكونوا وسواء كانوا متحمسين أو طموحين أو طغاة — لحظات من السمو يسودون فيها ويسيطرون ، على أن يكون الإخلاص والصدق رائدهم . وشعرت بتوقير نحو سانت جون ، توقير بلغ من قوته أن دفع بى فوراً إلى النقطة التى كنت أحاول طويلا الابتعاد عنها .. فلقد ساورتنى إذ ذاك الرغبة فى أن أكف عن مناضلته ، وأن أندفع فى تيار إرادته إلى بحر حياته فأفقد إرادتى فى تياره .. وشعرت الآن بوطأة حصاره لى كما شعرت به مرة من قبل :

ووقفت بلا حراك تحت لمسات ساحرى ، وقد نسيت رفضى ، وزالت مخاوفى وشلت مقاومتى ، وأصبح المستحيل — وهو الزواج من سانت جون — ممكناً . لقد تغير كل شىء تماماً بلمسة مباغتة : إن الدين ينادى « والملائكة تومىء ، والله يأمر ، والحياة تطوى ، وأبواب

الموت مفتوحة تطل الأبدية من خلفها .. وبدا لى أنه لابد من التضحية بكل شىء فى التوّ والحظة ، لكى أحصل على الأمان والسعادة .. وامتلأت الغرفة المعتمة بالرؤى والأحلام .. وما لبث أن سألنى سانت جون بلهجة رقيقة ، وقد سحبنى إلى جانبه بلطف : « هل تستطيعين أن تقررى الآن ؟ » . آه من هذه الرقة !.. لشد ماهى أقوى من العنف !.. لقد كنت أستطيع أن أقاوم غضب سانت جون ، ولكنى كنت أنثنى كعود الخيزران تحت ضغط رقته ولطفه . ومع هذا فقد كنت أعرف طيلة الوقت أننى إذا استسلمت الآن فإن الندم لن يساورنى يوماً على سابق تمردى وعصيانى ، إذ أن طبيعته لم تكن قد تبدلت إثر ساعة من الصلاة ، وغاية مافى الأمر أنها سمت عالياً .. فحسب !

وأجبت أخيراً : « بوسعى أن أبت الآن ، لو أننى وثقت بأن إرادة الله تفرض علىّ أن أتزوجك .. لو أننى اقتنعت لتزوجتك هنا ، والآن ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! » . فصاح سانت جون : « لقد استجيبت صلواتى ! » . وشد قبضته على يدى وكأنه يستولى على ماهو حق له : وأحاطنى بذراعه وكأنه يحبنى « تقريباً » وأقول تقريباً ، لأننى أدرك الفرق ، فلقد عرفت شعور الإنسان عندما يكون محبوباً . ولكننى غدوت مثله ، فطرحت مسألة الحب وراء ظهرى ، وجعلت أفكر فى الواجب فقط !.. وأخذت أصارع ما اكتنف بصيرتى من عتمة وظلام . كنت أتوق بإخلاص وحرارة وصدق إلى أن أفعل الشىء الصحيح ولا أحفل بغيره .. وابتهلت إلى السماء : « ألا دلينى .. أرشدينى إلى الطريق ! » . وشعرت بانفعال لم أشعر بمثله من قبل ، وسواء كان

ما حدث بعد ذلك نتيجة للانفعال أو لم يكن ، فهذا متروك لحكم القارئ :

كان السكون يخيم على المنزل كله : إذ هجع الجميع ، ما عداى وسانت جون .. وكانت الشمعة الوحيدة تحتضر ، وضوء القمر يغمر الحجرة ، وقلبي يدق بسرعة وعنف .. حتى أنى كنت أسمع وجيبه .. وفجأة ، أخلد القلب إلى السكون ، إذ غشيه إحساس غريب ، لم أدر كنهه ، ولم يلبث أن سرى إلى رأسي وأطرافي .. وما كان هذا الإحساس كمس الكهرباء ، ولكنه كان — على أي الحالات — حاداً ، غريباً ، مذهلا ، أرسل في حواسي — التي كانت في أقصى انتباهها حتى تلك اللحظة — مفعولا مخدراً ، سارعت إلى انتزاعها منه وإيقاظها .. فانتبهت مرهفة ، تتوقع أمراً .. فإذا عيني وأذني في انتظار ، بينما كان لحمي يرتعش فوق عظامي . وسألني سانت جون : « ما الذي سمعت ؟ .. وما الذي ترين ؟ » .. ولم أكن قد رأيت شيئاً ، ولكني سمعت صوتاً ينادي من مكان ما :

« جين ، جين ، جين ! » ، ولا شيء أكثر من ذلك .. وشهقت قائلة : « يا إلهي ! ما هذا ؟ » .. ولعلني قلت أيضاً : « أين هو ؟ » لأني لم أر شيئاً في الحجرة ، ولا في المنزل ، ولا في الحديقة .. على أن الصوت لم ينبعث من الهواء ، ولا من تحت الأرض أو من فوق رأسي .. لقد سمعته ، ولكن كان من المستحيل أن أدري : أين ولا أيان ! .. ولقد كان صوت كائن بشري ، معروف ، ومحبوب .. كان صوتاً أتذكره جيداً : صوت إدوارد فيرفاكس روشستر ! .. وكان يتكلم بألم ، وأسى ، ولهفة ، واستنجاد ، وتعجل ! .. فصحت قائلة : « إني قادمة ! ..

انتظرني ! . أوّاه ، سأحضر ! » . وهرولت إلى الباب فنظرت إلى الممر الذي كان مظلماً ، وجريت إلى الحديقة فوجدتها خالية .. فناديت في دهشة : « أين أنت ؟ » .

وأرسلت التلال عبر الوادي رداً واهناً : « أين أنت ؟ » .. وجعلت الرياح تئن في خفوت خلال أشجار الصنوبر ، بينما كانت الوحشة والوحدة تسيطران على التلال المقفرة ، وخيم سكون منتصف الليل على المكان .

وقلت لسانت جون ، إذ خيل إليّ أنني أرى شبحاً أسود يبرز عند الشجرة السوداء المجاورة لباب الحديقة : « ألا دعني من الأوهام الخرافية ! .. ما هذا من صنع دجلك أو سحرك ، وإنما هو من صنع الطبيعة .. لقد ثارت ، وإذا كانت لم تفعل المعجزات ، إلا أنها بذلت قصارى جهدها ! » . وابتعدت عن سانت جون ، ولو استطاع لاحتجزني . ولكن هذه كانت ساعتي التي أسترد فيها سطوتي ونفوذي ، فإذا قواي تنطلق من عقالها في شدة .. وطلبت إلى سانت جون أن يمسك عن أي سؤال أو ملاحظة ، ورغبت إليه أن يتركني لأخلو إلى نفسي ، فأطاعني على الفور . وما دام الإنسان يملك الطاقة الكافية لكي يأمر بصورة حاسمة ، فإنه لا يجد سوى الطاعة ! .. وصعدت إلى غرفتي فأغلقتها بالمفتاح ، ثم ركعت على ركبتي ورحت أصلي على طريقتي .. وقد تغاير طريقة سانت جون ، ولكنها فعالة .. فبدا لي أنني أقترب جداً من الله .. واندفعت روحي ساجدة عند قدميه ، عرفاناً وشكراً . وعندما نهضت من صلاتي ، كنت قد عقدت العزم على أمر ، فاستلقيت على فراشي

وقد انزاحت الهموم عن كاهلى ، وزالت الغشاوة عن بصرى ، وانتظرت بلهفة شروق الصباح !

* * *

الفصل السادس والثلاثون

• وأقبل النهار ، فنهضت عند الفجر وانهمكت ساعة أو ساعتين فى ترتيب حاجتى فى غرفتى وأدراجى وصوانى ، وقد اعتزمت أن أغيب عنها فترة وجيزة . وسمعت فى الوقت ذاته (سانت جون) يبرح غرفته ثم يقف عند بابى . وخشيت أن يطرقه ، ولكنه اكتفى بأن دفع من تحت الباب ورقة ، فتناولتها ونظرت إليها ، وإذا فيها : « لقد تركتنى فجأة ليلة أمس ، ولو أنك مكثت برهة وجيزة ، لوضعت يدك على صليب المسيح وتاج الملاك . سأنتظر منك قراراً واضحاً عند عودتى بعد أسبوعين وفى الوقت ذاته ، حاذرى وصلى لكى لا تقعى فى الغواية .. إن روحك راغبة ، ولكن الجسد — على ما أرى — ضعيف . سأصلى من أجلك فى كل ساعة — المخلص : سانت جون » .. وهتفت فى نفسى : « إن روحى راغبة فى أن تفعل ماهو صواب ، وجسدى — فيما أرجو — قوى إلى الدرجة التى تمكنه من تحقيق إرادة السماء ، بمجرد أن تتكشف لى هذه الإرادة . وعلى أية حال ، فلسوف أكون من القوة بحيث أستطيع البحث والسؤال ، والتنقيب عن منفذ من غيوم الشك هذه ، كى أصل إلى نهار اليقين ! » :

وكان اليوم أول أيام شهر يونيو ، ومع ذلك فقد كان الصباح بارداً مطيراً ، وأخذ المطر يطرق بشدة زجاج نافذتى : وسمعت الباب

الخارجى يفتح ، فينفلت سانت جون خارجاً .. ورأيته — خلال النافذة — يعبر الحديقة ، ثم يتخذ طريقه خلال الآجام الملتفة بالضباب ، نحو (هويتكروس) ، حيث يلتقى بعربة البريد . فقلت له فى نفسى : « لسوف أقفو أثرك بعد ساعات قلائل يا ابن العمة ، وسأستقل أنا الأخرى عربة من (هويتكروس) ، فإن لى أنا الأخرى من أسعى للقائه قبل أن أرحل .. إلى الأبد ! » .. وكان باقياً على موعد الفطور ساعتان ، فأخذت أجوس خلال غرفتى فى هدوء ، وأتأمل الرؤى التى أحدثت هذا التغير فى خططى .. تذكرت الإحساس الغريب الذى خامرنى ، والصوت الذى سمعته بكل مافيه من غرابة لاسبيل إلى تعليلها .. ولاح لى أنه إنما انبعث فى أعماقى وليس فى الكون المحيط بى .. وساءلت نفسى : أفكان مجرد وهم عصبى ؟.. لم يكن فى وسعى أن أجزم ، ولا أن أصدق . كان أشبه الأصوات بالهاتف .. بالإلهام !.. كان الإحساس الغريب أشبه بهزة فتحت أبواب سجن روحى ، وفكتها من أغلالها ، وأيقظتها من سباتها ، فإذا الروح تقفز مرتجفة ، مرهفة السمع ، مبهوتة .. ثم ترددت صيحة ثلاث مرات فى سمعى ، وفى قلبى ، وفى روحى ، فإذا بهذه الثلاثة لا تجزع ، ولا ترتعب ، وإنما انتشت ، وكأنها تحررت بحركة واحدة من أسار الجسد !..

وقلت أختتم تأملاتى : « ساعرف بعد أيام شيئاً عن ذاك الذى خيل إلىّ ليلة أمس أن صوته يدعونى .. لقد أثبتت الخطابات أنها غير مجدية ، ومن ثم فلا بد من التحرى الشخصى » . فلما اجتمعنا حول مائدة الفطور ، أعلنت ديانا ومارى أننى منطلقة فى رحلة قد تستغرق أربعة أيام على الأقل ،

فسألتاني : « أو ترحلين وحدك ياجين ؟ » : فأجبت : « أجل ، فإني ذاهبة لأتفقد أنباء صديق أشعر بقلق من أجله منذ أمد » . ولعلهما قالتا في نفسيهما إنهما كانتا تعتقدان ألا أصدقاء لي سواهم ، فكثيراً ما قلت هذا فعلا .. ولكن ماطبعتا عليه من لطف جعلهما تمسكان عن التعقيب ، وإن سألتني ديانا عما إذا كنت أعتقد أنني في حالة صحية تمكنني من السفر — إذ كانت تراني شاحبة — ولكنني أجبتها بأنني لم أكن أعاني إلا من القلق !..

* * *

● وبارحت (مور هاوس) في الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فلم تأت الساعة الرابعة حتى كنت أقف بجانب علامة الطريق — عند (هويتكروس) أنتظر العربة التي تقلني إلى (ثورنفيلد) . وما لبثت أن سمعتها — وسط السكون الشامل — تقترب من بعد .. وإذا بها عين العربة التي هبطت منها في تلك البقعة ذات أصيل من أصائل الصيف ، منذ عام !.. لكم كنت إذ ذلك بلا حول ولا قوة ولا هدف !.: وسرعان ما كانت تحملني إلى (ثورنفيلد) ، وأنا أشعر وكأنني حمامة تعود إلى عشها !.. واستغرقت الرحلة ستاً وثلاثين ساعة ، فقد بارحت (هويتكروس) بعد ظهر يوم الثلاثاء .. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم بعد التالي ، وقفت العربة — ريثما ترتوي الخيل — عند فندق ريفي ، فإذا المروج الخضر ، والحقول الشاسعة ، والتلال الخفيضة المكسوة بالأعشاب ، تصافح عيني بمناظر مألوفة .. وما كان أبعد الفرق بينها وبين مروج (مورتون) !.: وعلمت من الفندق أنه لم يبق بيني وبين

(ثورنفيلد هول) سوى ميلين ، فطمأنت نفسي إلى أن رحلتي قد أشرفت على نهايتها . فأودعت لدى الفندق صندوقاً ليستبقيه ريثما أعود لاسترداده ، ثم نقدت الحوذي أجراً أرضاه ..

وعندما انطلقت على قدمي ، كانت الشمس تغمر لافتة الفندق ، فقرأت عليها : « فندق ضيعة روشستر » ، فخفق قلبي إذ غدوت في نطاق أملاك سيدي . ولكن خاطراً هتف بي : « قد يكون سيدك نفسه عبر الخليج البريطاني .. وحتى لو كان في قصر (ثورنفيلد) الذي تغذين السير نحوه ، فمن التي تعيش بجواره ؟.. زوجته المجنونة ، ومن ثم فلا شأن لك به ، وليس من حقك أن تكلميه أو تنشدي قربه .. خليق بك ألا تمضي قدماً ، بل سلي أهل الفندق عن الأنباء أولا ! » .. وبدا الاقتراح معقولا ، ولكنني لم أقو على تنفيذه ، فقد خشيت أن أتلقى جواباً يسحق آمالي .: وفي إطالة الشك استبقاء للأمل !.. وما كان أسرع سيري !.: لقد كنت أجري في بعض الأحيان .. وكنت طيلة الوقت أتوق إلى رؤية الغابات المألوفة ، وفي قلبي سيل جارف من العواطف ، فلما لاحت لي في النهاية ، تولاني حبور عجيب ، وزدت من إسراعي في السير : وأنا أتعجل رؤية القصر ذاته ، وأنا أحدث نفسي : « ستكون الواجهة أول ما يصافح عيني .. ولسوف أميز من بين نوافذها نافذة سيدي .. وربما وجدته واقفاً فيها ، فإنه ينهض مبكراً في العادة .. بل لعله الآن يتمشى في البستان أو في الطريق المرصوفة أمام القصر .. آه ، لو قدر لي أن أراه !.: أتراني لا أجن إذ ذاك ، فأهرع إليه ؟.. لست أدري .. وماذا يجري لو فعلت ؟.: ليباركه الله !.. من الذي يضار إذا نعمت مرة أخرى بتذوق

الحياة فى فيض نظراته ؟ .. ولكننى أهذى ، فربما كان فى هذه اللحظة يرقب الشمس فوق جبال البيرنيز أو على بحار الجنوب ! » ..

وبلغت فرجة فى أحد المروج ، قام على جانبيها عمودان ، وكانت تشرف على واجهة القصر مباشرة ، فدسست رأسى فى حذر من خلف أحد العمودين مشوقة إلى أن أتزود بنظرة إلى نوافذ مخدع سيدى ::
ولعل الغربان التى كانت تحوم فوق قد أخذت إذ ذاك لمظهرى ، ولما بدا فى حركاتى من حذر بالغ ، وخجل شديد .. ولكننى سرعان ماتجرأت وأرسلت نظرة خاطفة ، ثم أتبعتها بنظرة طويلة ، ثم اندفعت من مكانى ، فإذا بى أمام القصر ، وهنا كانت الصدمة الكبرى !..

تصور أيها القارئ عاشقاً يفاجئ حبيبته نائمة على العشب .. إنه يود أن يتزود بنظرة إلى وجهها دون أن يوقظها ، ومن ثم يتسلل فى رفق ، أشد ما يكون حذراً ، ثم يقف إذ يخال أنها تحركت .. ويتراجع ، ولكنه يجدها ساكنة ، فيعاود التقدم ، وينحنى فوقها ، ويرفع الخمار الرقيق عن وجهها ، ثم يزداد انحناء ، وتلتهم عيناه جمالها الدافئ الناضر الحبيب بنظرة عاجلة ، ثم تطول نظراته ، فلا يلبث أن يجفل ، ويضم إلى صدره الجسد الذى لم يكن يقوى منذ لحظة على أن يمسه ، ويروح ينادى ، ثم يسقط حمله ، ويحملق فيه ::. ويعود يحتضنه ، ويصرخ ، ويحملق ، وقد زايله الخوف من أن يوقظ الحبيبة .. إذ يتبين إذ ذاك أنها جثة هامدة !

وهكذا كان حالى .. فلقد تطلعت فى فرح مشبوب نحو القصر المنيف فلم أر سوى أطلال سوداء !

لم تكن هناك حاجة للتوارى وراء عمود ، ولا لاختلاس النظر إلى

نافذة المخدع ، ولا الخوف من الحياة التى تدب وراء الجدران .. وما كانت ثمة حاجة لإرهاف السمع توقعاً لأصوات الأبواب وهى تفتح ، أو لوقع الخطى على الطريق المحصوبة ، فقد كان الخراب يرين على كل شىء ::
وكانت الواجهة - كما رأيتها ذات مرة فى مناى - مجرد جدار قائم ، متداع ، تتخلله ثغرات النوافذ .. فلا سقف هناك ، ولا مصاريع ، ولا مداخن .. كل شىء قد انهار ! وأحاط بالموقع كله سكون كالموت ووحشة كئيبة .. لاعجب إذن فى أننى لم أتلق رداً على الخطابين اللذين أرسلتهما !.. وكانت الأحجار الكئيبة ، السوداء ، تنبىء بالمصير الذى لقيه القصر ، فلقد احترق !.. ولكن ، ما الذى أوقد الحريق ، وما قصة النكبة ؟.. وهل راحت الأرواح كما ذهب الصرح ؟.. وكان السؤال رهيباً ، وليس ثمة من يجيب عنه .. وفيما كنت أجوس بين الأطلال ، وقع بصرى - بالرغم منى - على برج الكنيسة المغبر ، فساءلت نفسى : « أترى حبيبى مع دامر روشستر يشاطره مثواه الرخامى الضيق ؟ » :

وكان لابد من إجابات عن هذه الأسئلة فعدت إلى الفندق الصغير : وإذ أحضر لى الفندقى بنفسه طعام الإفطار ، حاولت أن أستفسره ، ولكننى خشيت أن أسمع ما كنت أكره ، فاضطربت هنيهة . بيد أننى ما لبثت أن سألته : « هل تعرف ثورنفيلد هول ؟ » .. فأجاب : « أجل ياسيدتى .. لقد عشت هناك فترة » .. إذن ، فلابد أنه عاش فى غير الفترة التى عشت فيها هناك .. وأردف الرجل : « لقد كنت ساقى المرحوم مستر روشستر » .

المرحوم !.. لكأننى تلقيت لطمة حاولت جاهدة أن أتفاداها ::

وشهقت : « المرحوم ! » ، فقال الرجل : « أعنى والد السيد الحالى
مستر إدوارد » .. وتنفست الصعداء ، وانساب الدم ثانية فى عروق
بعد أن كاد يتجمد . وطمأنتنى الكلمتان — مستر إدوارد — إلى أن
روشستري أنا ، كان ما يزال حياً .. بالكلمتين السارتين ! لقد خيل
إلىّ أن فى وسعى أن أسمع كل ما يلى ذلك بنفس مطمئنة ، مهما كانت
الأنباء :. وعدت أسأل الرجل وأنا أعرف جوابه مقدماً : « هل يقيم
مستر روشستر فى (ثورنفيلد هول) الآن ؟ » . فأجاب : « لا يا سيدتى .:
لا أحد يعيش هناك ، وما أراك إلا غريبة عن هذه الأصقاع ، وإلا لكنت
قد سمعت ما جرى فى الخريف الماضى .. لقد أصبح (ثورنفيلد هول)
أطلالا ، إذ احترق عن آخره .. كانت كارثة مروعة ! فقد اندلعت
النار فى بهيم الليل ، وقبل أن تصل عربات الإطفاء من (ميلكوت) كان
قد أصبح كتلة من لهيب » .. فغمغمت : « فى بهيم الليل ! » .. تلك كانت
ساعة الخطر دائماً فى (ثورنفيلد هول) . وإذ سألته عن الفاعل ، قال :
« لقد حدسوا .. بل أستطيع أن أقول إنهم تأكدوا .. لعلك لاتدرين أن
ثمة سيدة :: مجنونة ، كانت فى القصر ؟.: كانت حبيسة تحت رقابة
شديدة ، وكان أمرها مكتوباً ، حتى أن أحداً لم يكن على يقين من
وجودها ، إذ أن مخلوقاً لم يرها ، أو يعلم بأمرها إلا على سبيل الأقاويل
والشائعات .. فقد كان يقال إن مستر إدوارد أحضرها معه من الخارج
وزعم البعض أنها كانت خليلته . ولكن أمراً غريباً حدث .. منذ عام
واحد ! » :

وتوقعت أن أسمع قصتى . وفعلا قال الرجل : « لقد ظهر أن السيدة

كانت زوجة مستر روشستر ! » :. وقبل أن يمضى فى الرواية ، عمدت
إلى تحويله عنها ، بأن سألته عن الحريق ، ولكنه استطرد يحكى كيف أن
مستر روشستر أغرم بمربية شابة فى قصره : « ويقول الخدم إنهم لم يروا
قط إنساناً متيماً مثله ، فقد ظل يهيم بها حتى بعد أن تركته ، وكانوا
يراقبونه — وهكذا يفعل الخدم ياسيدتى ! — وهو يخلو إلى ذكراها .. إن
أحداً لم يعتبرها جميلة ، ولكنه كان فى حوالى الأربعين ، وهى فى العشرين
والسادة الذين فى سنه إذا وقعوا فى هوى فتيات ، فتنوا بهن كأنهم
مسحورون ! » :. ومرة أخرى رددته عن هذه الناحية ، إذ قلت :
« هل اتجهت الظنون إلى أن للمجنونة يداً فى الحريق ؟ » :

— إن هذا أكيد يا سيدتى ، فليس سواها من أشعل النار .: كانت
لها حارسة قديرة ، يقظة — تدعى مسز بول — لم يكن لها سوى عيب
واحد شائع بين الممرضات .. كانت تحتفظ دائماً بزجاجة خمر ، تجرع
منها فى الليل .: إذا نامت مسز بول مخمورة ، عمدت المجنونة — التى
كانت داهية ماكرة ! — إلى مفاتيحها فأخذتها ، وغادرت غرفتها ،
لتجوس فى البيت مرتكبة أى شر يخطر لها .. وفى تلك الليلة ، أشعلت
النار أولا فى ستائر الغرفة المجاورة لغرفتها ، ثم هبطت إلى الطابق الثانى ،
وسارت إلى غرفة المربية — وكان يبدو أنها عرفت كل ماجرى ، فكرهت
الفتاة — فأشعلت النار فى سريرها .. ولم تكن صاحبته فيه لحسن الحظ ،
إذ أنها كانت قد فرت قبل ذلك بشهرين : ولم يدخر مستر روشستر
جهداً فى البحث عنها ، وكأنها كنز ثمين . ولكنه لم يسمع كلمة واحدة
عنها ، فاستبد به القنوط ، واشتدت شراسته حتى غدت خطرة :

كما أصبح يحب الوحدة . فأرسل مسز فيرفاكس - مديرة القصر - إلى أهلها ، وقرر لها معاشاً سنوياً طيلة حياتها .. وأرسل مس أديل إلى المدرسة ، وقطع كل علاقاته بمعارفه ، واحتبس نفسه فى القصر كالناسك :. ولم يعد يخرج منه إلا فى الليل ، إذ كان يتمشى فى أراضيه وكأنه روح هائمة ، أو شخص مختل !..

- إذن فهو لم يكن بداخل القصر حين شب الحريق ؟

- بل كان .. ولقد صعد إلى الطابق العلوى - والنار مشتعلة فى كل شئ - فأيقظ الخدم وأعانهم على الهبوط ، وذهب إلى حيث كان يحبس زوجته .. ثم سمع صياحاً ينبئه بأنها كانت فوق سطح القصر ، تلوح بذراعيها وتصيح بأعلى صوتها .. وصعد إليها مستر روتشستر ، وسمعناه يناديها : « بيرتا ! » .. ورأيناه يقترب منها ، ثم إذا بها تصرخ ، وتقفز عالياً .. وفى اللحظة التالية كانت مهشمة على الإفريز الممتد أمام القصر ! » :

وسألته : « ميتة ؟ » ، فقال : « كالحجر الذى تناثر عليه مخها ودمها ! » .. وارتجف الرجل للذكرى الرهيبة . وسألته عما حدث بعد ذلك ، فقال : « احترق القصر عن آخره » .. قلت : « وهل فقدت أرواح أخرى غير تلك المرأة ؟ » ، فأجاب : « لا .. ولكن ، ليت مستر إدوارد المسكين مات إذ ذاك .. إن البعض يقولون إن ما أصابه كان جزاء عادلا لكتمانه أمر زواجه الأول ، ومحاولته الزواج مرة أخرى ، وامرأته على قيد الحياة .. على أننى فى الواقع أرثى له ! » .

- وهل هو ما يزال حياً ؟

فقال : « أجل ، أجل .. ما يزال حياً ، وإن كان الكثيرون يتمنون لو أنه كان قد مات ! » .. وعاد الدم يجرى بارداً فى عروقى وسألته : « لماذا ؟ .. وكيف ؟ .. وأين هو ؟ .. أهو فى انجلترا ؟ » .. وأجاب الرجل : « نعم .. إنه فى انجلترا ، ولا يستطيع أن يبارحها .. إنه عاجز ! » :

وعصف الألم بقلبى ، وأطال الرجل من طفقى بصمته ، قبل أن يقول : « إنه أعمى .. عمى تاماً ! » .. وكنت قد خشيت ما هو أسوأ :: خشيت أن يكون قد فقد عقله ! .. واستجمعت قواى ؛ لأسأل عن سر مصابه ، فقال الرجل : « كان كل شئ » بسبب شجاعته ، وكرمه : فقد أبى أن يبارح القصر قبل أن يخرج منه كل إنسان آخر . ثم هبط فى النهاية عن طريق السلم الكبير .. ولكن كل شئ انهار .. وأخرجوه من تحت الأنقاض ، حياً ، ولكنه فى أسوأ حال .. فقد سقط لوح من السقف عليه فوقاه النار والأنقاض ، ولكنه اقتلع إحدى عينيه ، وهشم إحدى يديه حتى اضطر مستر كارتر - الجراح - إلى بترها فى الحال .. أما العين الأخرى فقد أودت بها النار .. وهو الآن يعيش أعمى ، عاجزاً » :

فبادرت متسائلة : « وأين هو ؟ » .. فأجاب الرجل : « فى فرندين ، فى دار ضيعة يملكها ، على ثلاثين ميلا من هنا .. فى بقعة منعزلة ! » .. وعدت أسأله : « ومن يقيم معه ؟ » ، فأجاب : « جون العجوز وزوجته ، فقد أبى أن يعيش معه سواهما .. ويقولون إنه محطم تماماً ! » .

وطلبت إلى الرجل أن يعد لى عربة لتحملنى إلى فرندين على الفور ، ودفعت له ولخوذيه ضعف ما كانا يستحقان !

* * *

الفصل السابع والثلاثون

● كان بيت ضيعة (فرندين) عتيقاً، متوسط الحجم، خالياً من المبالغات المعمارية، وقد قام في جوف إحدى الغابات. ولقد سمعت عنه من قبل، إذ كثيراً ما حدثني مستر روشستر عنه.. وكان لبعده، وسوء موقعه - صحياً - مهجوراً، وليس بغير غرفتين أو ثلاث فيه أي أثاث أو رياش.. وإلى هذا البيت وصلت قبيل الغروب، في يوم بدت سماؤه كئيبة، وهبت فيه الريح الباردة، وتساقطت الأمطار الغزيرة.. وقطعت الميل الأخير على قدمي - بعد أن صرفت العربة - وكانت الغابة جد كثيفة حتى ليتعذر أن تلمح أثراً للدار عن كثب. على أنني ما لبثت أن بلغت أبواباً حديدية، فمررت خلالها، وإذا بي بين صفوف من الأشجار.. وكانت ثمة طريق مكسوة بالحشائش، فسلكتها ظناً مني أنها ستقودني إلى المسكن، ولكنها امتدت وتشعبت دون أن يبدو أثر لعمران، حتى خلت أنني ضللت سبيلي، وتكاثفت حولي ظلمة المساء وظلمة الأشجار الكثيفة، ورحت أتلفت حولي، ولكني لم أجد طريقاً أخرى، فتابعت سيري، وأخيراً، خف تكاثف الأشجار، وما لبث البيت أن لاح لناظري، وهو لا يكاد يرى بين الظلمة والأشجار وتحت الخضرة الكثيفة الرطبة التي كست جدرانه.. وانتهيت إلى باب، فوقفت في ساحة على شكل نصف دائرة، تحف بها الغابة.. وكان كل شيء ينم عن أن «البقعة منعزلة» كما قال الفندق. وكان السكون شاملا، لا يعكره سوى ارتطام قطرات المطر بأوراق الشجر، فسألت نفسي:

«أمن الممكن أن يكون هنا أحياء؟».. أجل، كان هناك أحياء، فقد سمعت حركة تنم عن أن الباب كان يفتح.. وفعلا، لم يلبث أن انفتح في بطء، وبرز منه شخص وقف على عتبته.. وتبينت - في العتمة - أنه كان رجلا بدون قبعة. ورأيته يبسط ذراعيه وكأنه يتبين ما إذا كان المطر منهمراً.. وعرفته - رغم الظلام - كان سيدي ومولاي إدوارد فيرفاكس روشستر!

وسمرت قدمي، وأمسكت أنفاسي، ووقفت أرقبه وأتأمله والأسى يعصر فؤادي، لأنه لن يراني.. كان لقاء فجائياً، لقيت عناء في كبح العواطف التي اهتاجها، وفي خنق صوتي حتى لا ينطلق بالرغم مني.. وكانت قامته كعهدي بها، قوية، مستقيمة.. على أنني حين اقتربت - بخطى مكتومة - تبينت في معالم وجهه تغيراً ينم عن هم وقنوط وكأنه طائر حبيس أو معذب، على أنني آثرت ألا أفاجئه، فوقفت أرقبه، وإذا به يسير في بطء نحو بقعة معشوشبة على حافة الساحة.. ثم وقف، وكأنه لم يكن يدري إلى أية ناحية يتجه. ورفع يده، فكشف عن حدقة عينه تحت أجفانه، وتطلع إلى السماء بمقلة غير مبصرة، وقد بدا عليه أنه كان يبذل جهداً ليجعلها تبصر.. كان وكأنه لم يطمئن إلى اتجاهه، فتلمس سبيله عائداً إلى الدار ودخلها.. وإذ ذاك اقتربت وطرقت الباب برفق، ففتحته زوجة جون: وبادرتها قائلة: «وأهلا أنت يا ماري؟.. كيف حالك؟». وأجفلت وكأنها رأت شبحاً. ولكني هدأت من روعها بسرعة، فهتفت: «أحقاً هذه أنت يا آنسة.. أوقدمت وحيدة، في مثل هذه الساعة، إلى هذا المكان المنعزل؟». وتبعتها إلى



وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها، واسند رأسه الى حافتها

المطبخ ، حيث وجدت جون جالساً يصطلى نار المدفأة ، فشرحت لها فى إيجاز ما سمعته عما حدث منذ بارحت (ثورنفيلد) ، وقلت إننى جئت لأزور مستر روشستر ، ثم أوفدت جون إلى البقعة التى بارحت فيها العربة ليحضر لى حقيبتى ، إذ كنت قد تركتها فى كوخ صغير .

وفيا كنت أسأل مارى عما إذا كان من الميسور أن أقضى ليلتى فى الدار ، دوى رنين جرس من قاعة الجلوس ، فخفت لتلبيته . وإذ ذاك قلت لها : « قولى لسيدك أن ثمة شخصاً يريد لقاءه ، ولكن لا تذكرى له اسمى » . فأجابت : « ما أظنه سيسمح لك ، فهو يرفض مقابلة أى إنسان » . ولكنها ما لبثت أن عادت قائلة : « اكتبى له اسمك والمهمة التى جئت من أجلها » . وتحولت تملأ كوباً بالماء ، وتضعه على صينية مع بعض الشموع ، قائلة : « إنه يحب دائماً أن توضع الشموع بالغرفة ، رغم أنه أعمى » . فقلت لها : « هاتى الصينية ، فسوف أحملها إليه » . وأرشدتنى إلى باب غرفة الجلوس ..

وكانت غرفة الجلوس تبدو كئيبة ، وقد أخذت حفنة من الجمر تتقد وئيداً فى مدفأتها التى وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها ، وأسند رأسه إلى حافتها ، على عادته ، وكان كلبه العجوز « بايلوت » منزوياً فى أحد الأركان ، وكأنه ينأى بنفسه عن مواطئ قدمى سيده . فلما ولجت الحجرة ، شرع الكلب أذنيه ، ثم قفز مرسلاً نباحاً قصيراً ، خافتاً ، وقفز نحوى ، فكاد يسقط الصينية من بين يدى . وما أن وضعتها على المنضدة ، حتى ربت الكلب وهمست إليه ليعود إلى حيث كان . والتفت مستر روشستر بحركة آلية ، وكأنما أراد أن « يرى »

ما كان يجرى ؟ فلما لم ير شيئاً ، تنهد وقال : « ناولينى الماء ياماري » .
واقتربت منه حاملة الكوب ، فتبعنى (بايلوت) وهو ما يزال منفعلا ،
فتساءل السيد : « ماذا هناك ؟ » : وعدت أهمس للكلب : « اهدأ
يا بايلوت ! » ، فأمسك السيد الكوب فى الهواء قبل أن تبلغ شفتيه ، وقال :
« هل أنت ماري ؟ » : فأجبت : « إن ماري فى المطبخ » .

ومد يده بحركة سريعة ، ولكنه لم يمسنى ، إذ لم يكن يرانى . وصاح
وقد لاح لى أنه كان يحاول أن « يرى » بعينيه اللتين فقدتا إبصارهما :
« من هذه ؟ من ؟ .. أجيبى .. تكلمى ! » . فقلت : « هل تريد مزيداً
من الماء ياسيدى ؟ .. لقد أرقت نصف ما كان فى الكوب » .. وصاح
فى لهجة آمرة : « من هذه ؟ .. من التى تتكلم ؟ » . قلت : « لقد عرفنى
بايلوت .. ويعلم جون وماري أننى هنا . لقد وصلت لتوى » .. فهتف :
« الله أكبر ! .. أى وهم يغشانى ؟ .. أى جنون عذب يستولى علىّ ؟ » :.
ولكننى قلت : « لا وهم ولا جنون ، فإن عقلك ياسيدى أقوى من أن
يغشاه الوهم ، وصحتك لاتدع سبيلا للجنون ! » .. وعاد يقول : « أين
المتكلمة ؟ .. أهو صوت فحسب ؟ : أواه ! ليس بوسعى أن أرى ،
فلابد لى من أن ألمس ، وإلا كف قلبى عن وجيبه ، وانفجر مخى ،
أو فقدت الحياة ! » :

ومد يده يتلمس ، فأمسكت بها بين راحتى . وصاح : « إنها نفس
أصابعها .. الأصابع الصغيرة ، النحيلة ! .. إذن فلابد أنها هنا بأكملها » .
وأفلتت يده القوية من قبضتى ، فأمسكت بذراعى ، وبكتفى وعنقى
وخصرى ، ثم ضمنى إليه ، وهو يهتف : « إنها جين ! .. نفس شكلها ،

وحجمها .. » . فأضفت قائلة : « وصوتها .. هى بأكملها هنا مع وهذا
قلبها أيضاً .. ألا باركك الله يا سيدى ! لكم أنا مسرورة إذ أجدنى بقربك
مرة أخرى » . ولكنه لم يقو على أن يقول شيئاً سوى : « جين إير ! ..
جين إير ! » . فقلت : « أجل ياسيدى العزيز .. أنا جين إير .. لقد
عثرت عليك .. لقد عدت إليك ! » .

— أحقاً ؟ .. بلحمك ودمك ؟ .. أحقاً أنت جين ، وعلى قيد
الحياة ؟

— إنك تلمسنى يا سيدى . وتضمنى .. لست باردة كالجثة ، ولا
هباء كالأشباح .. بل أنا حقيقة !

— يا حبيبتى ! .. هذه حقاً أطرافها .. وهذه قسماتها .. ولكنى
لا أصدق أننى أحظى بالنعيم بعد كل ما لقيت من تعاسة .. إنه حلم ،
وكم من أحلام مثله تراودنى فى ليلى ! .. أحلام أضمها فيها إلى قلبى ،
وأقبلها ، وأشعر بأنها تحبنى ، وأثق من أنها لن تفارقنى .

— ولن أفارقك منذ اليوم يا سيدى .. أبداً !

— أيقول الطيف : أبداً ؟ ! .. ولكننى أستيقظ دائماً لأجد أن الأمر
لايعدو أن يكون سخرية خاوية ، وأننى وحيد ، مهجور .. حياتى ظلام
وعزلة ويأس .. إن روحى ظامئة ولكنها محرومة من الشراب .. وقلبى
جائع ولكنه لا يلقى القوت قط .. أيها الحلم الرقيق الناعم المستكين فى
أحضانى ، لسوف تطير كما طار إخوتك من قبل : ولكن .. قبلينى قبل
الرحيل .. قبلينى يا جين !

والصقت شفتى بعينيه اللتين كانتا مؤتلقتين يوماً فأصبحتا بلا شعاع

وبشعره وجبينه : وفجأة ، وجدته ينهض وقد استولى عليه اليقين ، وهتف « إنها .. أنت جين !.. إذن فقد عدت إلىَّ ، ولست جثة هامدة فى خندق أو جوف جدول .. ولست تهيمين منبوذة بين أغراب ؟ » .. قلت : « لا ياسيدى ، بل أنا الآن امرأة مستقلة » .. وإذ تساءل : « مستقلة ؟ » ، قلت : « لقد مات خالى فى ماديرا ، وترك لى خمسة آلاف جنيه » .. فصاح : « لعمرى ، إنها الحقيقة .. إنه واقع !.. وهذا هو صوتها ذو الطابع الخاص ، الذى يحيى قلبى الذاوى . إذن فأنت امرأة غنية يا جانيت ؟.. لاشك فى أن لك الآن أصدقاء يعنون بك ، ولا يجشمونك عناء أن توقفى حياتك على أعمى أكسح عاجز ! » ، فهتفت : « لقد أنبأتك ياسيدى بأننى مستقلة ، وغنية ، وسيدة نفسى ! » . فتساءل : « وهل ستمكثين معى ! » . وكان جوابى : « بالتأكيد ، ما لم تكن تمانع أنت !.. سأكون جارتك ، وممرضتك ، ومديرة بيتك .. إننى أجدك وحيداً ، وسأكون أنيستك : أقرأ لك ، وأسير معك وأجلس معك ، وأقوم بخدمتك ، وأكون عينين ويدين لك . فكفكف عن الحزن يا سيدى العزيز ، فلن تكون وحيداً مادمت أنا على قيد الحياة ! » .

ولم يجب ، بل بدا شارد الذهن ، ثم تنهد ، وهمَّ بأن يتكلم ، ولكنه عاد فأطبق شفتيه . وشعرت بشىء من الحيرة ، وخشيت أن أكون قد تجاوزت حدودى إذ عرضت عليه البقاء معه ، وأنه رأى فى ذلك مايجافى الاحتشام ، كما فعل سانت جون !.. والواقع أننى ما اقترحت البقاء معه ، إلا استناداً إلى أنه كان يود أن أكون زوجته .. وشرعت أتسلل من أحضانه برفق ، ولكنه تشبث بى ملهوفاً ، وقال : « لا ياجين ، لا تذهبى !.. لقد لمستك ، وسمعتك ، ونعمت بوجودك ، وبعذب مواساتك ، وليس بوسعى أن أتخلى عن هذه المسرات .. لابد من أن أستحوذ عليك ، ولتضحك الدنيا ، ولتقل إننى أنانى ، فإن هذا لن يهمنى .. إن روحى تطلبك ، فإن لم تنل بغيتها فستوقع على كيانى انتقاماً مميتاً » . فقلت : « حسناً ياسيدى ، سأبقى معك كما قلت » . فعقب قائلا : « ولكنك تفهمين من البقاء معى غير ما أفهم . إنك قد تعتزمين أن تعنى بى كممرضة رحيمة ، وهذا يكفينى ، إذ أرى أن من الخليق بى الآن ألا أكن لك سوى مشاعر أبوية .. ولكنك لن تظلى أبداً ممرضتى ياجانيت .. إنك شابة ولابد من أن تتزوجى يوماً » :

ـ لست أحفل بالزواج .

ـ بل يجب أن تحفلى .. ولو أننى اليوم كما كنت من قبل ، لما جعلتك تحملين هماً ، ولكننى .. جسد بلا بصر !

واستكان للأسى مرة أخرى : أما أنا فقد ازددت ابتهاجاً وجرأة : إذ أدركت العقبة التى كانت تعترضه .. ولكنها لم تكن تعترضنى أنا ، فقلت : « لسوف يضطلع شخص ما بردك إلى الطبيعة الإنسانية يوماً ، إذ أرى أنك قد تطورت إلى أسد ، أو ما يشبهه » . وإذ ذاك بسط ذراعه المبتورة اليد ، وقال : « ولكننى لم أوت يداً ولا مخلباً فى هذه الذراع .. إنها بشعة المنظر ، ألا تظنين ذلك يا جين ؟ » . فقلت : « إننى أشعر بالأسى إذ أراها ، وإذ أرى عينيك ، والحرق الذى فى جبينك .. وأسوأ مافى الأمر أن المرء فى خطر الوقوع فى حبك من أجل هذا كله ! » .. فقال : « ظننت أنها ستثير تقززك ياجين » :

– أحقاً ؟ .. لا تقل هذا ، وإلا انزلق لساني إلى تسفيه حكمك :
والآن ، دعني أغادرك وهلة لأذكي النار ، وأنظف المكان أمام المدفأة .
هل تعرف النار الجيدة إذا وجدت ؟

– أجل ، فإن عيني اليمنى تستطيع أن ترى الوهج وكأنه ضباب متقد .

قلت : « وهل ترى الشموع ؟ » . فأجاب : « خافتة جداً .. كل منها كالسحابة المضيئة » . فسألته : « وهل تراني ؟ » . وكان جوابه : « لا ياحوريتي .. ولكني أحمد الله على أن يوسعني أن أسمعك وأن ألمسك ! » .

واستدعيت ماري ، وسرعان ما نسقت معها الغرفة ، فأصبحت بهيجة المنظر ، وأعددت له عشاء شهياً ، وقد انتعشت أحاسيسي . وأخذت أحدثه أثناء العشاء – ووقتاً طويلا بعده – في سرور وانطلاق .. أجل ، كنت أشعر وأنا معه بانطلاق وراحة ، لأنني كنت أدرك أنني أروق له ، وأن كل ما أقول يسري عنه وينعشه .. وياله من شعور طروب ، رد الحياة والضوء إلى طبيعتي كلها . فإذا بي أعيش في وجوده ، وإذا هو يعيش في وجودي ! .. وأخذ بعد العشاء يسألني أين كنت ، وماذا كنت أفعل ، وكيف عثرت عليه . ولكني اقتصرت على إجابات مقتضبة ، خشية ألا يتسع الليل للتفصيل ، كما أنني لم أشأ أن أنكأ جراحاً قديمة في فؤاده .. وكان لا يفتأ يسائلني : « أحقاً أنت آدمية ياجين ؟ من الذي يستطيع أن يصف الحياة المظلمة ، البغيضة ، اليائسة التي كنت أرزح تحتها في الشهور الماضية ؟ .. لم أكن أفعل شيئاً ، أو أتوقع شيئاً .. أخلط بين الليل والنهار ، دون أن أشعر بالبرد إذا انطفأت النار .

ولا بالجوع إذا نسيت الطعام .. حزن لا ينقطع ، وشوق محموم إلى أن أضم (جيني) ثانية .. كنت أصبو إلى استردادها أكثر مما أتوق إلى استرداد بصري . فكيف أصدق أن جين معي الآن ، وأنني أسمعها تؤكد أنها تحبني ؟ » .

* * *

● وشعرت به مستيقظاً في ساعة جد مبكرة من الصباح التالي ، يتنقل من غرفة إلى غرفة . وما أن هبطت إليه ماري ، حتى سمعت هذا السؤال : « هل مس اير هنا ؟ » .. ثم : « في أية غرفة أنزلتها ؟ .. أهي غرفة جافة ؟ وهل استيقظت ؟ » . فهبطت إليه ، ودخلت الغرفة بخطى خفيفة ، وأخذت أتأمله قبل أن يفطن إلى وجودي .. كان من المحزن حقاً أن أشهد تلك الروح القوية حبيسة جسد عاجز مشوه ! .. كانت تجاعيد الأسى تتخلل قسماته القوية ، فذكرني مظهره بمصباح انطفأ ، وجثم يرتقب أن يضاء ثانية .. واأسفاه ! .. لقد أردت أن أبدو مرحة ، ولكن عجز الرجل الجبار مس شغاف قلبي .. ومع ذلك فقد رحت أخاطبه بكل ما استطعت من خفة روح : « إنه صباح مشمس مشرق ياسيدي .. ولن تلبث أن تخرج للنزهة » . وأيقظت كلماتي وميض روحه ، فأشرقت أساريره وهتف : « آه ، إنك هنا حقاً ياعصفورتي ! .. تعالي إليّ ! .. إنك لم تذهبي ، ولم تتلاشي .. كل أنغام الدنيا تتركز في لسان جيني الحبيبة ليسكبها في أذني .. وكل أشعة الشمس أحسها في وجودها ! » .

وقضينا معظم النهار في الهواء الطلق ، فقد قدته بعيداً عن الغابة الكثيفة الرطبة ، إلى بعض الحقول الناضرة ، ورحت أصف له بهاء

الخضرة ، وحسن الزهور ، وصفاء السماء .. واخترت له مجلساً على جذع شجرة فى بقعة جميلة ، متوارية . ولم أمانع حين أجلسنى على ركبتيه: ولماذا أمانع مادام كل منا سعيد بقرب الآخر ؟.. وفجأة ، صاح وأنا بين ذراعيه : « يالك من هاجرة قاسية !.. أواه ، ياجين ، أى شعور تملكنى حين اكتشفت فرارك من ثورنفيلد ، وعندما عز علىّ العثور عليك فى أى مكان ، ولما تبينت أنك لم تتزودى بنقود أو أى شىء ينفع بدلا منها ! » .. وشرعت أروى له تجاربى فى العام الأخير ، وقد خففت كثيراً من وصف الأيام الثلاثة التى قضيتها مشردة ، جائعة ، حتى لا أسبب له ألماً لا داعى له .. وكان يقاطعنى باللوم والعتاب ، فلما انتهيت سألنى عن سانت جون . وغاظه أن رحت أصفه بكل حسن ، وأطنب فى امتداحه .. ورأيت أن الغيرة قد لدغته ، فلم يلبث أن قال :

— هل عينك سانت جون معلمة قبل أن يعرف أنك ابنة خاله ؟

وأجبت : « نعم » ، فقال : « هل كنت ترينه كثيراً ، وهل كان يزور المدرسة أحياناً ؟ » ، فأجبت : « يومياً » .

— هل كان يقر تصرفاتك ياجين ؟.. إنى أعرفك بارعة ذكية ؛

وقلت : « أجل ، كان يقرها » . فقال : « هل اكتشف فيك أشياء كثيرة لم يكن يتوقعها ؟ » . وكان جوابى : « لست أدرى » . فعاد يسأل : « تقولين إنك كنت تقيمين فى كوخ صغير بالقرب من المدرسة ، فهل كان يزورك فيه ؟ » .. وأجبت : « بين آن وآخر » ، وهنا سألنى : « فى المساء ؟ » ، فقلت : « مرة أو اثنتين » . وصمت برهة ، ثم عاد يسألنى : « كم أقمت معه ومع أخته بعد اكتشاف القربى ؟ » ، فكان جوابى :

« خمسة أشهر » .. وإذ عرف أننى درست الألمانية فى تلك الأثناء ، وأن سانت جون علمنى قليلا من الهندوستانية ، قال : « لماذا رغب فى أن يعلمك الهندوستانية ؟ » . فأجبت : « كان يرمى إلى أن أذهب معه إلى الهند » :

— آه ، بلغت لب الموضوع .. أكان يريد الزواج منك ؟

— بل عرض علىّ الزواج .. سألنيه أكثر من مرة ، ولم يكن يقل عنك إلحاحاً واستحثاثاً .

— أكرر لك يامس إير أن بوسعك أن تغادرينى . لماذا تبقين جاثمة على ركبتى وقد أذنت لك بالرحيل ؟

قلت : « ولكن أين أذهب ياسيدى ؟ » . وكان جوابه : « مع الزوج الذى اخترته .. هذا السانت جون ريفرز ! » . وهنا قلت : « إنه ليس زوجى ، ولن يكون ، فهو لايحبنى ، ولست أحبه .. ما أراد الزواج منى إلا لأنه ظن أننى أصلح لأن أكون زوجة مبشر .. إنه بارد إزائى كجبل من جليد ، فهو ليس مثلك ياسيدى .. إنه لا يرى فى شخصى فتنة ، وإنما يرى بعض محاسن عقلية نافعة .. أفأتركك بعد هذا يا سيدى وأذهب إليه ؟ » :

وارتجفت على الرغم منى ، فتعلقت بسيدى الأعمى الحبيب . وإذ ذاك ابتسم قائلا : « أحقاً ياجين أن هذه هى حقيقة ما بينك وبين ريفرز ؟ » : فقلت : « كل الحقيقة يا سيدى .. آه ، لاحاجة بك لأن تغار ، فإنما أردت أن أداعبك قليلا لأبدد عنك الشجن .. لو أنك أدركت كم أحبك لازدهاك التيه وغمرك الرضى . إن قلبى بأسره ملك

لك يا سيدى ، وسيبق معك ولو شاء القدر أن يقصيني عنك » : فقبلني وقد اكفهر محياه ، وتمتم : « أواه يا بصرى المظلم ، ويا قواى العاجزة ! » : ورحت أسرى عنه ، فأشاح عنى قليلا ، وإذ ذاك رأيت دمعة تنحدر من عينه المغلقة ، فانفطر قلبي . وعاد يقول : « إننى لست أفضل من الشجرة العتيقة التى اقتلعتها العاصفة فى حديقة قصر ثورنفيلد .. فأى حق لهذا الطلل ، فى أن يسأل زهرة متفتحة بأن تضىء بنضارتها بقاياه ؟ » : فقلت : « ما أنت بالشجرة التى اقتلعتها العاصفة يا سيدى ، وإنما أنت خضرة ونضارة وقوة . لسوف تنمو النباتات حول جذرك ، سمحت لها أو لم تسمح ، لأنها تسعد فى الاحتماء بظلك .. وبينما تحنو عليها ، ستلتف هى حولك ، لأن قوتك تتيح لها حمى أميناً ! » :

وعاد يبتسم ، إذ سريت عنه . على أنه ما لبث أن قال : « أواه يا جين ! .. ولكننى أنشد زوجة » .. فقلت : « أحقاً يا سيدى ؟ » : وهنا قال :

— أجل ، سأختار تلك التى أحبها فوق كل شىء .. هل تتزوجين منى يا جين ؟

وإذ أجبت : « نعم ياسيدى » ، قال : « أتتزوجين من أعمى مسكين ، تأخذين بيده لتقوديه ؟ » . فقلت : « أجل ياسيدى » . وعاد يسأل : « أتتزوجين رجلا عاجزاً يكبرك بعشرين عاماً ، وتضطرين إلى خدمته » : قلت : « أجل يا سيدى » : فهتف : « أواه يا حبيبتى ! .. ليباركك الله ويجزل لك الجزاء ! » : وإذ ذاك قلت فى حرارة : « مستر روشستر :: إذا كنت قد فعلت خيراً فى حياتى ، وإذا كانت قد جالت بخاطرى

يوماً فكرة طيبة ، وإذا كنت قد صليت يوماً صلاة مخلصة لا شائبة فيها ، وإذا كنت قد تمنيت يوماً أمنية حلالا .. فها أنذا الآن أنال الجزاء » ؟

— ذلك لأنك إنما تغتبطين بالتضحية .

— تضحية ! .. بأى شىء أضحى ؟ .. أهى تضحية أن أستبدل بالجوع قوتاً ، وبالرجاء سعادة واقعة .. أن أحتضن أغلى ما لدى .. أن ألصق شفتى بمن أحب .. أن أستند إلى من أطمئن إليه .. أهذه تضحية ؟ .. إذا كانت كذلك ، فأنا مغتبطة فعلا بالتضحية !

— أوليس احتمال عجزى والتغاضى عن عيوبى تضحية ؟

— إنها ليست شيئاً فى نظرى ، فأنا أحبك اليوم أكثر من ذى قبل ، إذ أجدنى ذات نفع لك .

— إذن ، فليس لدينا ماتتريث من أجله . لنتزوج فى التوّ !

وكان يتكلم بحماسة ، وقد عاودته حمية الماضى . فقلت : « إننى أرى الشمس قد تجاوزت السمت ، فدعنى أعرف الوقت فى ساعتك » .؟ ونظرت إلى الساعة ثم قلت : « إنها الرابعة من بعد الظهر ، أفلا تشعر بجوع يا سيدى ؟ » . ولكنه عاود حديثه الأول : « بعد ثلاثة أيام تعقد قراننا ياجين ، ولا حاجة بنا للانتظار . إنك تظنينى كلباً زنديقاً ياجين ؛ ولكن قلبى يزخر بالشكر لرب هذه الأرض ، فهوأبعد نظراً ، وأعدل حكماً ، وأوسع حكمة من الإنسان . لقد أذنبت ، إذ كدت أدنس زنبقتى البريئة ، ولكن الله القدير انتزعها منى ، فكدت ألعنه فى حقى بدلا من أن أحنى الرأس لحكمه :: تحديته ، فتعقبتنى العدالة الإلهية ، وتوالت علىّ

النكبات ، واضطررت إلى أن أهيم فى واد تخيم عليه ظلال الموت : وأدركنى قصاص الله فأذلنى إلى الأبد . إنك لتعلمين أنى كنت مغروراً بقوتى ، فأين هى الآن وقد أصبحت مضطراً إلى من يقودنى ، كما يفعل الطفل فى ضعفه ؟ . لقد بدأت أرى يد الله وأعترف بقدرتها :: بدأت أندم ، وأتوب ، وأتقرب إلى خالقى .. بدأت أصلى ، صلاة صادقة برغم قصرها .. ومنذ أيام ، بل منذ أربعة أيام — فى مساء الاثنين الماضى — اعترتنى حال غريبة ، فإذا الحزن يحل محل الجحود ، والأسى محل العناد .. وكنت أوقن — بعد أن عجزت عن العثور عليك — من أنك ولابد ميتة .. وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، ناشدت الله أن يخلصنى من الحياة إذا رأى فى هذا خيراً ، وضرعت فى أن يجمعنى العالم الآخر بك :: وكنت إذ ذاك جالساً فى غرفتى بجوار نافذة مفتوحة .. واشتد بى الحنين إليك ياجانيت ! . فهتف لسانى بما كان قلبى يهفو إليه ، فهتفت : « جين ! جين ! جين ! » .

فقلت أسأله : « أكان ذلك فى مساء الاثنين .. حوالى منتصف الليل ؟ » .. فقال : « أجل . ليس المهم الوقت ، وإنما المهم ما حدث بعد ذلك .. لسوف تظنين أنى أومن بالخرافات ، ولكنه الحق أقول :: فما إن هتفت باسمك ، حتى أجابنى صوت — لا أدرى من أين انبعث ، ولكنى أعرفه جيداً — : « إنى قادمة ، انتظرنى ! » :: وبعد لحظة ، حملت الريح هذه الهمسة : « أين أنت ؟ » .. إن من العسير علىّ أن أصف لك ما أريد . إن (فرنلدين) دفينة — كما ترين — فى جوف غابة كثيفة ، تكتم ذبذبات الصوت ، ومع ذلك فقد خيل إلىّ أن عبارة « أين أنت ؟ »

انطلقت بين جبال ، إذ سمعت لها صدى تردد .. وما كان أحلى النسائم التى لمست جبينى إذ ذاك .. إنى لأومن بأن روحينا تقابلتا إذ ذاك » .

ولقد كانت ليلة الاثنين ، وحوالى منتصف الليل أيها القارئ ، حين سمعت النداء الخفى ، وأجبت عليه بتلك الكلمات .. على أننى لم أصارح مستر روشستر بذلك ، فقد بدت الظاهرة أغرب من أن أصفها له :: كان عقله فى دور النقاهة من آلامه ، فلم يكن ينبغى أن يرهق بأسرار ما وراء الطبيعة .

* * *

الفصل الثامن والثلاثون

● وتزوجته ، أيها القارئ ! .. وكان قراناً هادئاً لم يحضره سواه وإياى والكاهن وكاتب الكنيسة . وعندما عدنا إلى الدار ، قصدت إلى المطبخ ، حيث كانت مارى تطهو ، وجون ينظف السكاكين ، وقلت : « لقد تزوجت مستر روشستر فى هذا الصباح ياماري ! » .. وكانا من البسطاء ، المحتشمين ، الذين يستطيع المرء أن يزجى إليهم أى نبأ دون أن تخرق أذنيه صيحات الدهشة أو الفرح .. فتطلعت إلىّ مارى فى هدوء ، وقد غفلت عن المغرفة التى كانت تقلب بها دجاجتين على النار ، فتركتها معلقة فى الهواء ثلاث دقائق ، بينما كف جون برهة عن تلميع السكاكين : على أن مارى ما لبثت أن تحولت إلى الدجاجتين ، دون أن تفوه بأكثر من : « أحقاً يا آنسة ؟ .. أحسنتما ! » .. ولمحت جون يبتسم فاغراً فاه ، وقال : « لقد قلت لمارى إنى كنت أعرف أن مستر إدوارد سيقدم على هذا ، وفى رأيى أنه أحسن صنعاً » .

وكتبت لقورى إلى (مور هاوس) و (كمبردج) أزجى النبأ ، وأشرح سر تصرفى . وابتهجت ديانا ومارى بلا تحفظ .. ولست أدرى كيف تلقى سانت جون النبأ ، فإنه لم يرد قط على خطابى ، على أنه ما لبث أن كتب لى بعد ستة أشهر ، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير إلى زواجى . وحرص بعد ذلك على الكتابة إلى بانتظام — وفى فترات غير متقاربة — متمنياً لى السعادة .

وما أظنك نسيت أديل ، أيها القارئ .. إننى سرعان ما استأذنت مستر روشستر فى الرحيل لزيارتها فى مدرستها . ولكم أثر فى نفسى الفرح الطاغى الذى تولاها .. وبدت لى شاحبة ، هزيلة ، مهمومة ، فلما تبينت أن نظام المدرسة أقسى من أن تحتمله صبية فى سنها ، صحبتها معى فى عودتى ، وألحقتها بمدرسة قريبة أكثر ملاءمة لها . واعتدت أن أزورها ، وأن أستقدمها إلى دارنا ، وألا أدعها تشعر بحاجة أو أسى .. وهكذا اقتربت قصتى من ختامها ، فلم تبق سوى كلمة عن حياتى الزوجية ، ونظرة سريعة إلى مصائر أولئك الذين ترددت أسماؤهم فى الرواية :

لقد انقضت عشر سنوات على زواجى ، فعرفت مدى المتعة التى يحظى بها المرء حين يعيش من أجل أحب عزيز لديه على الأرض .. إن لغتى تعجز عن وصف هنائى ، لأننى حياة زوجى ، وهو حياتى ، وما أظن امرأة توثقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتى بزوجى .. إننى لا أمل عشرة إدوارد ، وهو لا يمل عشرتى . اللهم إلا إذا جاز للمرء أن يسأم وجيب قلبه !.. إننا دائماً معاً ، وكأننا شخص واحد ينعم بالوحدة والحرية !.. ولقد ظل مستر روشستر فاقد الإبصار خلال العامين الأولين

من زواجنا ، فكنت أنا بصره ، كما لا أزال يده اليمنى .. كان يرى الطبيعة بعينى ، ويقرأ الكتب بهما ، وما سئمت قط أن أعوضه ببصرى عن بصره المفقود .. وكان حبه لى يجعله لا يألم من اعتماده علىّ ، واستمتاعه بخدمتى له ، فقد كان موقناً من أننى أحبه كل الحب . وفى ذات صباح — فى نهاية العام الثانى لزواجنا — أخذ يملى علىّ خطاباً . وفيما كنت أكتب ، سألنى : « هل تلبسين حلية لامعة حول عنقك ياجين ؟ » .. وكنت أحيط رقبتى بسلسلة ذهبية ، فقلت : « أجل » . قال : « وهل ثوبك أزرق خفيف ؟ » .. وكان ثوبى كذلك فعلا . وإذ ذاك أنبأنى إدوارد بأنه بدأ منذ زمن يشعر بأن الغيوم التى كانت تخيم على عينه الوحيدة أخذت تخف وتنقشع . وقد تأكد من الأمر فى ذلك الصباح . ومن ثم رحلنا إلى لندن ، حيث فحصه أخصائى مبرز فى علاج البصر ، فلم يلبث أن استرد إبصار تلك العين . ومع أنه لا يستطيع الآن أن يرى بجلاء تام ، ولا أن يطيل القراءة والكتابة ، إلا أنه يستطيع أن يتبين طريقه دون أن يأخذ أحد بيده .. وعندما تلقى أول أولاده بين ذراعيه — عقب مولده — استطاع أن يرى الابن الذى ورث عنه عينيه فى حالها الأول .. العينين الواسعتين ، المتألقتين ، السوداوين !.. وفى هذه المناسبة ، عرف إدوارد — مرة أخرى — أن الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبى إدوارد فى سعادة يضاعف منها أن أحب الناس إلينا سعداء ، هم الآخرون . فلقد تزوجت ديانا ومارى ريفرز .. الأولى من ضابط فى البحرية ، طيب القلب والسيرة ، والثانية من قس كان زميل أخيها فى الدراسة .. أما سانت جون فقد ذهب إلى الهند ،

وما يزال يمضى فى الطريق التى اختارها لنفسه، كرائد قوى العزيمة ، لا يتطرق الكلل إلى همته وسط الصخور والأخطار .. لقد كان صارماً ، متعنتاً ، طموحاً . ولكنها كانت صرامة المجاهد فى سبيل الله .. وتعنت الرسول الذى يتمثل بقول المسيح : « من يأتى ورائى فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعنى » .. أما طموحه ، فطموح الروح الكبيرة السامية ، التى تهدف إلى أن تكون فى الصفوف الأولى بين من يعتقون من الأرض ، ويظفرون بالخلاص ، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة .. ولم يتزوج سانت جون حتى الآن . ولقد انتزع خطابه الأخير الدموع من عينى ، وإن ملأ قلبى بفرح ربانى .. لقد أحسست بأن الخطاب التالى سيكتب بيد غير يده ، لينقل إلى مصرعه .. مصرع خادم أمين وفى لربه . ولكن ، لماذا البكاء ؟.. إن الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الأخيرة فى حياة سانت جون ، وسيظل عقله صافياً ، وأمله قوياً ، ويقينه ثابتاً .. لقد عبر فى خطابه الأخير عن هذا بقوله :

– لقد أنذرنى معلمى ومولاى .. أن صوته يزداد وضوحاً فى كل يوم، وهو يقول لى : « يقيناً إنى لآت سريعاً ! » .. وفى كل ساعة ، أجيب فى حرارة : « آمين .. فلتأت أيها الرب يسوع ! » .

* * *

(تمت بحمد الله)